913
S246wdA

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
6 SEP 1972
Tel. 260458

813
S246ndA

الكوميديا الإنسانية

تأليف

الكاتب الأمريكي الشهير

وليم ساروبان

الصور من وضع دون فريمان

ترجمة

بدر الديب

نشر بالاشتراك
مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بالقاهرة ونيويورك

هـذه الترجمة مرخص بها

وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطبـاعة والنشر
بشراء حق الترجمـة من صـاحب هـذا الحق
ونزلت عنه لدار أخبار اليوم

This is a translation of William Saroyan's
«Human Comedy».
Copyright 1943 by William Saroyan.
Illustrations by courtesy of Don Freeman.

- ١ -

بوليسيس

فى يوم من الأيام وقف الصبى الصغير المدعو بوليسيس ماكولى عند الجحر الجديد الذى شـــقه السنجاب فى الفناء الخلفى لداره الواقعة فى طريق ســانتا كلارا بايتاكا من ولاية كاليفورنيــا • وكان سنجاب هذا الجحر قد دفع أمامه شـــيئا من الطين الرطب الندى ،وراح يختلس النظر للصبى، وقد أدرك تماما أن الغلام غريب عنه، غير أنه قد لايكون عدوه •وقبل أن يكمل الصبى استمتاعه بتلك المعجزة أمامه طار أحـــد طيور ايتاكا الى شـــجرة الجوز القديمة فى الفناء الخلفى ثم استقر على غصن من غصونها وراح يغنى منتشيا ، فانتقلت دهشة الصبى من الارض الى الشـجرة • وجاء بعد ذلك ، خير من هذا وذاك ،قطار بضاعة راح يصفر ويدوى

بعيدا . وتسمع الصبى للصوت واحس الارض من تحته ترتجف مع حركة القطار ، فانفجر يعدو متحركا - كما بدا له - فى سرعة لا تدانيها سرعة .

وبلغ معتر الخط الحديدى فى لحظة مكنته ان يرقب القطار كله يمر امامه من القاطرة الى المؤخرة . ولوح الصبى للسائق ولكن السائق لم يرد عليه تحيته . ولوح لخمسة آخرين كانوا فى القطار غير ان واحدا منهم لم يرد عليه . وكان فى امكانهم أن يردوا تحيته ولكنهم لم يفعلوا . واخيرا رأى الصبى زنجيا يقف معتمدا على جانب عربة القطار الاخيرة ، وسمعه يوليسيس يغنى مرتفعا بغنائه فوق ضجيج القطار :

« كفى بكا يا فتاتى ، أوه . . . كفى اليوم بكا ،

فسنغنى أنشودة لبيتنا القديم فى كنتكى ،

لبيتنا القديم فى كنتكى ، هناك بعيدا ... »

ولوح يوليسيس للزنجى أيضا ، وهناك حدث ذلك الشىء العجيب الذى لم يكن يتوقعه . ان هذا الرجل ، ذلك الاسود الذى يختلف عن الآخرين جميعا ، قدر على يوليسيس تحيته صائحا :

« أننى عائد الى بيتى أيها الصبى ، عائد الى حيث أنتمى ! »

وظل الصبى الصغير والزنجى يلوح أحدهما للآخر حتى كاد القطار يختفى عن الابصار .

وعند ذلك نظر يوليسيس حوله الى هذا العالم الذى يعيش فيه فى عزلة عجيبة ، ذلك العالم الغريب الذى غزته الطفيليات وملأته مخلفات البشر ، فبدا لا معنى له ولكنه مع ذلك جميل رائع . وهبط الممر الضيق رجل عجوز يحمل على ظهره حزمة مربوطة ، فلوح يوليسيس له أيضا ، ولكن الرجل كان من التعب والشيخوخة بحيث لا يستطيع أن ينشط مسرورا لتودد صبى صغير . والقى الرجل العجوز على يوليسيس نظرة وكأنما هو والصبى قد أدركهما الموت منذ امد بعيد .

واستدار الصبى الصغير وسار مستأنيا صوب بيته وما زال يسمع فى داخله وهو سائر صوت القطار العابر وغنـــاء الزنجى وكلماته الفرحه : « اننى عائد الى بيتى أيها الصبى ، عائد الى حيث انتمى » . وتوقف يتأمل هـذا كله ، ثم راح يتسكع حول شجرة جميز صينى ويضرب بقدميـــه ثمارها الصفراء الساقطة المتعفنة من حولها . وبعد لحظـــة تبسم الصبى ، فارتسمت على شـفتيه بسمة أسرة ماكولى ، تلك البسمة الوديعة الحكيمة الخفية التى ترضى بكل شىء .

وعندما وصل ناصية الطريق واســـتدار ورأى بيت أسرته ، بدأ يوليسيس يعدو حاجلا وهو يضرب الارض بأحـــد عقبيه ، وتعثر الصبى وأوقعته لعبتـه ، ولكنه انتصب سريعا على قدميه وواصل طريقه .

وكانت أمه فى فناء البيت ترمى الطعام للدجاج ، ورأته يتعـثر ويقع وينتصب ويعاود الحجل . وقدم هو اليها خفيفـــا هادئا ، ووقف الى جانبها قليلا ثم ذهب الى بيت الدجاج يبحث عن البيض . ووجد بيضة فراح ينظر اليها لحظة ، ثم التقطهـــا وعاد بهـــا الى أمه وأسلمها لها مترفقا حـذرا وفى نفسه معنى لا يستطيع الكبير أن يدركه ولا الطفل الصغير أن يذكره !!

- ٢ -

هومير

اعتلى أخوه هومير مقعد دراجة قديمة وسارت تجاهد صامدة وسط وحل الطريق الريفى . وكان هومير ماكولى يرتدى حلة ساع من سعاة التلغراف واسعة فضفاضة عليه وقبعة ضيقة لا تسع رأسه . وكانت الشمس تهبط الافق وقد شاعت حولها سكينة الامسيات الناعسة التى يعتز بها أهل ايتاكا ويحبونها حبا عميقا . ومن حول الرسول الساعى رقدت زهور الاوركيد وشجيرات الاعناب فى كل بقعة على تلك الارض العتيقة أرض كاليفورنيا . وعلى الرغم من أن هومير كان يتحرك ويشق طريقه سريعا فانه كان مستيقظا لكل ما فى المنطقة من سحر لا يفوته منه شىء . لقد ظل يقول لنفسه عند كل شىء : «أنظر الى هذا .. أنظر الى الارض، الى هذه الشجرة، الى الشمس الى هذه الحشائش، الى تلك السحب ... هل لك أن تنظر ؟ » وبدأ هومير يزين الارض

بحركة دراجته وما ترسمه من خطوط ، وكأنما أراد أن يصاحب هذا الوشى بالنغم، فانفجر فجأة يغنى بنشيد بسيط ، فيه الكثير من الفكاهة والمرح · وخيل اليه أنه يسمع هذا النشيد من الاوبرا تعزفه أوتار الاوركسترا بينما يتبعها عزف أمه على « الهارب » وعزف أخته بس على البيانو ، ثم تذكر أخاه ماركوس فخيل اليه أنه أنضم الى المجموعة يرسل النغم فى عذوبة باسمة وحزينة على « الاكورديون » وهكذا التأم شمل الاسرة ·

وتلاشت موسيقى هومير أمام جلبة مسرعة صدرت عن ثلاثة أجسام عجيبة راحت تندفع عابرة فى السماء · ورفع الساعى عينيه ينظر اليها ، واذا به يسقط مباشرة بدراجته وسط قناة صغيرة جافة · وقال هومير لنفسه « هذه طائرات » ! وعدا كلب أحد المزارعين مسرعا وراءه وأخذ ينبح نباحا مزعجا وكأنه رجل يحمل رسالة · غير أن هومير تجاهل رسالته ولم يفعل الا أن التفت ناحيته مرة واحدة يضلل الكلب صائحا «آرب·· آرب» · وامتطى دراجته واندفع فى طريقه من جديد ·

وعندما وصل الى حدود المنطقة المأهولة من المدينة مر بلوحة لم يقرأها كتب عليها :

« ايتاكا ، كاليفورنيا

ان شرقت أو غربت ، فليس أفضل من البيت

مرحبا أيها الغريب »

وفى الناصية التالية من الطريق توقف يرقب صفا من عربات الجيش وهى تمر به مليئة بالجنود · ولوح محييا الرجال كما لوح أخوه يوليسيس من قبل لسائق القطار ولأولئك العمال الذين تسللوا الى الدبابات · ورد عدد كبير من الجنود تحية الساعى ، ولم لا يفعلون ؟

- ٣ -

مكتب التلغراف

كان المساء قد هبط على ايتاكا عندما وصل هومير اخيرا بدراجته امام مكتب التلغراف . وكانت ساعة الواجهة تشير الى السابعة ودقيقتين . وراى هومير مستر سبانجلر مدير المكتب وهو ما زال بعد كلمات برقية ناولها له شاب فى نحو العشرين يبدو عليه التعب والاضطراب . ولما دخل هومير المكتب راح يستمع لحديث مستر سبانجلر مع الشاب .

قال سبانجلر : « المجموع ، اربع عشرة كلمة » وتوقف لحظة وهو يرمق الشاب ثم قال له : « اتنقصك النقود ؟ »

ولم يستطع الشاب أن يجيبه من فوره ولكنه سرعان **ماقال :** « نعم يا سيدى ، الى حد ما . . . ولكن امى سترسل لى مايكفينى لاعود الى بيتى » .

فقال سبانجلر : « طبعا ، بكل تاكيد ، ولكن اين كنت ؟ »

فاجابه الشاب : « لست ادرى ، فى غير ما مكان » وبدا

يسعل ثم استطرد يسأله : « كم ستستغرق البرقية من الوقت لتصل الى أمى ؟ »

فرد سبانجلر : « لست ادرى تماما ، انهم الآن فى الشرق فى ساعة متأخرة ، وليس من السهل أحيانا تحصيل النقود فى مثل هذه الساعة من الليل ، ولكنى سأتعجل لك ارسالها » .. وراح سبانجلر ينقب فى جيوبه جميعا دون أن ينظر للشاب مرة اخرى ، وخرج من بحثه بحفنة من العملة المعدنية الصغيرة وورقة واحدة من أوراق البنكنوت وبيضة مسلوقة .

وقال : « هاك ، اذا ما جد جديد » وناول الشاب النقود قائلا : « انك تستطيع ان تردها لى عندما ترسل لك أمك النقود » ، ثم أشار الى البيضة وهو يقول « لقد التقطتها فى حانة منذ سبعة أيام ، انها تجلب لى الحظ » .

ونظر الصبى للنقود **ثم قال** .« ما هذا ؟ »

فقال سبانجلر : انها شىء زهيد .

ـ شكرا ..

وتوقف الشاب مدهوشا مرتبكا ثم ردد قوله : « شكرا » .. واسرع خارجا من المكتب .

واخذ سبانجلر البرقية الى وليام جروجان عامل التلغراف فى نوبة الليل ورئيس عمال البرق قائلا له : « ارسلها خالصة ياوللى ، سأدفع أنا القيمة » .

فوضع مستر جروجان يده حول الآلة العتيقة وبدأ ينقر البرقية حرفا حرفا :

« السيدة مارجريت ستريكما
١٨٧٤ شارع بيدل
يورك . بنسلفانيا

أمى العزيزة . أرسلى لى برق ثلاثين دولارا . أريد ان أعود .. أنا بخير . وكل شىء حسن...

جون »

وتفحص هومير ماكولى مكتب التوزيع بحثا عن برقيات أو اشارات تليفونية معدة ، وراح مستر سبانجلر خلال ذلك يرقبه في تشوق ولذة لا يرتسم على وجهه منهما شيء ، ثم خاطبه قائلا : « كيف وجدت عمل الساعى ؟»

فقال له هومير : « كيف وجدته ؟ ! وجدته أفضل الاعمال جميعا ، فانك مضطر فيه أن ترى الوانا كثيرة مختلفة من الناس وأن تذهب الى أماكن عديدة متغايرة » .

فقال سبانجلر : « نعم » . وتوقف قليلا ينظر الى الصبى عن كثب ثم سأله : « كيف نمت ليلة أمس » ؟

وأجابه هومير : « حسنا .. لقد كنت متعبا جدا ولكنى نمت نوما عميقا . »

ـ « وهل نمت اليوم قليلا فى المدرسة ؟ »

ـ « نعم ، قليلا »

ـ « فى أى الدروس ؟ »

ـ « درس التاريخ القديم . »

وسأله سبانجلر : « وماذا عن الالعاب الرياضية ؟ أقصد انك لا تستطيع أن تشارك فيها لانك تعمل ؟ »

فقال هومير : « ولكنى أشترك فيها ، اننا نتلقى حصة فى التربية البدنية كل يوم . »

فقال سبانجلر : « حقا ؟ . لقد اعتدت أن أعدو فى سباق الحواجز أيام كنت أذهب الى مدرسة ايتاكا العليا . كنت بطل الوادى » .. وتوقف مدير مكتب التلغراف قليلا ثم واصل حديثه : انك حقا تحب هذه الوظيفة ، أليس كذلك ؟ »

فأجابه هومير : « انى سأكون خير ساع عمل فى هذا المكتب . »

فقال سبانجلر : « حسنا . لكن لا تقتل نفسك ـ لا تسرف فى سرعتك . اذهب سريعا الى حيث تقصد ، ولكن لا تسرف فى السرعة .

كن مؤدبا مع الناس جميعا ، وتعلم أن تخلع قبعتك فى المصاعد ! وقبل كل شىء آخر اياك أن تفقد برقية . »

ـ « نعم ياسيدى » .

وواصل سبانجلر قوله : « واعلم أن العمل بالليل غيره بالنهار . وانك قد تحمل برقية الى حى الصينيين أو الى بيوت المزارعين خارج المدينة ، وقد يكون فى هذا مايفزع البعض ، فلاتدع هذا يفزعك أنت . ان الناس هم الناس دائما . فلاتفزع منهم . كم عمرك ؟ »

فابتلع هومير ريقه وقال « ست عشرة سنة »

فقال سبانجلر : « نعم ، نعم ، اعلم هذا ، لقد قلت لنا هذا بالامس ، فمن المفروض علينا الا نستأجر صبيا حتى يبلغ السادسة عشرة ، ولكنى رأيت ان اجازف واجربك . كم عمرك ؟ »

فقال هومير : « أربع عشرة سنة »

فأجاب سبانجلر : « حسنا ، فستبلغ اذن السادسة عشرة فى عامين »

ورد هومير: « نعم ياسيدى . »

فقال له سبانجلر : « اذا مربك شىء لم تفهمه ، فارجع الى . »

فقال هومير : « نعم ياسيدى ، وتوقف قليلا ثم سأله : « ماذا عن البرقيات المنشدة » ؟

فأجابه سبانجلر : « لاشىء ، اننا لانتلقى كثيرا منها . . على أن صوتك جميل ، أليس كذلك ؟ »

فقال هومير : « لقد اعتدت أن أغنى فى أول أحد للمدرسة البرسبتيرية فى ايتاكا . »

فقال سبانجلر : هذا حسن جدا . ان صوتك اذن هو بالضبط ذلك الصوت الذى نريده لبرقياتنا المنشدة . والآن فلنفرض مثلا أن مستر جروجان الجالس هناك قد تلقى برقية لتهنئته بعيد ميلاده ، فكيف اذن تؤديها ؟

فانتقل هومير الى حيث يجلس مستر جروجان وبدأ يغنى :

عيد سعيد

عيد سعيد

عيد سعيد ياعزيزى جروجان

عيد سعيد

فالتفت اليه مستر جروجان قائلا : « شكرا »

وقال سبانجلر لهومير : هذا حسن جدا ، ولكن ماكان يجب ان تقول « ياعزيزى جروجان » يجب ان تقول . « ياعزيزى مستر جروجان » .. ماذا تنتظر ان تفعل بالخمسة عشر دولارا التى ستتقاضاها فى الاسبوع ؟ »

فاجاب هومير : « أعطينى الامى . »

فقال سبانجلر : « اتفقنا اذن ، منذ الآن أنت موظف مستديم ، لقد أصبحت عضوا فى هيئة هذا المكتب ، فارقب مايجرى ـ واستمع جيدا .. راجعل عينيك وأذنيك مفتوحة . .

وراح مدير مكتب التلغراف ينظر لحظة الى لاشىء ثم قال : ماذا رسمت لنفسك من مستقبل ؟ »

ورد هومير : « مستقبل » .. وحسبى شىء من الحيرة والاضطراب! لقد ظل طوال حياته مشغولا بوماوراء يوم يرسم هذا المستقبل لنفسه وله كان حتى للغد القريب فحسب . وقال له : حسنا ، لست على يقين من شىء ، ولكنى أظننى أريد أن أصبح رجلا عظيما يوما ما ، مؤلفا موسيقيا مثلا أو رجلا عظيما مثل هذا . . . نعم يوما ما » .

فقال سبانجلر : هذا جميل جدا ، ومكانك هذا خير مكان تبدأ منه . ان الموسيقى فى كل مكان حواليك ، نعم تلك الموسيقى الاصيلة التى تنبع مباشرة من العالم ، ومن قلوب الناس . اسمع مفاتيح هذا التلغراف ، أليست موسيقى رائعة ؟

فقال هومير : نعم ياسيدى .

وساله سبانجلر فجاة : اتعرف اين يقع مخبز شاترتون على برودواى ؟ خذهذا ربع دولار ،اذهب فاشتر لى من هناك فطيرتين طازجتين بالتفاح وقشدة جوزالهند ... الاثنتان بربع دولار .

وقال هومير : « نعم يا سيدى » وامسك بربع الدولار الذى القاه له سبانجلر واندفع خارجا من المكتب ، وراح سبانجلر يتبعه بنظراته وهو يحلم وكأنه يحس الاشياء بعيدة متحركة فى تراخ لذيذ . وعندما افاق من حلمه التفت الى عامل التلغراف وساله : ما رأيك فيه ؟

فقال مسترجروجان : انه ولد طيب .

فقال سبانجلر : انا اعتقدهذا . انه من عائلة طيبة فقيرة تسكن طريق سانتا كلارا ، مات ابوه وذهب اخوه للجيش ،وامه تعمل فى الصيف فى مصانع الطعام المجفف . وله أخت تذهب الى كلية الولاية ـ وكل ما فى الامر ان عمره يقل سنتين عن السن القانونية .

فقال مستر جروجان : واناتجاوزتها بسنتين ، ولا شك ان الواحد منا سيكمل الآخر .

وغادر سبانجلر مكتبه **قائلا**: « انا فى محل كوزبيت اذا ما احتجت لى .. اقتسم الفطائر انت و .. » وتوقف يحملق مذهولا وهو يرى هومير يدخل المكتب حاملا الفطائر اللذيذة .

ثم ساله وهو يكاد يصرخ فيه : قل لى .. ما اسمك ؟

ـ هومير ماكولى ..

فوضع مدير التلغراف ذراعه حول ساعيه الجديد قائلا : «حسن جدا يا هومير ماكولى ، انت الصبى الذى يحتاجه المكتب لدورية الليل ! يخيل الى انك اسرع انسان فى وادى سان جوكان ، وانك ايضا ستصبح اذا عشت رجلا عظيما يوما ما .. فاحرص اذن على أن تعيش » . واستدار تاركا المكتب وهومير يحاول ان يتفهم كلماته .

والتفت له جروجان قائلا : حسنا يابنى .. أين القطائر ؟

ووضع هومير القطائر على المكتب الى جانب مستر جروجان الذى راح يواصل حديثه :هومير ماكولى .. اسمى وليام جروجان، قد بلغت السابعة والستين وعلى الرغم من ذلك يسموننى ولى .. وأنا موظف قديم من موظفى التلغراف ، واحد من آخر افراد هذه الطبقة فى العالم . ثم انا فى الليل رئيس هذا المكتب ، وانا ايضا رجل مرت فى حياته مناظر رائعة ومازالت معه ذكرياتها .. ولكنى جوعان .. تعال نحتفل بالفطائر .. تفاح وقشدة الجوز . انا وانت من الآن صديقان ...

فقال هومير : نعم ياسيدى .

وتناول عامل التلغراف العجوز فطيرة وقسمها اربعة أقسام وراحا يأكلان قشدة جوز الهند.

وواصل مستر جروجان حديثه : وسيحدث أحيانا أن أرسلك فى أمر لى أو أن أسألك الغناء معى او الجلوس والتحدث الى . أما فى حالة السكر فانى أتوقع منك مالاينتظر من رجال تجاوزوا الثانية عشرة .. كم سنك ؟

وأجاب هومير : الرابعة عشرة، ولكن اظن أنى أفهم جيدا ..

فقال مستر جروجان : حسنا، سآخذك عند كلمتك وسأتوقع منك ان تتأكد فى كل ليلة من انى قادر على القيام بواجباتى فى هذا المكتب . واذا لم أستجب للهز والايقاظ فقليل من الماء البارد يلقى على الوجه ويعقب هذا فنجان من القهوة من عند كوربيت !!

ـ نعم يا سيدى .

وواصل مستر جروجان حديثه : أما اذا حدث هذا فى الطريق فالذى يتبع هو أمر آخر . اذا رأيتنى قد احتضنتنى الخمر والتفت بى ، فألق على السلام ودعنى ولا تشر الى ما أنا فيه من سعادة . انى رجل شديد الحساسية وأوثر ألا أكون موضوعا لشفقة الناس .

فقال هومير: الماء البارد والقهوة فى المكتب . والطعام فى الطريق سمعا ياسيدى .

واستمر مستر جروجان فى حديثه وقد امتلأ فمه بالقشدة: أتعتقد أن هذا العالم بعد الحرب سيكون مكانا أفضل ؟

فتردد هومير لحظة يفكر ثم قال : نعم يا سيدى .

ولكن مستر جروجان قال : أتحب قشدة جوز الهند ...

فقال هومير : نعم يا سيدى .

ودق صندوق التلغراف فاستجاب مستر جروجان للاشارة واتخذ مكانه امام الآلة الكاتبة ولكنه استمر يتحدث : « أنا ايضا أحب قشدة جوز الهند . وأحب الموسيقى أيضا وخاصة الغناء . لقد سمعتك تقول أنك كنت تغنى فى مدارس الاحد . هل تسمح فتغنى لى أغنية من أغانى مدارس الاحد وانا أدق هذه الرسالة من واشنجطن ؟ »

وبدأ هومير يغنى « صخرة العمر » ومستر جروجان يدق البرقية على الآلة الكاتبة . كانت البرقية لمسز روزا ساندوفال برقم ١٢٢٩ شارع ج ايتاكا كاليفورنيا ، وكانت وزارة الدفاع تخبر مسز ساندوفال أن ابنها جوان دوينجو ساندوفال قد مات فى القتال .

وناول مستر جروجان البرقية لهومير وشرب جرعة طويلة من الزجاجة التى يحفظها فى الدرج الى جانب مقعده . وطوى هومير البرقية ووضعها فى الظرف ولصقه ثم وضعه فى قبعته وغادر المكتب . وعندما اختفى الساعى رفع عامل التلغراف العـ صوته مغنيا لنفسه « صخرة العمر » ، فلقد كان فى يوم ما ـ هو أيضا ـ فتيا كأى رجل .

ـ ٤ ـ

سيغار العالم منى

كانت الموسيقى تسمع من بيت ماكولى على طريق سانتا كلارا ، اذ كانت بس ومسز ماكولى تعزفان على البيانو أنشودة « سيغار العالم منى » انهما تعزفانها لماركوس الجندى أينما كان ، فهى أغنيته المفضلة . . ودخلت الغرفة مارى أرينا قادمة من البيت المجاور ووقفت الى جوار « بس » عند البيانو وسرعان ما اشتركت فى الغناء . انها تغنى هى الاخرى لماركوس فهو العالم بأكمله بالنسبة لها . ووقف الصبى الصغير يولسيس يستمع ويرقب . لقد كان فى الجو شىء غريب ، وكان حريصا ، على الرغم من أنه كان نصف نائم ، أن يعرف كنهه . واستجمع أخيرا قوته وقال :

ـ أين ماركوس !

فنظرت مسز ماكولى الى الصبى وأخذت تقول : « يجب أن تحاول أن تفهم . . . » . ولكنها توقفت ولم تكمل حديثها .

وحاول يولسيس أن يفهم ، ولكن الصعوبة أنه لم يكن يدرى ماذا عليه أن يفهم .

فقال : أفهم ماذا ؟

فقالت مسز ماكولى : لقد ذهب ماركوس بعيدا عن ايتاكا .

ـ لماذا ؟

وأجابت مسز ماكولى : ان ماركوس فى الجيش .

فقال الصبى الصغير : ومتى يعود ؟

ـ عندما تنتهى الحرب .

ـ غدا ؟

ـ لا .. ليس غدا .

ـ متى اذن ؟

ـ اننا لا نعرف .. نحن ننتظر .

فقال يولسيس : وأبى ، أينهو اذن ؟ هل اذا انتظرنا يعود كماركوس ؟

فقالت مسز ماكولى : لا .. ليس كذلك . لا ، لن يعود يمشى فى الشارع ويصعد السلم ويعبر الشرفة ثم يدخل البيت كما اعتاد أن يفعل .

وكان هذا أكثر مما يستطيعه الصبى ، ولم يعد أمامه الا كلمة واحدة قد يأمل من ورائها شيئا كالصدمة أو الراحة ، ولم يتردد أن يقولها :

ـ لماذا ؟

فالتفتت مسز ماكولى لبس ومارى **وقالت :**

« الموت أمر صعب لا يستطيع كل انسان أن يفهمه فما بالك بالطفل ، ولكن على الرغم من ذلك فان لكل حياة يوما تنتهى فيه » ..

ونظرت الى يولسيس وهى تقول : « لقد جاء أبالك هذا اليوم منذ سنتين » .

ثم عاودت النظر الى بس ومارى مواصلة حديثها :

« مادمنا أحياء ، وما دمنا معا ، وما دام اثنان منا على قيد حياة يذكرانه ، فلن يستطيع شيء فى العالم أن يأخذه منا .. لقد يذهب جسده ولكن لا يذهب هو . انك ستزداد معرفة بأبيك كلما كبرت وازددت معرفة بنفسك !! لقد ذهب بجسده الزمن والاحداث والمرض والتعب ، ولكنك أنت رددته له ، أعطيته له من جديد فتيا نشيطا كما لم يكن من قبل أبدا ، ولست أتوقع منك أن تفهم شيئا مما أقول لك ، ولكنى أعرف أنك ستذكر هذا ... ستذكر أن الاشياء الطيبة لا تنتهى أبدا . فلو أنها تنتهى لما كان هناك أناس فى هذا العالم .. لا ولا حياة فى أى مكان ، ولكن العالم ملىء بالناس ملىء بالحياة الرائعة . »

وفكر الصبى لحظة فى هذا ، ثم تذكر ما رأى فى الصباح الباكر فسألها :

ـ ماهو السنجاب ؟

ولم تؤخذ أمه أبدا بهذا السؤال ، فهى تعرف أن له عينين فيهما رؤية ، ووراء الرؤية قلب وشعور وحب ، لا لشيء واحد فحسب ، ولا لجنس واحد فحسب ، بل لاى شيء ولكل شيء .

فقالت : « جماعة السنجاب الحفارة فى الارض والطيور من فوق والسمك فى البحر ، ليس هذا كله الا جزءا من كل واحد منا بل تلك الاشياء الكثيرة التى لا تتحرك كما نتحرك نحن هى أيضا جزء منا . الشمس جزء منا ، والارض ، والسماء ، والنجوم والانهار ، والمحيطات ، كل الاشياء جزء منا ، ونحن قد خلقنا لننعم بها ونشكر الله عليها » .

وتقبل الصبى كل هذه الانباء ولكنه سألها : وأين اذن هومير ؟

فقالت له مسز ماكولى : « أخوك هومير يعمل .. لقد وجد

لنفسه بالامس عملا بعد مدرسته فلن يعود الى البيت الا فى منتصف الليل عندما تكون أنت فى فراشك نائما » .

ولم يستطع الصبى أن يفهم ما العمل ؟ ولماذا يعمل أخوه ؟ وما سرور الرجل فى أن يعمل ؟

فسأل : ولماذا يعمل هومير !

وجلست الفتاتان صامتتين فى صبر تنتظران اجابة مسز ماكولى عن أسئلة الطفل :

« أخوك هومير يعمل لأن أخاك ماركوس فى الجيش ، ولاننا لابد أن نحصل على نقود نشترى بها الطعام والملابس وندفع أجرة البيت . . ولنعطى منها لمن هم أكثر حاجة منا » .

فسألها يوليسس : من هم ؟

ـ أى انسان .. الفقراء مثلا

فقال الصبى : من هم الفقراء؟

فقالت مسز ماكولى وهى تبتسم لنفسها : كل انسان .

وأحس يولسيس أنه مهما بذل من جهد فلن يستطيع أن يظل صاحيا . ولكنها استمرت تقول:

تذكر دائما أن تعطى من أى شىء يكون معك . يجب أن تعطى ولو بحماقة » يجب أن تكون مسرفا وأن تعطى كل من يمر بحياتك ، فعند ذلك لن يكون لاى شىء أو لأحد القدرة على أن يغشك، واذا أعطيت اللص فلن يسرقك ولن يعود هو نفسه الى السرقة بعد ذلك . وكلما كثر عطاؤك ،زاد ما عندك لتعطيه » .

وحولت مسز ماكولى نظرها من الطفل الى أخته بس وقالت لها : خذيه الى فراشه ...

ماعندك لتعطيه » . وحولت مسز ماكولى نظرها من الطفل الى أخته بسى وقالت لها : خذيه الى فراشه...

وأخذت بس ومارى الصبى الى غرفته ، فلما ذهبتا وجلست

هى وحـــدها سمعت صـوت خطوات ، فاستدارت ورأت هناك عند الباب ماتبو ماكولى وكانه لم يمت .

وقال : لقـد أخذنى النوم ، كنت نعسانا جدا ، !! كاتى هل تغفرين لى ؟ .

" وضحك وكأنما يولسيس هوالذى يضحك ، فلما عادت بس الى الغرفة قالت لأمهـا : لقـــدضحك ونحن نلفه فى غطائه .

It seems that the boy was an exact copy to his father isn't it?

you go your way. I'll go mine

_ ٥ _

فلتذهب فى طريقك ، فلى طريقى !

ترجل الساعى من على دراجته أمام بيت مسز روزا ساندوفال وذهب الى الباب وطرقه بخفة . واحس مباشرة ان ثمة أحدا فى داخل البيت ! أنه لم يستطع ان يسمع شيئا ، ولكن كان واثقا أن طرقته ستدعو أحدا اليه ، وكان متلهفا أن يرى من تكون هذه المرأة ، مسز روزا ساندوفال التى عليها ان تواجه خبر جريمة قتل وقعت فى العالم ، وتأثرها بهذه الجريمة . ولم يمر وقت طويل قبل أن ينفتح الباب ، غير أنه لم يكن هناك لهفة أو تسرع فى فتحه . كان فى حركة الواحه اطمئنان وبطء ، وكأنما الذى من ورائه لايخشى شيئا من الدنيا ، ثم ألفى الباب مفتوحا تماما وبرزت هى من خلفه .

لقد تبدت المرأة المكسيكية جميلة فى عينى هومير . واستطاع أن يدرك أن ما ألفته من صبر طوال حياتها قد استحال الآن ، بعد كل هذه السنين ، بسمة لطيفة على شفتيها كبسمات

القديسين . غير أنها كغيرها من الناس الذين لم يتسلموا أبدا رسائل برقية ، رأت في منظر الساعي معنى مخيفا مرهبا .

وأدرك هومير أن منظره قد صدم مسز دوفال ، فما أن وقع نظرها عليه حتى بدر منها مايبدر من كل انسان عند دهشته . قالت : «آه» وكأنما كانت تنتظر أن ترى بدل الساعي على بابها شخصا تألفه وتعرف أنها ستصحبه لتجلس معه سعيدة فرحة . وقبل أن تنطق بكلمة أخرى راحت تتفحص وجه هومير وعينيه، وأدرك هو أنها فهمت أن البرقية لايرجى منها خير !

قالت له : هل معك برقية ؟

ولم يكن هذا خطأ هومير ، فليس عمله الا أن يحمل للناس البرقيات ، ولكن أحس أنه جزء من ذلك الجرم الكبير ، فامتلأت نفسه تحرجا وكاد يستشعر أنه المسئول وحده عما قد حدث . وود في الوقت ذاته لو يستطيع أن يصارحها مباشرة قائلا : «لست الا ساعي بريد، يامسز ساندوفال . وأنا آسف جدا أنني مضطر أن أحمل لك هذه البرقية ولكنني لم أكن لأفعل ذلك لولا أنه عملي !

وسألته المرأة المكسيكية : لمن؟ .

فقال هومير : مسز ساندوفال ١١٢٩ شارع ج .. وقدم لها البرقية ولكنها لم تجرؤ على أن تمسها .

فقال هومير : هل أنت مسز ساندوفال ؟

فقالت المرأة : أرجوك أن تدخل ، انني لا أقرأ الانجليزية ، أنا مكسيكية ولا أقرأ الا جريدة برنسا التي تجيئنا من مدينة المكسيك . وتوقفت لحظة وراحت تنظر للصبي وهو يحاول أن يقف أقرب مايكون الى الباب وأن يكون في الوقت نفسه داخل البيت .

ثم قالت : أرجوك ماذا في التلغراف ؟

فتلعثم الساعي : مسز ساندوفال في التلغراف ..

ولكن المرأة قاطعته : من الضروري أن تفتح التلغراف أولا ثم تقرأه لي .. انك لم تفتحه بعد .

فقال هومير : لاياسيدتي ... .. ! وكأنما يرد على مدرسة قد صححت له خطأه .

ومزق التلغراف بأصابع مرتجفة ، فانحنت المرأة المكسيكية تلتقط القصاصة من على الارض ومسحت عليها تفرد طياتها **وهى تقول له** : من أرسل لى التلغراف .. ابنى جوان دومنجو ؟

فقال هومير : لاياسيدتى ان البرقية من وزارة الدفاع .

فرددت المكسيكية : وزارة الدفاع ؟

فانطلق هومير فى سرعة قائلا : مسز ساندوفال ! لقد مات ابنك . قد يكون فى هذا خطأ ، فانت تعرفين أن كل انسان معرض لهذا ، وربما كان هذا الذى مات ليس يامسز ساندوفال . ولكن البرقية تقول أنه جوان دومنجو .. وقد تكون البرقية مخطئة !! .

وتظاهرت المكسيكية أنها لم تسمع **وقالت له** : « ادخل .. لاتفزع . تعال معى الى الداخل لأعطيك حلوى » وأخذت ذراع الصبى الى منضدة فى وسط الغرفة واجلسته هناك .

ثم قالت : « كل الصبية يحبون الحلوى .. وأنا سأحضر لك بعضا منها » .

وذهبت الى الغرفة الاخرى وسرعان ماعادت تحمل صندوقا قديما به شكولاتة ، وفتحت الصندوق على المنضدة امام هومير ، فرأى فيه نوعا غريبا من الحلوى لم يعرفه من قبل .

وقالت له . « كل .. خذ من هذا .. كل الصبية يحبون الحلوى .

فأخذ هومير قطعة من الصندوق ووضعها فى فمه وراح يحاول جاهدا ان يمضغها **وهى تقول له** : « انك طيب صغير .. كصغيرى جوانيتو عندما كان صبيا .. خذ .. كل قطعة اخرى » وحملته على ان يأخذ قطعة ثانية من الصندوق .

وجلس هومير يمضغ الحلوى الجافة **والمكسيكية تتحدث** «هذه الحلوى ، حلوانا نحن .. ونحن نصنعها من الصبار . لقد صنعتها لصغيرى جوانيتو ليأكلها عندما يعود .. فكلها أنت .. انك مثله .. ولدى انت أيضا» !!

وفجأة انفجرت تنشج وهي تتجلد وتمنع نفسها أن تبكي كأنما من العار ان تفعل ذلك . واحس هومير انه يريد لو ينهض وان يغادر المكان عدوا ، ولكنه عرف في قرارة نفسه انه سيبقى ، بل انه ربما بقي هنا طوال حياته ، فهل هناك مايستطيع ان يفعله غير ذلك كي يخفف من شقاء هذه المراة ، انها لو سألته ان يأخذ مكان ابنها لما استطاع ان يرفض لانه لايعرف كيف يستطيع مثل هذا الرفض . ونهض هومير واقفا كأنما يريد أن يصلح ذلك الخطأ الذى لامرد له ، ولكنه سرعان مادرك حماقة مقصده فملأه التحرج والاضطراب اكثر من ذى قبل . وراح يردد لنفسه مرة بعد اخرى : « ماذا استطيع ان افعل .. ماذا استطيع أن افعل .. انا لست الا الساعى » !!

واتجهت نحوه المراة فجاة واخذته بين ذراعيها مرددة :

« صغيرى .. صغيرى »

لقد احس هومير حرجا عميقا من الامر كله ، ولكنه لم يكن يدرى لماذا يتمشى الدوار فى دمه وتملؤه الرغبة فى ان يقيء . انه لايكره المراة ولا يكره احدا سواها غير ان هذا الذى حدث لها جرم قبيح تملؤه البشاعة ويسرى فى نفسه منه التقزز والمرض ، ويساوره من جرائه التردد فى ان يظل حيا .

وقالت المراة : « تعال .. اجلس هنا » وارغمته على ان يجلس فى مقعد آخر . ووقفت وراءه تقول له : « دعنى انظر اليك ! » ، وراحت تنظر فى وجهه نظرات غريبة والتقزز المتصاعد فى نفسه جميعها يجعله لايستطيع ان يتحرك . انه لايحس حبا ولا كرها بل شعورا هو اقرب أن يكون تقززا واشمئزازا ، ولكنه فى نفس الوقت يستشعر نونا من العطف والاشفاق لا على المراة وحدها بل على كل مافى الدنيا من اشياء تسلك هذا المسلك الزرى المضحك فى الحياة والموت . انه يتصورها فى السنين الماضية جميلة شابة قد جلست عند مهد طفلها ، ويراها تنظر الى هذا الكائن الانسانى الفريد ،

لاينطق ولا يستطيع شيئا ولكنه ملىء بالمستقبل والحياة القادمة وتخيلها تحرك المهد وتغنى الطفل ، ثم غمغم لنفسه : « الآن فانظر اليها ..

وفجأة عاد هومير لنفسه وهو على دراجته يركبها كالعادة يهبط الطرقات المظلمة وقد تحدرت من عينيه الدموع وفمه الصغير يغمغم لعنات حمقاء لامعنى لها . وعندما وصل المكتب كانت الدموع قد توقفت ، ماهذه الاشياء الاخرى جميعا فقد بدات واستمرت حيث يعرف ان احدا لايستطيع ان يوقفها بعد ذلك . ورفع صوته كأن من يصغى اليه بطىء السمع لايحسنه وغمغم « والا . . فكأنما قدمت انا أيضا » .

- ٦ -

أغنية لمستر جروجان

جلس هومير الى المنضدة فى مواجهة مستر جروجان وكانت اسلاك البرق صامتة حينذاك ، ولكنها فجأة بدأت تدق ، فانتظر هومير ان يجيب مستر جروجان النداء ولكن الرجل لم يفعل ، فجرى هومير حول المنضدة وهز الرجل فى لطف قائلا : « مستر جروجان .. انهم ينادونك .. مستر جروجان .. قم .. قم .. »

وجرى هومير الى اناء الماء فملأ كوبا ورقيا وعاد الى موظف التلغراف الهرم ، ولكنه ترددان يتبع التعليمات التى اعطيت له ، فوضع الكوب على المنضدة وراح يهز مستر جروجان من جديد مكررا : « مستر جروجان .. استيقظ .. قم » .

ونثر هومير الماء أخيرا فى وجه الرجل العجوز ، فاعتدل مستر جروجان مدهوشا وفتح عينيه ينظر الى هومير والى صندوق

البرق ، ثم استجاب للنداء ، وهو يقول للصبى : حسنا « فعلت » أسرع الآن ... كوبا من القهوة السوداء ... اسرع » .

وعدا هومير خارجا من المكتب الى محل كوربيت ، وعندما عاد كان موظف التلغراف الهرم قد كاد ينام من جديد ولكنه مازال على مقعده يؤدى عمله . غير أنه قال له : « حسنا ما فعلت يا بنى .. لا تتنزعج ... ولا تفزع . كل الامور على خير وجه . »

وأوقف مستر جروجان العامل عند الطرف الآخر من سلك البرق وراح يرشف قهوته وهو يردد لهومير : « أنثر الماء البارد أولا .. ثم أحضر القهوة السوداء ... »

فأجاب هومير : « نعم .. ياسيدى .. هل هى برقية هامة؟ »

فقال مستر جروجان : « لا .. ليست لها أية أهمية .. مجرد أعمال مالية .. تراكم المال . انها رسالة ليلية ولن تضطر أن توصلها اليوم ، فهى تافهة غير هامة ... ولكن كان من المهم لى أن أتلقاها ! »

ورفع صوته فقد استيقظ الآن واستعاد قوته **وقال صارخا:**

« لقد ظلوا سنين طويلة يحاولون أن يأخذوا منى منصبى .. كانوا يريدون أن يقيموا هذه الآلات الجديدة التى يخترعونها الآن فى كل مكان ... ملتبلكس وتليتيب .. أنظر .. الآلات بدل الكائنات الانسانية » ؟!؟

وهدأ صوته ولطف وكأنما يحادث نفسه أو يتوجه بالحديث لاولئك الذين كانوا يريدون أن يخرجوه من مكانه فى هذا العالم:

« اننى لا أستطيع أن أعرف ماذا أفعل بنفسى لو أننى فقدت هذه الوظيفة ... أظننى اموت فى سبعة أيام .. لقد ظللت أعمل فيها طوال حياتى ولن أتوقف الآن . »

فقال هومير : « نعم يا سيدى .. »

ورد مستر جروجان : « أعرف أننى أستطيع أن أعتمد على معونتك أيها الصبى .. فلقد قدمتها لى فعلا .. شكرا لك »

وراح يدق الأزرار . ولما جاءه الجواب بدأ يكتب البرقيـــة على الآلة ، ولكنه عاود الحـديث من جديد لهومير وفى صوته رنة من كبرياء وزهو سلكت الى قلب هومير فأسرته :

« لقد كنت أسرع عمال التلغراف جميعا ... كنت أسرع من ولنسكى نفسه .. أسرع منه فى التلقى والارسال ... دون أن اخطىء مرة واحـدة ، أنا ويللى جـــورجان ، كل من عمل على التلغراف فى العالم يعرف هـذا الاسم .. انهم يعرفون أن ويللى جورجان قد فاقهم جميعا !! »

وتوقف مبتسما للساعى .. ذلك الصبى الذى قـدم بالامس فقط من أقذر أحياء المدينة ليعمل بالمكتب فى الوقت المناسب حقا .

وقال له : « غن أغنية أخرى ، فانا وأنت ما زلنا أحياء .. »

وانطلق هومير يغنى .

- ٧ -

اذا ما جاءتنى رسالة

كانت مسز ماكولى فى بهـــومنزلهابشارع سانتاكلارا جالسة على المقعد المتأرجح القديم تنتظرعودة ابنها . ولم يدخل هومير البهو الا بعد أن انتصف الليل بقليل . واستطاعت أمه أن تدرك أنه ليس متعبا كثيباناعسافحسب، بل انه فزع وقلق أيضا . انها تعرف أن صوته سيكون خفيضامكتوما اذا ما تكلم كذلك الصوت الذى عرفته من أبيه ، فما أشبهه به . غير أن هومير ظل واقفا فى البهو أمدا طويلا ، وعندما تكلم، لم يمس على الفور ما يهمه من الأمر ، بل قال : أماه ، أن كل شىء على خير وجه ، أنا لا أريدك أن تظلى هكذا مستيقظة كل ليلة ... وتوقف قليلا ثم احس أنه مضطر أن يكرر لها : « كل شىء على خير وجه . »

فقالت له أمه : « أعلم ذلك .. أجلس الآن . »

وتحرك كى يجلس على المقعد المنتفخ بما فيه من حشو ، ولكن الصبى لم يستطع أن يمسك نفسه فتساقط متداعيا، وعندذاك تبسمت أمه قائلة : « نعم ٠٠ أعرف أنك متعب ولكننى أستطيع أن أرى أيضا أنك مهموم مضطرب ٠٠ ماذا يشغلك ؟ »

وانتظر الصبى لحظة ثم بدأ يتكلم فى سرعة وعجلة ، ولكن صوته ظل هادئا خفيضا جدا : « لقد كان على أن أحمل برقية لامرأة مكسيكية فى شارع ج »٠٠٠ ثم توقف فجأة لينهض واقفا على قدميه ٠

واستأنف حديثه قائلا : « لست أدرى كيف أقص عليك ذلك ٠٠٠ لقد كانت البرقية من وزارة الدفاع ٠ كان ابنها قد قتل وهى لا تريد أن تصدق ذلك ، كانت لا تريد أبدا أن تصدق ٠ !! ولم ار فى حياتى من قبل قلبا كسيرا كقلبها ، وجعلتنى آكل حلوى ٠٠ صنعتها من الصبار ٠ واحتضنتنى قائلة لى اننى ابنها ٠ ولم يكن ليهمنى هذا كله لو أنه جعلها سعيدة ، بل أنا لم أهتم حتى بالحلوى ! »

وتوقف من جديد ثم عاود كلامه : « ظللت تنظر لى وكأننى ابنها حقا حتى ساورتنى الريبة فى أن أكونه فعلا ، وملأنى حزن عميق، وعندما عدت الى المكتب وجدت عامل التلغراف الهرم مستر جروجان وقد ذهبت به الخمر تماما كما توقع لنفسه ، فقمت بما كان قد طلبه منى ٠٠ ألقيت الماء البارد على وجهه وذهبت أحضر له كوب القهوة السوداء كى يظل مستيقظا ! أنه ان لم يؤد عمله أحالوه على المعاش وهو لا يريد ذلك ٠ وعندما استطعت ان ابقيه يقظا واستطاع أن يؤدى عمله راح يحدثنى عن نفسه ، ثم بدأنا نغنى معا ٠ وقد أكون أحمق ولكننى أحسست اذ ذاك أننى حزين جدا »٠

وتوقف عن الحديث ليذرع الغرفة لحظة ثم واصل كلامه واقفا فى فتحة الباب منصرفا بنظره عن أمه : « وأحسست فجأة اننى وحيد وحدة لم أستشعرها من قبل ٠ نعم ، لم استشعر هذه الوحدة حتى عندما مات أبى ٠٠٠ فلقد نظرنا نحن جميعا اليك انت ولم تجعلينا نحس أن شيئا ما قد تغير ولم يتغير شىء فعلا ، فقد سارت الامور جميعا كما نحب ، أما الآن فلست ادرى ماذا حدث ، لقد تغير

كل شيء . . » وكرر بكل مافي شبابه من قدرة على التوكيد « كل شيء » .

وابتعد عن الباب المفتوح كي يواجه أمه ثم قال : « في يومين فقط تغير كل شيء وأصبحت وحيدا دون أن أدرى لماذا أنا وحيد » ، وتحرك مقتربا من أمه متسائلا : « أمي ؟ »

ولم تجب أمه بل ظلت منتظرة كي يستمر في حديثه : « لست أدرى ماذا يجرى الآن في الدنيا ولا أدرى لماذا يحدث هذا كله ؟ ولكني لا أريدك مهما حدث لنا أن تجعليه يؤلمك على هذا النحو . فقد تغير كل شيء ، ولكني أسألك ألا تجعلينا نحس هذا التغير كثيرا . »

وتبسمت المرأة ولكنها ظلت منتظرة وكأنما تعطيه فرصة أن يكمل حديثه اذا كان لديه مايقوله بعد ذلك ، فلما لم يتكلم بدأت تتحدث هي قائلة : « لقد تغير كل شيء بالنسبة لك انت ، غير ان كل شيء ما زال كما هو ايضا . انك تستشعر الوحدة لانك لم تعد طفلا ، ولكن العالم ملىء دائما بهذه الوحدة ، هي وحدة لم تجيء مع الحرب ، فان الحرب لم تسببها ، بل انما هي الوحدة التي صنعت الحرب وهذا اليأس من الاشياء جميعا لانها فقدت نعمة الرب . سنظل نحن معا ولن نتغير كثيرا » . وتأملت لحظة ثم راحت تحدثه كيف يكون لقاؤها بهذا الحدث الذي اذا ما وقع فهو ابشع واقسى حوادث التغير في دنياهم : « أما أنا فاذا ما جاءتني رسالة كتلك التي جاءت المكسيكية هذه الليلة فسأصدق كلماتها ولا شيء بعد ذلك . لن أكون في حاجة لأن أبكي لأنني أعرف أن ابني لا يمكن أن يقتل » . وتوقفت لحظة ثم واصلت حديثها وهي تكاد تكون فرحة مرحة : « ماذا أكلت في العشاء الليلة ؟ »

فاجابها هومير : فطيرة ... فطيرة تفاح بقشدة جوز هند اشتراها لنا مدير المكتب .. انه أكرم شخص عرفته للآن .

فقالت له مسز ماكولي : سأرسل لك غدا غداءك مع بس

فاجابها هومير : « لا ، لا أريد غداء ، فنحن نفضل ان نخرج فنشترى شيئا ونجلس معا لنأكله . وليس هناك ما يدعوك لتحمل مشقة اعداد الغداء وارساله مع بس ، ان من الامتع لي أن أخرج

فاشترى الطعام » ، وصمت ثم قال : « ان هذه الوظيفة شيء رائع بالنسبة لى ولكنها تجعل المدرسة تبدو سخيفة تماما » .

فقالت مسز ماكولى : « طبعا، ليست المدارس الا لتمنع الاطفال من الشوارع غير أنهم سرعان ما يضطرون للخروج للشوارع سواء ارادوا ذلك أم لم يريدوا . وانه امر طبيعى أن يخشى الآباء والامهات على أولادهم من الدنيا ولكن ، فى الحقيقة ، ليس هناك ما يخشى منه . غير أن العالم مازال مليئا باؤلئك الصغار المفزوعين وهم فى فزعهم يرهبون بعضهم الآخر ويزدادون فزعا . فحاول أنت أن تفهم »

وواصلت حديثها قائلة : «حاول أن تحب كل من تلقى ، أما أنا فسأنتظرك هنا كل ليلة فى البهو، فلا تجعل هذا يضطرك للحديث الى ما لم ترد أنت ذلك . أننى افهمك وأعرف أنه ستمر على قلبك لحظات لا يستطيع فيها قلبك أن يهب لسانك كلمة واحدة تقولها »..

وتوقفت عن الحديث وراحت تنظر للصبى ثم قالت : « اننى أعرف انك متعب ، فاذهب الآن ونم . »

فقال الصبى : « نعم ياأماه » . وذهب الى غرفته .

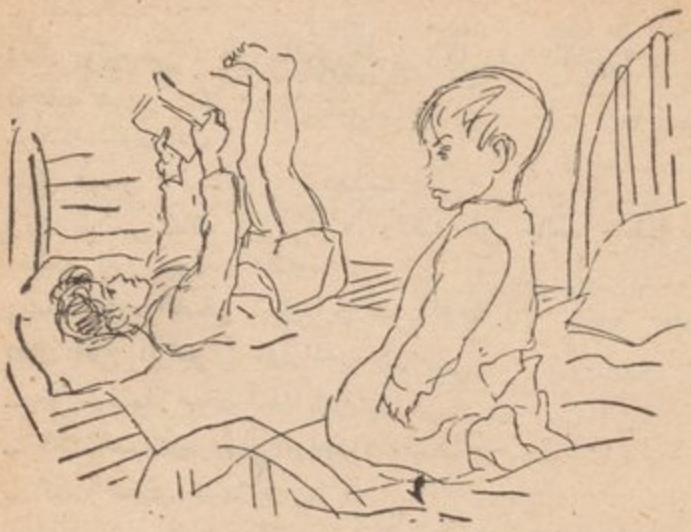

- ٨ -

فلتكن حاضرا على مائدتنا أيها الرب

ماكاد جرس المنبه يدق دقته الاولى فقط فى الساعة السابعة من الصباح حتى استيقظ هوميرماكولى جالسا ، وعدل الساعة حتى لايستمر الجرس فى الدق. ثم خرج من فراشه وأحضر دروس بناء الجسم التى تلقاها من نيويورك وبدأ يقرأ تعليمات اليوم . وكان أخوه يوليسس يرقبه وقد استيقظ معه كعادته على الدقة الاولى للجرس الذى لم يسمح له هوميرأبدا أن يستمر . ودروس نيويورك هذه فى بناء الجسم هى عبارة عن كتاب صغير مطبوع وآلة من المطاط لفرد العضلات . وفتح هوميركتابه على الدرس السابع، على حين زج يوليسس بنفسه تحت ذراعه ليكون أقرب مايمكن من الآلة الحرافية . وبعد أن قام هوميربعض التمرينات التمهيدية ومن بينها تمرين التنفس العميق، استلقى على ظهره ورفع ساقيه بشدة من على الارض ، فقال له يوليسس : « ماهذا ؟ »

ـ تمارين .

ـ لماذا ؟

ـ للعضلات ...

فقال يوليسس : هل ستكون أقوى رجل فى العالم ؟

فأجابه هومير : لا .. لا ..

ـ ماذا تكون اذن ؟

فقال هومير : اسمع . . عد أنت فنم .

وعاد يوليس طائعا الى فراشه، ولكنه ظل جالسا يرقبه حتى بدأ هومير أخيرا يرتدى ملابسه.

وسأله أخوه الصغير : الى أين أنت ذاهب ؟

فقال الاخ الاكبر : الى المدرسة .

ـ هل ستتعلم هناك شيئا ؟

ـ أنا ذاهب لأجرى على الحواجز الاثنين والعشرين ...

ـ كيف تجرى عليها أو بها ؟

ـ لن أجرى بها الى مكان ما ، انها حواجز خشبية مقامة كل عشر ياردات أو خمس عشرة ياردة ، وعليك أن تقفز عليها وأنت تجرى .

ـ لماذا ؟

فأجابه هومير : وقد كاد صبره أن ينفد : لماذا .. انه سباق للعدو، وبه اثنان وعشرون حاجزا، وكل من ولد هنا يجرى فى هذا السباق ، فهو أهم سباق فى ايتاكا ، حتى مدير مكتب التلغراف الذى أعمل فيه الآن قد جرى فيه عندما كان فى مدرسة ايتاكا العليا ، وقد كان بطل الوادى .

فسأله يوليسس : وما هو بطل الوادى ؟

ـ أفضل من يجرى ...

ـ وهل ستكون أفضلهم ؟

فقال هومير : لا أدرى . ..سأحاول .. عد أنت الآن ونم.

فانزلق يوليسس تحت غطائه وهو يقول : « غدا .. » ثم أدرك خطأه وصححه « بالأمس . ..رأيت القطار » .

وفهم هومير ماذا يريد أخوه أن يقول له ، فقد تبسم وهو يتذكر فرحته هو ودهشته بمرور القطار **وسأله** :

« وكيف كان ؟ »

وراح يوليسس يتذكر فى رزانة وهدوء ثم قال: «كان فيه رجل أسود ، لوح بيده » .

فقال له هومير : وهل لوحت له أنت ؟

فرد يوليسس : أنا لوحت الاول . ثم لوح هو ، فلوحت أنا ، ثم لوح هو ، وكان يغنى : كنتكى كفى بكاء ..

ـ صحيح ؟

ـ لقد قال : اننى عائد الى بيتى .. ثم نظر يوليسس الى أخيه وقال :

ـ بتى نعود نحن الى البيت ؟

فقال هومير : نحن الآن فى بيتنا .

ـ فلماذا لا يأتى هو الى هنا ؟

ـ لكل انسان بيت غير بيت الآخر ، بعضهم بيته فى الشرق والآخر فى الغرب ، وبعضهم فى الشمال وبعضهم الآخر فى الجنوب ... ونحن بيتنا فى الغرب .

ـ وهل الغرب أفضل ؟

فقال هومير : لست أدرى .. فانا لم أذهب الى أى مكان آخر .

ـ وهل ستذهب ؟

ـ نعم ، يوما ما .

ـ أين ؟

ـ الى نيويورك .

ـ وأين هى نيويورك ؟

ـ فى الشرق . وبعد نيويورك لندن ، وبعد لندن باريس ، وبعد باريس برلين ، ثم فينا فروما فموسكو فستوكهولم .. فى يوم ما سأزور كل بلاد العالم الكبيرة .

ـ وهل ستعود ؟

ـ طبعا ..

ـ وتكون فرحا حين تعود ؟

ـ طبعا ..

ـ لماذا ؟

ـ لماذا .. سأكون فرحا لانى سأرى أمى وماركوس وبس .

ونظر هومير الى أخيه **ثم قال**: « سأكون فرحا لانى سأراك ، وأرى جارتنا مارى آرينا وأباها مستر آرينا .

سأكون فرحا لانى سأعود الى بيتنا وأجلس لنتحدث وأستمع الى الموسيقى ونتعشى جميعا معا » .

فتضرع الاخ الاصغر ملحفا : « لاتذهب .. هومير .. لاتذهب »

فاجابه اخوه الاكبر : « ولكنى لست ذاهبا الآن . . أنا الآن ذاهب الى المدرسة »

فقال يوليسس : « لاتذهب أبدا . لقد ذهب أبى ولم يعد ، وماركوس أيضا ذهب . . فلاتذهب أنت أيضا ياهومير » .

فاجابه هومير : « مازال هناك وقت طويل قبل أن أذهب أنا .. فاذهب أنت وتم » .

فقال يوليسس : وليكن . . هل ستجرى المائتين والعشرين ؟

فصححه هومير : حواجز المائتين والعشرين ياردة ..

وعندما جلس هومير أخيرا الى مائدة الافطار وجد أخته بس وأمه تنتظرانه ، ولما اجتمع شمل الاسرة انحنت الرؤوس لحظة ثم ارتفعت وبدأوا يتناولون الطعام .

وسألت بس أخاها : ماذا قلت فى صلاتك ؟

فاجابها هومير : « هذه الصلاة التى أقولها دائما » ثم راح يكرر لها صلاته فى نفس هذه الكلمات التى تعلمها حين كان لايكاد يعرف كيف يتكلم :

« فلتكن حاضرا على مائدتنا أيها الرب ،

ولتكن ممجدا هنا وفى كل مكان ،

ولتبارك هذه المخلوقات ... اجعل مثوانا وطعامنا فى الجنة عندك آمين .. »

فقالت بس : أوه ... هذه صلاة قديمة ، ثم انك لاتكاد تعى ماتقول .

فرد هومير : لا ، انى أفهمها جيدا ، كل مافى الامر أنى أرددها الآن فى سرعة لانى جائع ولكننى أعرف معناها . اليست النية هى

التي تحسب على كل حال ،ولكن قولى لى ماذا تقولـــين أنت فى صلاتك ؟

فقالت بس : لا ، قل لى أنت أولا معنى هذه الكلمات ..

فاجابها هومـير : ماذا تعنين بمعنى هذه الكلمات؟ انها لاتعنى أكثر مما تقول ..

فواصلت بس سؤالها : حسنا ماذا تقول ؟

فقال هومير : « فلتكن حاضرا على مائدتنا أيها الرب » .. هذا يعنى ، فلتكن حاضرا على مائدتنا أيها الرب ، وأيهـــا الرب تعنى أشياء كثيرة ، ولكننى أعتقد أنها تعنى كل خير . و « فلتكن ممجدا هنـا وفى كل مكان » .. هـذه معناه اجعل الاشياء الطيبة الخيرة محبوبة هنـا وفى كل مكان ..و « هذه المخلوقات » .. تعنى فيما أعتقد نحن .. وكل انسان آخر .. « بارك » .. بارك معناها .. بارك .. قد يكون معنـاها فيما أعتقد أغفر أو ربما أحبب أو أرع أو شيئا كهذا ، فأنا لست أعرف تماما ولكنى أعتقد أنها تعنى شيئا مثل هذا . أما « أمنحنا فى الجنة فرحة الوليمـــة فى حضرتك » ، فهـذه تعنى ما تقـوله الـكلمات بالضبط ، امنحنا فى الجنة فرحة الوليمة فى حضرتك .

فقالت بس : من هو « حضرتك ؟ »

فالتفت هومير الى أمه متسائلا : أليس معنى الصلاة أن الناس اذا كانوا خيرين فانهم يفرحـون بالوليمـة فى الجنـــة كل مـرة يجلســون فيهـــا على المـائدة ؟ وحضرتك هى كل الاشياء الطيبة، أليس كذلك ؟

فاجابته مسز ماكولى : طبعا .

فعادت بس تسأل : ولـكن أليس « حضرتك » هو الشخص العظيم ؟

فاجابها هومير : طبعا .. ولكن أنا أيضا شخص عظيم ، وأمى وأنت وكل انســـان شـــخص عظيم . فامنحنا أن تـكون هذه الارض جنة وأن يكون كل من يجلس معنا الى الطعام شخصـــا عظيما .. ثم قال لها نافد الصبر: « بس ، انهـا صلاة للمائدة ، وأنت تعرفين كما أعرف معنـاها تماما ، كل ماهنالك أنك تريدين

أن يختلط على الامر ، فلا يثيرك هذا فأنت قادرة عليه ، بل اني أعتقد أن أى انسان يقدر أن يخلط على الامور ، ولكن ماقيمة هذا مادمت أومن ، وكل انسان يؤمن أيضا، أليس كذلك ياأمى؟»

فقالت مسز ماكولى : طبعا انهم يؤمنون جميعا ، وأنت ان لم تؤمن فلست حيا ، بل ستحرم الفرح لافى الجنة فحسب ، بل فى أية وليمة مهما امتلأت مائدتك بأشهى الطعام ! ان الايمان هو الذى يجعل أى شىء شهيا جميلا ،فليست الاشياء فى ذاتها كذلك.

فالتفت هومير الى بس قائلا :« فهمت اذن » وصرف الموضوع برمته نهائيا : « ساجرى فى سباق حواجز المائتين والعشرين ياردة الذى سيقام اليوم فى طريق السبعة » .

فقالت أمه : صحيح ؟ .. لماذا ؟

فاجابها هومير : لماذا ، انه سباق هام ياأمى ، لقد عدا فيه مستر سبانجلر عندما كان فى مدرسة ايتاكا العليا ، وفى هذا السباق لايجرى المرء فحسب ، بل يقفز أيضا ، وهو مازال يحمل معه بيضة مسلوقة لتجلب له الحظ .

فقالت بس : يحمل بيضة مسلوقة لتجلب له الحظ ؟ .. هذه خرافة .

فاجابها : سواء خرافة أم لا.. ما قيمة هذا ؟ انه يرسلنى فى كل يوم الى محل شاترتون أشترى من فطائر الامس فطيرتين بالتفاح ، وقشدة جوز الهند ،الاثنتان بربع دولار ، أما الفطائر الطازجة فكل واحدة منها بربع دولار ، فاذا لم تكونى تنوين أن تصرفى الا ربع دولار فلن تشترى الا واحدة منها فقط ، أما من فطائر الامس فانك تحصلين على اثنتين..وعند ذلك يعطينى نصف فطيرة ومستر جروجان النصف الثانى ، الا أن مستر جروجان لايأكل من نصيبه الا لقمة أو لقمتين ، فآكل أنا قدرا كبيرا من الفطير . ان مستر جروجان يفضل أن يشرب عن أن يأكل .

ودخلت المطبخ جارتهم الفتاة مارى أرينا قادمة من الباب الخلفى تحمل فى يدها اناء من أوانى ،حل ولوورث الرخيصة ووضعته على المائدة ، فترك لها هومير مقعده قائلا : تعالى هنا يامارى أجلسى وأفطرى معنا .

فاجابت مارى : لقد فرغت الآن فقط من الافطـــار مع أبى ، وذهب الى عمله ·· شـــكرا على أية حال ، لقـــد أحضرت معى يامسز ماكولى بعضـــا من الخوخ الجاف الذى طبخته لابى ·

فقالت مسز ماكولى : شكرا يامارى · كيف حال والدك ؟

فردت مارى : بخير ·· الا أنه يحب صبحا ومساء أن يغيظنى ، ففى صباح اليوم ، ماكاد يجلس على المـائدة حتى سألنى قبل أن يقول شيئـا آخر : ألم تصـل خطابات؟ ألم تأت بعد من ماركوس خطابات ؟

فقالت بس : لابد أن يصلنا قريبا منـه خطاب ·· ثم تركت مقعـدها على المـــائدة قائلة :هيا بنا يامارى ، فلنذهب الآن·

فردت مارى : نعم يا بس · والتفتت الى مســـز ماكولى : ولكنى أقول لك الحق ، لقد ضجرت وتعبت من الذهاب للـكلية ، فلا فارق بينهـا وبين المدرسـة العليا ، ثم اننى قد كبرت على أن أصرف كل وقتى هكذا فى الذهاب الى المدرسة ·· لقد تغير الزمن ! وأنا ، والله العظيـم ، أريد أن أذهب فأبحث لنفسى عن عمل فى أى مكان ·

فايدتها بس قائلة : وأنا أيضا أريد ذلك ···

فردت مسز ماكولى : هذا كلام فارغ ، أنتما مازلتما طفلتين·· الستما فى السابعة عشرة فقط ؟ان لابيك يامارى وظيفة طبيـة وكذلك لاخيك يا بس ·

فقالت مارى : ولكن ألا ترين يامسز ماكولى أنه ليس من العدل ألا نفعل نحن شيئا الا مجرد الذهاب للمدرسة فى زمن يذهب فيـه ماركوس للجيش ولا يهتم الناس فيه الا بأن يخرج كل منهم عين الآخر !! اننى تمر بى أوقات أتمنى فيها لو كنت رجلا فأستطيع أن أكون مع ماركوس فى الجيش!! . . لو صـح هذا فما أكثر ماكنا سننالـه معا من فرح ومتعة·

فقالت مسز ماكولى : لاتدعى هذا يزعجك كثيرا يامارى ، فهذا كله ســـينتهى وستعود الامـور جميعا الى ماألفناه من قبل ·

فاجابت مارى : « نعم ، أرجوهـــذا » · ومضت ذاهبه هى

وصديقتها بس ماكولى الى المدرسة · وراح هومير يرقب الفتاتين تنصرفان ثم سأل أمه بعد لحظة: « أمى ماذا تقولين فى هذا ؟ »

فردت مسز ماكولى : انه امر طبيعى تماما أن ترغب فتاتان مثلهما فى الخروج الى الدنيا وهز أعطافهما ·

فقال هومير : أنا لا أقصد رغبتهما فى الخروج وهز أعطافهما ، انما أعنى مارى ·

فأجابته مسز ماكولى : ان مارى فتاة لطيفة لا تصنع فيها كالاطفال ، انها أقرب من عرفت من الفتيات الى براءة الاطفال !! وانا سعيدة جدا ان ماركوس قد احبها ، فلن يستطيع أن يجد ألطف منها فتاة ·

فقال هومير نافد الصبر: أمى. أعرف أنا هذا كله وليس هذا ما أحدثك عنه الآن ·· ألا تفهمينني ؟

وتوقف هومير عن الكلام وكأنما أدرك أنه لا جدوى من التحدث عما يعتمل فى نفسه الآن من أن هذه الحرب ستجلب الالم والحزن للكثيرين ممن لم يشتركوا فيها أو يقاربوها ، فصرف الحديث فجأة قائلا :

ـ «أوه ·· سأراك عندما أعود الليلة الى البيت ·· الى اللقاء »·

ووقفت مسز ماكولى ترقبه وهو ينصرف متعجبة ماذا عساه كان يريد أن يقول لها · وعلى حين فجأة لمحت بطرف عينها شخصا صغيرا جدا · كان يوليسس ينظر اليها وهو فى قميص نومه كما ينظر الحيوان الصغير الى ذلك الآخر من جنسه الذى يجد فيه أقصى سعادته وراحته ، وامتلأ وجهه بتعبير جدى عميق آسر الى أقصى حد · واتجه يوليسس اليها قائلا : لماذا يقول « كفى بكاء ، كفى بكاء ؟ »

فقالت مسز ماكولى : من هذا؟

ـ الرجل الاسود فى القطار·

فاجابته أمه وهى تاخذ يده : انها أغنية يا بوليسس · تعال الآن وغير ملابسك ·

وسألها الصبى الصغير : هل ترى الرجل الاسود اليوم ايضا فى القطار ؟

ففكرت مسز ماكولى لحظة **ثم قالت** : نعم ·

ـ ٩ ـ

الارانب هنا فى مكان ما

مر هومير ماكـولى فى طريقه الى المدرسة بحاجز من الاعمدة الخشبية المدببة يسيج قطعة من الارض مليئة بالاعشاب على طريق سان بنيتو . وكان السياج قديما باليا لانفع منه ، الا أن يسيج فى عظمة مضحكة قطعة من الارض الخراب وأن يحمى أعشابا ضجرة مملولة لاتحتاج رعاية أو حماية !! ورد تلميذ النهار وساعى الليـل دراجته الى وقفة مفاجئة سريعـة وانزل حمالتها لتقف عليها واسرع الى السياج وكأنمـا سيكتشف خلفه شيئا خاصا سريعا يخاف عليه أن يضيع اذا لم يسرع وراءه ! غير أن السياج كان يزيد فى ارتفاعه حوالى القدم على الارتفاع المقرر لحواجز السباق ، وهـذا الشىء الخاطف السريع وراءه لابدانه ، أيا كان هـو ، انما يسـير فى سرعة سيستغرق معها قرناكاملا كى يختفى . فقد وقف هومير يتفحص السياج ويدرس الارض من ورائه وتلك المنطقـة التى

سيعدو فيها من أمامه ، ثم راح يقيس ارتفاعه الذى وجده يزيد كثيرا على ارتفاع وسطه ، ولكنه بدأ يجرب نفسه فى بضع قفزات ثم تراجع عشر ياردات الى الوراء... وفجأة ، وحتى دون أن يعلن ذلك بينه وبين نفسه ، انطلق فى تحمس وفورة عاديا ناحية السياج ، فلما اقترب منه قفز قفزة رائعة رفس فيها السياج فحطم جزءا منه وسقط بنفسه واقفا على الاعشاب ، ولكنه سرعان ما قام راجعا لتجربة أخرى . وكان خشب السياج يتحطم فى سهولة ويسر محدثا صوتا لابتلاءم وشرخه البالى ، فيبدو مضحكا فكها . وبلغ مجموع محاولات هومير سبعا لم تنجح واحدة منها ، غير أنه لم يتوقف الا لأن السياج بلغ به التحطم حدا كبيرا .

وخرج من البيت التائم على الناحية الاخرى من الطريق رجل هرم يسير مستندا على عصا ويدخن فى فمه غليونا ، ووقف يرقب هومير ! واخيرا ، عندما راح هومير ينفض عن نفسه غبار سقطته الاخيرة ، تكلم الرجل قائلا : ماذا تفعل ؟

فاجاب هومير : اقفز .

ـ هل اصبت نفسك ؟

ـ لا .. لا .. كل ما فى الامر ان السياج عال قليلا وهذه الأعشاب زلقة ايضا .

ونظر الرجل العجوز الى الاعشاب لحظة **ثم قال** : هذه اعشاب لينة كثيرة العصارة ، وهى غذاء طيب جدا للارانب ، والارانب تحبها كثيرا . لقد كان عندى منذ احدى عشرة سنة بيت للارانب ولكن احدهم جاء فى نصف الليل ففتح الباب فولت جميعها هاربة .

فقال هومير : ولماذا فتح الباب ؟

فاجاب الرجل : لست اعرف لماذا ، فانا لم أستطع أن أعرف ابدا من الذى عمل هذا العمل ، ولكنى فقدت ثلاثة وثلاثين أرنبا من اجمل ما رايت من الأرانب . كان بينها البلجيكى والأحمر العين والقطنى الوجه ونوعان او ثلاثة أخرى .. ولم استطع ابدا أن أعرف من الذى عمل ذلك .

فسأله هومير : اتحب الارانب ؟

فقال الرجل العجوز : انها حيوانات صغيرة لطيفة ، والمستأنس منها وديع جدا .

ونظر الرجل حوله فى أعشاب الارض الجرداء **وقال** : ثلاثة وثلاثون أرنبا ترعى العراء احد عشر عاما !! من ذا يستطيع اليوم ان يحصى عددها وقد توالدت كما تفعل دائما ، أو من ذا الذى يعرف كيف اصبحت الآن متوحشة برية .. انني لن أتعجب الآن اذا ما رأيت المدينة قد امتلأت بالارانب البرية .

فقال هومير : ولكننى لم أر أبدا ولو واحدا منها .

فرد الرجل العجوز : محتمل ، ولكنها هنا .. فى مكان ما ، بل لعلها قد اكتسحت المدينة بأكملها ولن يمضى عام أو اثنان حتى تصبح هذه الارانب مشكلة عويصة .

ولكن على الرغم من هذه المشكلة العويصة امتطى هومير دراجته قائلا للرجل : حسنا ، أنا مضطر للذهاب الآن ، وسأراك مرة اخرى .

فقال الرجل الهرم : صمم ان تفعل ذلك .. أنا اسمى تشارلز .. ويكفى ان تدعونى شارلى .. تعال فى اى وقت وافعل مابدا لك هنا .. مرحبا بك دائما .

فقال هومير : « نعم ، ياسيدى » وعاد الى موضوعه الخاص الذى يشغله فقال يعلن الخبر للرجل العجوز : سأجرى فى سباق المائتين والعشرين ياردة للقفز المنخفض الذى سيقام اليوم عصرا بميدان سباق المدرسة العليا .

فرد الرجل العجوز : أنا لم أذهب الى المدرسة العليا ولكنى شاركت فى الحرب الامريكية الاسبانية .

فقال هومير : حقا .. ياسيدى .. حسنا .. الى اللقاء ..

فقال الرجل العجوز وقد أصبح الآن حديثه لنفسه :

ـ أوه.. نعم الحرب الامريكية الاسبانية .. وفررت كالارنب معظم الوقت .

واختفى هومير على دراجته عند ناصية الطريق، وراح الرجل العجوز يسير ناحية بيته المتهدم فى خطوات بطيئة ، نافخا غليونه ومتاملا الأرض من حوله. وغرز عصاه فى جمع كبير من الاعشاب وقال : « الارانب هنا.. فى مكان ما .. قد توحشت الآن ولم تعد كما كانت » .

- ١٠ -

التاريخ القـــديم

كانت الحواجز قد اقيمت فى طريق الســـباق بارض الملعب الخاص بالمدرسة العليا استعدادا لسباق ٢٢٠ ياردة فى العـــدو والقفز المنخفض . وتجمـع فى هذا الصباح اربعة من الصـبية يتدربون استعدادا للســباق . وكانوا جميعا بلا استثناء يعدون عدوا طيبا ويقفزون فى أسلوب جميل ونظـام محكم . وتقـدم المدرب بايفيلد وساعة السبق فى يده الى الفائز قائلا له : أحسنت هذه المرة ياآكلى .

كان بينا ان الصبى ليس من الصبية العاديين : غير ان تميزه على الرغم من هذا لم يكن بارزا جدا . كان صـبيا من اولئك الذين يتبدى فى مسلكهم دعـة أولاد الاسر التى نعمـت فى أجيالها القريبة بما تحتـاجه من ملبس ومطعم ومسكن ، واصبح فى قدرتها احيانا ان تتزاور وان تحتفل بمن يزورها من امثالهم ذوي الحظ السعيد .

وعاد المدرب يقول للصبى : مازال أمامك أن تتعلم الشيء الكثير ولكنى أعتقد أنك ستفوزاليوم فى هذا السباق ٠

فأجابه الصبى : سأبذل جهدى ياسيدى ٠

فرد المدرب : نعم ، أعرف ذلك ، انك على أية حال لن تلقى منافسة اليوم ، ولكنك بعد أسبوعين ستجد كثيرين ينافسونك فى سباق الوادى ٠ اذهب الآن فاغتسل واسترح حتى العصر ٠

فأجابه الصبى : « سأفعل ياسيدى» ، وتحرك منصرفا ولكنه توقف فجأة يسأله : معذرة ياسيدى ، كيف وجدت زمنى الذى سجلته ؟

فأجاب المدرب : ليس بالردىء ولا بالحسن جداً ، ولكنى فى موضعك لاأشغل نفسى الآن بالزمن ، كل ماعليك أن تجرى فى السباق كما علمتك ، وأعتقد أنك ستكون فى المقدمة ٠

وكان العداؤون الثلاثة الآخرون قد تجمعوا جميعا فى ركن واحد يرقبونهما ويسمعون حديثهما ، والتفت أحد الصبية قائلا للآخرين : لقد يكون فى مسلكه مايشبه اخواتنا البنات، ولكن هو ياتى دائما فى المقدمة ،ماذا جرى لك ياسام ؟

فقال سام : ماذا جرى لى ؟ ماذا جرى لك أنت ! لم لم تغلبه ؟

قال الصبى : كنت الثانى ٠

فقال الصبى الآخر : الثانى والثالث سواء ٠

وقال سام : أيغلبنا هبرت آكلى الثالث!! ماأحرانا أن نخجل من أنفسنا !!

فرد الثانى : طبعا ، ولكن ليس لدينا لاحجة ولاعذر ٠ ٠ ٠ كل مافى الامر أنه يجرى أفضل منا ٠ والتفت المدرب الى هؤلاء الثلاثة مخاطبا اياهم فى لهجة مغايرة تماما عن اللهجة الاولى : هيه ٠٠ لماذا تقفون هكذا ساكنين ٠٠ تحركوا ٠٠ لستم من الروعة بحيث تستطيعون أن تقفوا هكذا تفخرون بأنفسكم ٠٠ هيا قفوا فى أماكنكم وحاولوا مرة أخرى ٠

وعاد الصبية الى اماكنهم دون أن ينطقوا بكلمة واحدة، وأرسلهم المدرب مرة أخرى يعدون فى طريق السبق ، وبعد أن بدأوا العدو صمم فى نفسه أن يجعلهم يقطعون السبق مرتين أخريين قبل اللقاء فيما بعد الظهيرة ، فقد كان يبدو أنه يريد ألا يفوز فى هذا السباق غير هبرت آكلى الثالث .

كان فصل التاريخ القديم يمتلىء فى سرعة ، وقد وقفت المدرسة العجوز مس هيكس تنتظر أن يدق الجرس الاخير ، وأن يسود فصلها ذلك الهدوء والنظام اللذان يعلنان عن بدء محاولة جديدة من محاولاتها فى تعليم صبية ايتاكا وبناتها ان لم يكن تسليتهم ، فى مدرستهم هذه العليا التى يستعدون فيها ولو نظريا لمواجهة العالم . وجلس هومير ماكولى وقد أزعجه شعور كاد يصل الى حد العبادة ، يتفحص فتاة اسمها هيلين اليوت وهى تسير داخلة من الباب الى مقعدها فى الفصل . وليس من شك اذن أن هذه الفتاة كانت أجمل فتاة فى العالم . الا انها كانت الى جانب ذلك مغرورة متكبرة ، غير أن هومير لم يكن يريد أن يصدق أن هذا الطبع أصيل دائم فيها . وبالرغم من هذا ، وبالرغم من عبادته لها ، فقد ظل غرور هيلين اليوت هذا أقسى وأمر ما فى حياته المدرسية بأكملها .

وجاء وراء هيلين هبرت آكلى الثالث . وعندما قاربها تبادل واياها الهمس لحظة فأثار غضب هومير كثيرا .

ودق الجرس الاخير فقالت المدرسة : الآن أرجوكم الصمت، من الغائب ؟

فرد أحد الصبية : « أنا » وكان هذا هو جوتير انوفا ، مضحك الفصل وشخصيته الفكهة . وسرعان ما استجاب لجو ولبديهته السريعة الحمقاء أولئك المخلصون الاربعة أو الخمسة الذين يكونون أفراد شيعته الدينية المضحكة . ولكن هيلين اليوت وهبرت آكلى التفتا مقطبين الى أولئك الحمقى وهذه الشرذمة من سيىء التربية أولاد سكان الحارات والازقة الذين جاءوا يتعلمون معهم فى الفصل . وأغضبت هذه النظرة هومير جدا، حتى انه انفجر وحده ، وبعد أن

سكت الضحك جميعه فى قهقهة مصطنعة أطلقها مباشرة فى وجه هبرت الذى يحتقره وهيلين معبودته . ثم تحول بنظره سريعا الى جو قائلا : أما أنت ياجو فالزم الصمت اذا ما تكلمت مسز هيكس .

وتكلمت مسز هيكس قائلة : الآن، لانريد شيئا من سخافاتك أنت ياجوريف » والتفتت الى هومير : « ولا أنت أيها السيد الصغير » . وتوقفت لحظة تشمل الفصل كله بنظراتها ثم قالت : « والآن ، سنعود الى الاشوريين حيث تركناهم بالامس ، وأريد منكم جميعا أن تعطونى انتباهكم كاملا غير موزع .. من كل واحد منكم أريد انتباها كاملا غير موزع، وسنقرأ أولا من كتاب التاريخ القديم ثم نتناقش شفويا بعد ذلك فيما قرأنا » .

ولم يستطع مضحك الفصل أن يترك هذه الفرصة للمزاح تفلت منه ، فقال للمدرسة وكأنما يقترح عليها : «لا يامسز هيكس، لانناقش شفويا بل نناقش فى صمت حتى أستطيع ان أنام ». وانفجر المخلصون من جديد فى الضحك وازور المغرورون المتكبرون اشمئزازا . ولم تستطع مسز هيكس أن ترد على المضحك مباشرة فلم يكن من السهل عليها أولا أن تمنع نفسها من السرور ببديهته السريعة ولا أن تجد ، من ناحية أخرى ، طريقة تتصرف بها معه فلا تمنع روحه الفكهة من أن تستمر . غير انه ، على الرغم من ذلك ، كان من الضرورى عليها أن تلجمه وان تحفظه من أن يخرج عن النظام ، وتكلمت أخيرا قائلة له : « أليس من الواجب ألا تكون هكذا قاسيا ياجوزيف وخاصة اذا كنت أنت المصيب وأنا مخطئة » !!

فقال المضحك : « حسنا يامسز هيكس ، أنا آسف ، أظن اننى لم أستطع أن أمنع نفسى ! لقد قلت مناقشة شفوية ! وهل هناك نوع آخر من المناقشة ؟ ولكن ، حسنا ، أنا آسف » ثم أشار اليها فى لون من التهكم على نفسه وعلى ادعائه قائلا فى أستاذية : استمرى يامسز هيكس .

فقالت المدرسة : شكرا لك .. والآن استيقظوا جميعا ..

فقال جو : يستيقظون ! . .انظرى اليهم ، انهم نصف نيام .

وعلى الرغم من أن حماقات جو كانت تسر المدرسة العجوز ، الا انها أصبحت مضطرة أن تقول له : « لو قاطعتنى مرة أخرى ياجوزيف ، سأضطر لارسالك الى مكتب الناظر » .

فقال المضحك : « أنا لاأريدالا أن أحصل لنفسى شيئا من العلم ، انظرى اليهم هم ، انهم نصف نيام ، أليس كذلك ؟ وراح يستعرض وجوه تلاميذ الفصل جميعا ثم أردف : «بل حتى اخوانى جميعا ، من أكبر لاعبى الباسبول »

وتطوع هومير قائلا لصديقه: « أوه .. جو .. اسكت ليس هنالك مايدعو لان تظل تستعرض نفسك هكذا دائما طول الوقت، فكلنا يعرف أنك لبق » .

فقالت مسز هيكس : « لن أسمح بكلمة أخرى من واحد منكما » . ثم عادت تقول : « والآن افتحوا الكتاب ص ١١٧ الفقرة الثانية » . وقلب الجميع كتبهم الى هذه الصفحة والمكان الذى أشارت اليه ، وواصلت هى كلامها قائلة : لقد تبدو دراسة التاريخ القديم أمرا مملا لاضرورة له . ففى مثل هذا الوقت الذى نعيش فيه ويسجل فيه التاريخ تسجيلا عريضا فى عالمنا نحن ، قد يبدو للبعض أن دراسة هذه العصور الاخرى الغابرة ومحاولة تفهمها أمر لاطائل تحته ، ولكن هذه الفكرة خاطئة تماما ، فمن المهم جدا أن نلم بالازمان والحضارات القديمة وأن ندرس حياة الشعوب فى عوالم أخرى غير عالمنا هذا . من منكم سيتطوع للمجىء هنا الى رأس الفصل ليقرأ ؟ » ورفع هيرت آكلى الثالث وفتاتان أيديهم، فالتفت جو المضحك الى هومير وقال له :

ـ أنظر الى هذا الغلام !!

واختارت المدرسة هيلين اليوت الفتاة الجميلة المتكبرة من بين الاثنتين اللتين تطوعتا للقراءة . وراح هومير يرقبها مسحورا بها وهى تسير الى رأس الفصل . فلما وصلت وقفت لحظة ، فى تمام بهائها ، ثم بدأت قراءتها فى أحلى مايتصوره الخيال من صوت

بسميل رائق ·وجلس هومير يتأمل ماخوذا تلك المعجزة الخارقة التى جمعت بين جمال الصوت وجمال الجسد ·

وقرات هيلين اليوت : « كان الاشوريون ، طوال الانوف والشعر واللحى ، وقد جعلوا من مدينتهم نينوى فى الشمال مركزا لقوة كبيرة · وظلوا أمدا طويلا يصارعون الحيثيين والمصريين ، غيرهم فينهزمون مرة وينتصرون أخرى ، حتى استطاعوا أخيرا أن يغزو بابل تحت حكم ملكهم تيجلات بيلسر الاول فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ·وظلت نينوى التى بنيت بالحجر وبابل التى بنيت بالطوب تتبادلان السلطة عدة قرون · وليس هناك أية صلة بين الاشوريين والسوريين ، فقد حارب الاشوريون السوريين حتى هزمهم تيجلات بيلسر الثالث ونفى منهم قبائل اسرائيل العشر الضالة » ·

وتوقفت هيلين لحظة تجذب نفسها النضر استعدادا لقراءة الفقرة التالية ، الا أن هومير ماكولى لم يمكنها من معاودة القراءة ، فقد قال مقاطعا : «وماذا عن هبرت آكلى الثالث ؟ من غزا ؟ وماذا فعل ؟ » فانتفض الصبى المؤدب على قدميه فى غضب مدير مهذب، وقال فى جدية صارمة : « مس هيكس ، أنا لاأسمح أن تمر مثل هذه الاهانة المقصودة دون أن يوقف صاحبها ويعاقب · وانى مضطر ان أسألك ان تأمرى مستر ماكولى بالذهاب فورا الى مكتب الناظر · واكتسى صوته نبرة الاصرار والعزم وهو يقول :

« والا سأضطر أنا الى التصرف فى الامر »

فقفز هومير خارج مقعده قائلا: « آه·· اخرس ، أليس اسمك هبرت آكلى الثالث ، ماذا فعلت اذن فى حياتك ، أو ، مادام الموضوع قد أثير ، ماذا فعل هبرت آكلى الثانى أو هبرت آكلى الاول ؟ »

وتوقف لحظة ثم اتجه الى مس هيكس ثم الى هيلين اليوت قائلا: أعتقد ان هذا سؤال جيد مفيد· ثم التفت الى هبرت آكلى مكررا سؤاله : ماالذى قاموا به ؟

فقال هبرت آكلى:« أقل مافى الامر أن واحدا من عائلة آكلى لم يكن ··· » وتوقف يبحث عن كلمة قارصة مناسبة ثم قال

احـــيرا « العبـانا » . كلمه لم يسمعها أحد من قبل في ايتاكا .

فرددها هومير متســـــائلا : « ألعبانا » والتفت الى المدرســة يسألها : مامعنى هـــذه الكلمة يامس هيكس ؟ . ولما لم تـكن مستعدة بتعريف للكلمة التفت هومير فى سرعة الى هبرت آكلى مواصلا : « اسمع ، أنت أيهـاالثالث ، اياك أن تشتمنى هكذا شتائم لم أسمعها من قبل » .

فقال هبرت : الالعبان اذن هو هو «المهرج » «المتصنع» ،وتوقف يبحث عن كلمة أخرى أكثر عامية . فصاح فيه هومير : « اخرس » والتفت الى هيلين اليوت مبتسما ابتسامة بيت ماكولى الشـــهيرة وردد الكلمة : ألعبان !! فى أى باب هذا من أبواب السباب ؟ ثم عاد الى مقعده وجلس .

وانتظرت هيلين اليوت اشارة من المدرسة كى تواصل قراءتها ولكنها لم تفعـــل ، وفهم هومير أخيرا مقصدها فقام واقفـا وقال لهبرت آكلى الثالث : أنا معتذر وآسف .

فقال الشاب المهذب «أشكرك» وجلس .

ولكن مدرسة التاريخ القديم ألقت بنظرها لحظـة على الفصل كله ثم قالت : « هومير ماكولى وهبرت آكلى يظلان فى مقعديهما بعد انتهاء الدروس .

فقال هومـير : ولـكن يامس هيكس ، ماذا نفعل فى ســباق المدرسة ؟

فأجابت المدرسة :سباق المدرسة هذا لايهمنى ،وتربية أخلاقكم مهمة كتربية أبدانكم تماما ، ان لم تكن أهم .

ولـكن هبرت آكلى قال :«مس هيكس ، مدرسة ايتاكا العليـا تعتمد على فى كسب سباق الاثنين والعشرين حاجزا بعد ظهر اليوم وفى أن أكون خير ممثل لها بعد أسبوعين فى ســـباق الوادى . وأنا أخشى أن المـــدرب بايفيلد سيصر على اشتراكى فى السباق .

فقال هومير: أنا لاأعرف شيئا عن اصرار المدرب هذا ، ولكن ، كل ماأعرفه ، اننى سأجرى بعد ظهر اليوم ، فى سباق الحواجز . هذا كل ما هناك ...

ونظر هبرت آكلى الى هومير وقال : أنا ليس عندى اى فكرة عن انك اشتركت فى هذا السباق .

فاجابه هومير : « حسنا ، فلتعلم اذن اننى اشتركت » ، ثم التفت الى المدرسة قائلا : أنا أعدك يامس هيكس لو تركتنا نذهب هذه المرة ألا أحدث شغبا مرة أخرى وان أكون مطيعا ، الا أفعل شيئا أبدا ، وهبرت أيضا يعد هو الآخر » ، واتجه اليه سائلا : أليس كذلك ؟

فقال هبرت: نعم يامس هيكس أنا أعد .

ولكن مدرسة التاريخ القديم قالت لهما : كلاكما سيظل هنا بعد الدراسة ، أكملى قراءتك ياهيلين .

فعادت هيلين تقرأ : «واستطاعت الجيوش المتحالفة ، جيوش الكلدانيين فى الجنوب وجيوش الميديين والفرس من الشمال أن تحطم الامبراطورية الآشورية ، ودانت نينوى لسلطانهم . ثم حكم بختنصر الثامن امبراطورية بابل الثانية . ولكن جا بعد ذلك كسرى الكبير ملك الفرس وجيوشه الغازية . الا أن انتصاره لم يكن الا دورة من دورات الزمن فقد قدر على حفدة جنوده المنتصرين أن يخضعوا هم بدورهم للاسكندر الاكبر » .

وأحس هومير بالضجر لما حدث وحل به التعب من العمل فى ليلة أمس ، وتأثر بصوت الفتاة الحلو الذى يعتقد أنه موجه له وحده ، فأراح رأسه فى بطء على ذراعيه المعقودتين ، وبدأ ينعم بحال أشبه مايكون بالنوم . غير انه كان لايزال قادرا على أن يسمع صوت الفتاة وهى تقرأ . وتابعت القراءة :

« ومن انصهار هذه الحضارات كلها معا ورث العالم تراثا كبير القيمة . فشريعة موسى التى جاءت فى التوراة تدين فى شىء من مبادئها لبعض القوانين التى صاغها حمورابى الذى عرف باسم المشرع . ومن طريقتهم فى الحساب التى كانوا يستعملون فيها مكعب العدد ١٢ ونظامنا العشرى المألوف ، أخذنا تقسيمنا للساعة الى ستين دقيقة وتقسيمنا للدائرة الى ٣٦٠ درجة . وأعطتنا العرب أرقامها التى مازالت تعرف الى الآن بالارقام العربية تمييزا لها

عن الطريقة الرومانية فى الترقيم . أما الاشوريون فهم الذين اخترعوا المزولة الشمسية ، والى البابليين ترجع رموزنا الطبية الحديثة وعلامات الابراج الفلكية . وقد أثبتت الكشوف الاثرية منذ وقت قريب أنه قامت فى آسيا الصغرى امبراطورية عظيمة .

وراح هومير يحلم : « امبراطورية عظيمة ؟ أين ايتاكا ؟ ايتاكا بكاليفورنيا ؟ ثم ولت هكذا بلا أثر ، هكذا بلا شعب عظيم ، والاختراعات كبيرة ، لا مزاول شمسية ولا أرقام ، ولا أبراج ولا حتى فكاهة ، بلا شىء هكذا على الاطلاق ؟ أين كانت هذه الامبراطورية؟ » . وقرر أن يعتدل فى جلسته وراح ينظر حوله ، ولكنه لم ير غير وجه هيلين اليوت ولعل هذا الوجه هو أعظم الامبراطوريات جميعا فى نظره . ولم يسمع الا ذلك الصوت الرائع ، صوتها وما أجدره أن يكون أعظم ما حققته الانسانية الجاهدة .

وكانت تقول : « وانحدر الحيثيون مع الساحل ودخلوا مصر ، ومزجوا دماءهم بدماء القبائل العبرانية فأخذ العبرانيون الانف الحيثية » .

وتوقفت هيلين عن القراءة والتفتت الى مدرسة التاريخ القديم قائمة : « هذه نهاية الفصل يا مس هيكس »

فقالت مس هيكس : « حسنا يا هيلين وشكرا على هذه القراءة الممتازة .. اجلسى . »

- ١١ -

خطاب فى الانف الانسانية

انتظرت مس هيكس حتى عادت هيلين الى مقعـــدها وراحت تستعرض وجوه تلاميـذها ، ثم قالت :

« والآن ، ماذا تعلمنا ؟ »

فأجاب هومير : ان الناس فى جميع أنحاء العالم لهم أنوف .

ولم تثر مس هيكس لهذه الاجابة بل أخذتها على علاتها وقالت: وماذا أيضا ؟

فرد هومير أيضا قائلا : وان الانوف لم تخلق فحسب لننفخها أو لنصاب بالبرد فيهـــا ، بل لتحفظ كذلك فى سجلات التاريخ القديم .

فانصرفت مس هيكس عن هومير قائلة :غيره ، أرجوكم ، يبدو أن هومير قد فتن بالانوف .

فقال هومير:ولكنها فى الكتاب أليس كذلك ؟ ولماذا يذكرونهـا اذن ؟ لابد انها مهمة .

فقالت مس هيكس : لعلك اذن يامستر ماكولى تحب أن ترتجل خطبة عن الانف ؟

فاجاب هومير : « فى الحقيقه · · ليست خطبة بالمعنى الدقيق ·· ولكن التاريخ القديم يعلمنا شيئا » وهد أحديثه وأخذ فى اصرار لا يستدعيه الموضوع يواصل كلامه : «كان للناس دائما أنوف ، ولاتتطلب هنا البرهان على هذا الا النظر حولنا الى كل فرد فى هذا الفصل» · ونظر حوله الى كل فرد ثم قال : فالأنوف هنا فى كل مكان ؟ ·· وتوقف لحظة يبحث عما يمكن ان يقوله أيضا فى هذا الموضوع ، فلما استقر رأيه استمر قائلا : ولقد يكون الأنف أكثر أجزاء الوجه الانسانى بعثا على الزراية والاستخفاف ، وكان دائما مصدرا من مصادر الحرج للجنس البشرى ، وقد يكون السبب فى أن الحيثيين كانوا يوقعون بكل من يتصدى لهم ، أن أنوفهم كبيرة مقوسة · فليس الذى اخترع المزاول الشمسية هو العظيم الخطير الشأن ، اذ لا بد أن يأتى بعده عاجلا أو آجلا من يخترع الساعات ، أما العظيم الخطير الشأن حقا فهو الذى له الأنف ·

وكان المضحك جو يصغى فى انتباه واعجاب عميق ، ان لم يكن فى شىء من الحسد ، وهومير يواصل خطابه قائلا : وبعض الناس يتكلم من أنفه ، وكثيرون يسمع لهم منها شخير ، وقلة قليلة تصفر أو تغنى من خلالها · ومن الناس من يسحبون من أنوفهم ، وآخرون يستعملون الأنف فى التصيد والتلصص فى أماكن عديدة · وكثيرا ما عضت الانوف الكلاب المجنونة أو الممثلون على الشاشة فى قصص الحب العنيف · وما أكثر ماردت دونها الابواب ، وما أكثر ما أمسكت بها ضربات البيض أو القلابات الآلية فى الحاكى · والانف ، كالشجرة ، شىء ثابت ، غير أنها مزروعة فى الرأس المتحرك ، فما أكثر ما حل بها العقاب لانها حملت الى مكان لم تكن فيه الا متطفلة · وعلى الرغم من أن للأنف وظيفة طبيعية هى أن تشم ما فى الهواء ، فأن بعض الناس يشمخون بها استهزاء بأفكار الآخرين وبمسلكهم أو مظهرهم !!

والتفت بنظره الى عبرت آكلي الثالث ثم الى هيلين اليوت التي انحدر أنفها لسبب ما الى أسفل قليلا بدلا من أن يرتفع عاليا ثم قال : « هؤلاء الناس يرفعون عادة أنوفهم للسماء وكأنما يحسبون في هذا وسيلة لدحولها . ولأغلب الحيوانات خياشيم تشم بها ، فالقليل منها له أنوف بالمعنى الذي نفهمه ، غير أن حاسة الشم في الحيوان قوية متطورة أكثر مما هي عند الانسان الذي له الأنف حقا ولا جدال في ذلك »

وأخذ هومير نفسا عميقا وقد قرر أن ينهي خطابه قائلا : « وأهم شيء عن الأنف على كل حال أنها تسبب المتاعب وتثير الحروب وتبت الصداقات القديمة وتحطم الكثير من البيوت السعيدة . مس هيكس ! هل أستطيع الآن أن أذهب للسباق ؟ »

وعلى الرغم من أن مدرسة التاريخ القديم قد أعجبتها هذه القدرة على الابداع والتخيل في الحديث عن مثل هذا الموضوع التافه ، فانها لم تكن لتسمح بهذا النجاح الذي أحرزه أن يتدخل في ضرورة صيانة النظام بفصلها ، فأجابته قائلة : « أنت يا مستر ماكولي ستبقى هنا بعد انتهاء الدراسة ، وأنت يا مستر آكلي ! . الآن وقد خلصنا من أمر الأنوف ، أرجو أن يعلق واحد آخر على ما قرأنا . »

ولكن أحدا لم يخاطر بتعليق ، فعادت مس هيكس تقول : « هيه .. ماذا جرى .. هيا .. فليعلق أحد غيره .. أي أحد ! »

وأجاب جو المضحك دعوتها قائلا : الأنوف حمراء ، والبنفسجة زرقاء ، وهذا الفصل ميت ، وأغلب الظن كذلك أنت .

فقالت مس هيكس : أليس هناك أحد غيره ؟

فأجابت فتاة : الملاحون والرحالة المكتشفون لهم عادة أنوف كبيرة .

فقال جو : كل من له رأس له أنفان .

وقال أحد المعجبين بجو : لم تطلع الأنف أبدا في القفا .

فقالت مس هيكس : « غيره .. » والتفتت الى صبي ونادت اسمه : « هنري ! »

فاجابها هنرى : « أنا لا أعرف شيئا عن لأنوف »

فالتفت جو الى هنرى قائلا : حسنا .. دع الأنوف .. من هو موسى ؟

فاجاب هنرى : موسى ذكر فى الانجيل .

فعاد جو يسأله : هل كان له أنف ؟

فأجاب هنرى : طبعا كان له أنف .

فقال جو : حسنا ، جدا .. لم لا تقول هذا ، كان لموسى أنف كبير كأنف الكثير . ألا تعرف أن هذا فصل فى التاريخ القديم ؟ لم لا تحاول بين الحين والآخر أن تكتسب لنفسك شيئا من العلم ؟ موسى والأنوف ، والتاريخ القديم .. فهمت .. أكمل .

وحاول هنرى أن يكمل ، وقال : موسى والأنوف .. لا .. انتظر لحظة .. كان أنف موسى أنفا كبيرا .

فقال جو : يا لله !.. انك لن تتعلم فى حياتك شيئا ولا شك انك ستموت فى ملجأ .. كان لموسى انف كبير كأنف الكثير . يجب أن تفهم هذا بوضوح ياهنرى .. فكر .. فكر فيها ..

فقالت مس هيكس : كفى هذ الآن .. غيره .

ولكن جو عاد يقول : اليد أسرع ، والعين أبطأ ، والانف وحدها تجرى .

وتكلم هومير ثانية : مس هيكس لابد أن تدعينى أجرى فى سباق الاثنين والعشرين حاجزا للقفز المنخفض .

فقالت مس هيكس : مسألة القفز هذه لا تخصنى أيا كانت .. هيا الآن .. غيره .

فعاد هومير يقول : ألم أحى لك أنا هذا الفصل ؟ ألم أجعلهم جميعا يتكلمون لك عن الانوف .. ألم أفعل ذلك ؟

وأجابته مدرسة التاريخ القديم : هذا ليس فى الموضوع .. غيره .

ولكن الوقت كان قد فات ودق الجرس ، فقام الجميع متجهين الى السباق الاهومير ماكولى وهبرت آكلى الثالث .

- ١٢ -

سباق الاثنين والعشرين حاجزا للقفز المنخفض

وقف مدرب الصبية الرياضى بمدرسة ايتاكا العليا فى غرفة مكتب ناظر المدرسة ٠ وكان اسم أسرة هذا الناظر اسما عجيبا هو « اك » وهو اسم لم يفت المحرر الشهير روبرت ريبلى أن يعلق عليه برسم فكاهى فى احدى الصحف اليومية تحت عنوان « صدق أو لا تصدق » ٠ أما اسم مستر « اك » نفسه فقد كان أوسكار وهو كما ترى لا يسترعى الانتباه ٠

وقال ناظر مدرسة ايتاكا العليا لمدرب المدرسة : « ان مس هيكس تعد أكبر المدرسين هنا كما انها تفضل بمراحل أى مدرس آخر عمل بهذه المدرسة ٠ وكانت مدرستى عندما حضرت مدرسة ايتاكا العليا كما انها كانت مدرستك أنت أيضا يا مستر بايفيلد ٠ وأخشى أن أقول اننى لا أحب أن أتخطاها فى أمر عقاب تلميذين عاصيين » ٠

فقال المدرب : ولكن هبرت آكلى الثالث ليس تلميذا عاصيا ٠

فيما يتعلق بهومير ماكولى . حقا هذا صحيح ، أما هبرت آكلى .. فلا . انه مثال الجنتلمان الصغير .

فأجاب الناظر: نعم ، نعم أعرف ان هبرت آكلى من اسرة ثرية ، ولكن اذا كانت مس هيكس قد أمرته أن يبقى بالمدرسة فهو محجوز محجوز لاشك فى هذا . انه مثال الجنتلمان الصغير ، أنا لا أختلف معك فى هذا ، وكان أبوه كاملا . نعم أنا أذكره .. بل كان مثال الكمال ، كل هذا لاجدال فيه ، ولكن مس هيكس هى مدرسة التاريخ القديم ولم يعرف عنها أبدا انها عاقبت تلميذا لايستحق العقاب . فليقنع اذن هبرت آكلى بأن يجرى السباق فى فرصة أخرى .

وأحس الناظر ان الموضوع قد انتهى الآن تماما ، واستدار المدرب مغادرا المكتب . غير انه لم يذهب الى أرض اللعب بل اتجه الى غرفة الدراسة فى قسم التاريخ القديم . ووجد هناك هومير وهبرت ومس هيكس فانحنى محييا المدرسة العجوز وابتسم قائلا : «مس هيكس ، لقد تكلمت فى هذا الامر مع مستر « اك » «

وكانت عبارته تتضمن أنه حصل على ترخيص باطلاق سراح هبرت آكلى الثالث ، الا أن هومير قفز واقفا على قدميه وكأنما هو المقصود بالامر . ولكن المدرب قال له باحتقار : «أنت .. لا!..» والتفت الى الصبى الآخر داعيا مستر آكلى ! » .

فالتفتت اليه مدرسة التاريخ القديم وقالت : ماذا تعنى ؟

فأجاب المدرب : ان مستر آكلى لابد أن يرتدى الآن مباشرة ملابس اللعب كى يجرى فى سباق الاثنين والعشرين حاجزا للقفز المنخفض ، فنحن ننتظره هناك !

فقال هومير وقد عصفت به ثورة صادقة لكرامته : صحيح ... ؟! وأنا .. مستر ماكولى ؟! .. ماذا عنه ؟ ولم يجب المدرب بل سار خارجا من الغرفة يتبعه الشاب هبرت آكلى الثالث مضطربا مرتبكا .

وصاح هومير : أرأيت هذا يا مس هيكس .. أليس هذا محاباة ؟

غير أن مدرسة التاريخ القديم كان قد أربكها وأثارها ماحدث فلم تكن تستطيع الا أن تتكلم هامسة فى هدوء : « مستر بايفيلد لايصلح الا لان يعلم الرياضة للبهائم أمثاله » . وتوقفت لحظة لتدرك أنه لم يكن يجدر بها أن تلقى هذه الملاحظة ، ثم قالت : « انى آسفة ، ولكن الرجل ليس جاهلا فحسب بل انه كذاب أيضا » . وكان من الممتع أن يرى المرء مس هيكس وقد تملكتها هذه المرارة الطبيعية التى لم تستطع أن تتحكم فيها ، فامتلأ هومير احساسا بأنها أفضل مدرسة فى العالم ، وقال : اننى لم أحبه أبدا ، ومن الجميل حقا ان أعرف انك لا تحبينه أيضا .

فقالت مس هيكس : لقد درست التاريخ القديم بمدرسة ايتاكا العليا خمسة وثلاثين عاما كنت فيها الام التى ربت المئات من صبيان ايتاكا وبناتها . وقد علمت أخاك ماركوس وأختك بس ، ولو أن لك اخوة أو أخوات صغارا فى البيت فساعلمهم هم أيضا يوما ما . »

فاجاب هومير : ليس لى الا أخ واحد اسمه يوليسس . كيف كان حال ماركوس وهو فى المدرسة ؟ وردت عليه مس هيكس : كان كل من ماركوس وبس تلميذين طيبين صادقين ، مهذبين متحضرين . نعم .. كانا مهذبين متحضرين . وأكدت هذه الكلمات الأخيرة وهى تكررها فى اهتمام شديد : ان سلوك الاجيال القديمة قد جعلهم مهذبين متحضرين منذ طفولتهم . وقد كان ماركوس مثلك أحيانا يتكلم من غير اذن ولكنه لم يكذب أبدا . أما الآن ، فان هذه الكائنات الانسانية الدنيا من أمثال بايفيلد فى هذا الزمن ... أولئك الذين لم يكونوا أبدا الا جماعة من الحمقى .. انهم يحسبوننى امرأة عجوزا لا أفهم ... لقد جاء الرجل الى هنا وكذب على عمدا ، نعم يكذب ، تماما كما كان يفعل مرة بعد أخرى وهو صبى يجلس أمامى هنا فى الفصل . انه لم يتعلم شيئا الا أن يتملق بلا حياء أولئك الذين يحس أنهم يعلون عليه » .

فقال هومير يستحث مدرسة التاريخ القديم كى تواصل نقدها : كذلك اذن ؟!

واستمرت هي تقول : لقد عرفت في حياتي الكثير من أفاضل الناس حقا الذين غمرهم وأساء اليهم أمثال هذا الرجل .. نعم أمثاله الذين يمضون حياتهم يكذبون ويخدعون فيحجبون أولئك الذين تكبر نفوسهم على مثل هذا السلوك ، سباق الاثنين والعشرين حاجزا للقفز المنخفض ؟.. حقا .. انه منخفض وكان التأثر والالم من الاساءة قد بلغ بمدرسة التاريخ القديم حدا كبيرا ، فنفخت في أنفها وراحت تمسح عينيها ، فقال لها هومير : « أوه ، مس هيكس ، لا تغضبي هكذا .. سأبقى أنا محجوزا .. عاقبيني أنا لأني تكلمت بغير اذن . أظن أنني أستحق هذا ، ولكنني منذ الآن سأحاول أن أكون طيبا مطيعا . انني لم أكن أتصور أبدا أن المدرسين أناس كبقية الناس ، بل انهم أيضا قد يفضلونهم جميعا . مس هيكس لا تغضبي وعاقبيني أنا » .

فردت مدرسة التاريخ القديم « انني لم أستبقك هنا ياهومير ماكولي لكي أعاقبك ، وأنا لم أستبق دائما الا أولئك الذين أهتم بهم أكثر من غيرهم .. استبقيتهم كي أكون أقرب اليهم ، وما زلت أعتقد أنني لم أخطىء في تقديري لهبرت آكلي ، فانه لم يعصني الا لان مستر بايفيلد جعله يفعل ذلك . وقد كان عزمي على أية حال أن أترككما تذهبان بعد لحظة الى الملعب ، فأنت لم تستبق هنا للعقاب بل للتربية ، انني أرقب دائما النمو في نفوس أطفالي الذين يحضرون دروسي ، وامتلأ سعادة بكل دليل جديد على هذا النمو . ولقد اعتذرت أنت لهبرت آكلي ، وعلى الرغم من أن اعتذارك قد أربكه لأنه جعله يبدو وكأنه لا يستحقه ، فانه قبله في نبالة وأدب . وقصدت أن أستبقيكما بعد نتهاء الدراسة لاني أردت أن أحدثكما معا ، فأحدكما من عائلة طيبة غنية والآخر من عائلة طيبة فقيرة . ولقد يكون المضي في هذا العالم والنمو فيه أصعب عليه مما هو عليك ، ولذا أردت أن تزداد معرفتكما الواحد للآخر وأن تصبح هذه المعرفة أفضل .. ان هذا أمر هام جدا ، نعم .. كنت أريد أن أتحدث اليكما معا . »

وقال هومير : أعتقد أننى أحب هبرت ، ولكن كل ما فى الامر أنه يبدو لى كأنه يرى نفسه أفضل الاولاد جميعا .

فقالت مدرسة التاريخ القديم : نعم ، أنا أعرف ما تقول وأفهم شعورك تماما ، ولكن ، لا بد أن يكون كل واحد فى هذه الدنيا أفضل من واحد آخر وأقل من ثالث غيره . فجوتيرانوفا مثلا أذكى وألبق من هبرت ، ولكن هبرت لا يقل عنه صدقا وأمانة بطريقته هو الخاصة . وفى البلد الديمقراطى يتساوى الافراد جميعا ما دام كل واحد منهم يؤدى واجبه فى حدود جهده ، أما وراء ذلك فكل انسان حر أن يزيد أولا يزيد قدرته على عمل الخير ، وأن ينمى نفسه كما يريد فى النبالة والخير أو فى الحماقة والحرق . وانى حريصة كل الحرص على أن يجهد أولادى وبناتى فى عمل الخير ، وعلى أن ينموا بأنفسهم نبلاء أخيارا . أما مظهرهم وما يبدون به فهذا لا يهمنى على الاطلاق ، فانا لا أخدع بالتأنق فى السلوك ولا أفزع من التصرف الجاف الخشن ، وانما يهمنى حقا ذلك الذى يكمن وراء كل هذا . أنا لا يعنينى أبدا أن يكون أحد أطفالى غنيا أو فقيرا ، من الكاثوليك أو البروتستانت أو اليهود ، أبيض أو أسود أو أصفر ، ذكيا أو بطىء الفهم ، عبقريا أو ساذجا . . أنا لا يعنينى أن يكون هذا كله ما دامت فيه انسانية ، وما دام له قلب يحب الحق والشرف ، ويستطيع الاحترام لمن هم أقل منه والحب لمن يعلون عليه . فما دام الاطفال فى فصلى أناسى ، فانا لا أريد لهم أن يتشابهوا فى انسانيتهم . كل ما أريده ألا تكون نفوسهم فاسدة ، أما ما وراء ذلك ، فكل فرق بينهم لا يعنينى ، بل اننى لا أريد ألا أن يظهر كل منهم على حقيقته ، وألا يكون الا نفسه هو فحسب . أنا لا أطلب منك يا هومير أبدا أن تتشبه بآخر أو أن تسلك سلوك غيرك لمجرد ادخال السرور الى قلبى أو تخفيف عبء العمل على . اننى سأمل وأضجر ، لو أننى دخلت فصلى فوجدته مليئا بفتيات كاملات وفتيان كاملين !! اريد أطفالى ان يكونوا بشرا ، وان يكون كل منهم كائنا خاصا ، مستقلا منفصلا له فى نفسه جدة المغايرة وروعة الاختلاف عن الآخرين جميعا . كنت أريد

هبرت آكلى ان يستمع معك الى هذا ، وأن يفهم معك أنكما اذا كنتما لايحب احدكما الآخر ، فهذا أمر طبيعى . كنت أريده ان يعرف انه لن تكمل لأى منكما انسانية حقا حتى تستطيعا أن يحترم كل منكما الآخر رغما عن الكراهية الطبيعية بينكما . ذلك هو المعنى الحقيقى لأن يكون الانسان مهذبا متحضرا ، وهذا ما علينا ان نتعلمه من دراسة التاريخ القديم » . وتوقفت المدرسة لحظة وراحت تنظر الى الصبى الذى كان على وشك أن يبكى لسبب لا يدريه حتى هو نفسه ، ثم عادت تقول : « اننى سعيدة لأنى تحدثت اليك أنت بالذات وليس لأى واحد آخر من الذين أعرفهم ، فأنا ، عندما تكبر أنت وتترك هذه المدرسة ويمر وقت طويل حتى تكون فيه قد نسيتنى ، سأظل أرقبك وأتبع حياتك فى الدنيا ، ولن أدهش أبدا لكل ما أعرف أنك ستحققه من أعمال طيبة » . ومخطت مدرسة التاريخ القديم أنفها من جديد ومست عيونها بمنديلها ثم قالت له : « يمكنك ان تجرى الآن الى الملعب ، وسابق هبرت آكلى فى سباق الاثنين والعشرين حاجزا . واذا لم يكن لديك من الوقت ما يكفى لأن تبدل ملابسك وترتدى ملابس الملعب ، فادخل السباق كما أنت ولو ضحك الناس عليك جميعا . فلن تصل الى مرماك فى هذه الحياة الدنيا قبل ان تسمع مثل هذه الضحكات كثيرا ، ولن تكون هذه الضحكات من الناس فحسب ، بل ان الأشياء الجامدة نفسها ستضحك ساخرة منك تريد أن تربكك وتعوقك .. ولكننى أعرف أنك لن تهتم لمثل هذه الضحكات » . وتنهدت المدرسة وقالت متعبة : « لتجر الآن الى الملعب يا هومير ماكولى ، فانى سأرقبك »

واستدار الابن الثانى لاسرة ماكولى التى تسكن طريق سانتا كلارا بايتاكا من كاليفورنيا وسار مغادرا الحجرة .

وفى الملعب كان هبرت آكلى ومعه الصبية الثلاثة الذين سابقوه فى هذا الصباح قد اتخذوا أماكنهم بين الخطوط استعدادا لسباق الاثنين والعشرين حاجزا . ووصل هومير الى المكان الخامس فى الوقت الذى رفع فيه حامل المسدس ذراعه

لاطلاق اشـــارة البدء ، وأسرع فوقف مع بقية المتسابقين عند الخط • واستشعر هومير قدرا كبيرا من الرضا ولكنه كان مع ذلك غاضبا جدا ، غير أنه على أية حال يؤمن ايمانا قاطعا ان هذا الحذاء ، وهذه الملابس التي لا تصلح للعب ، وأن افتقـــاره للمران والتـــدريب ، بل ان اى شيء آخر فى هذا الوجود لايمكن ان يعوقه عن كسب هذا السباق ... انه سيكسبه لأن هذا امر طبيعى لاجدال فيه .

والتفت اليه هبرت آكلى الواقف فى المكان المجاور له وقال : انك لن تستطيع أن تشترك فى السباق وأنت •• هكذا ••

فقال هومير : لا أستطيع ؟ ! ••• انتظر ••• فسترى •

والتفت مستر بايفيلد الجالس على المنصة العالية وسأل رجلا بجواره :

« من هذا الذى يقف مستعدا فى المكان الاخـير دون ملابس الملعب ؟ »

ولكن دون ان ينتظر الاجابة تذكر من يكون • وصمم على أن يوقف السباق كى يستبعد العداء الخامس ، ولكن الوقت كان قد فات ، فقد أطلقت الرصـــاصة وانطلق معها العداءون • وعنـــد الحاجز الأول كان هومير وهبرت يتقدمان الآخرين قليلا ، ثم قفز كل منهما فى رشاقة واضحة • وعند الحاجز الثانى كان هومير قـــد ســـبق هبرت قليلا وظل يتقدمه قافزا محتـــازا قبـــله الحـــاجز الثـــالث والرابع فالخامس والسادس فالسابع ، حتى الحاجز الثـــامن • غير أن هبرت آكلى كان وراءه بمســـافة صغيرة جدا ، فكانا يستطيعان ان يتبادلا كلمات قصـــارا وهمـــا يعدوان • فعندما كانا على الحاجز الاول صاح هبرت : أين تعلمت أن تجرى هكذا ؟

وأجابه هومير : أبدا •• أنا أتعلم الآن •

وعند الحاجز التالى عاد هبرت يقول : لمـــاذا العجلة ؟ انك تجرى بسرعة جدا •

وقال هومير : سأكسب السباق •

وكانا قد وصلا الحاجز الثالث فقال آكلى : من قال هذا ؟

وأجابه هومير وهو يقفز على الرابع : أنا .

وعند الحاجز الخامس قال هبرت : « ابطىء . ان هـــذا سباق طويل ، وستتعب » ، ثم صاح فجأة :

« أوه .. انتبه .. بايفيلد قادم » .

ووصل هومير الحاجز التاسع فى ذات الوقت الذى وصل اليه فيه مدرب مدرسة ايتاكا العليا قادما من الاتجاه المضاد . ولكن هومير على الرغم من هذا قفز ، واستقر من قفزته تماما فى ذراعى المدرب المفتوحتين ، فسقط الصـــبى والرجل معـــا على الأرض ، وتوقف هبرت آكلى عن الجـــرى والتفت الى العـــدائين الآخرين صـــائحا : « قفوا حيث أنتم . انتظروا حتى يقوم ، انه يجرى سباقا طيبا ، وقـد تعطل » . ولكن هومير انتصب من سقطته سريعا وواصـــل جريه فورا ، وفى اللحظة التى انطلق فيهـا انطلق معه العداؤون جميعا .

وتعجب كل من فى المدرج حتى هيلين اليوت ، مما حدث فى السباق . أما مس هيكس فقد كانت عند نهاية السباق تلوح مشجعة للصبية جميعا واحدا بعد الآخر : « هيا ياهومير .. هبرت .. هيا .. اسرع ياسام !.. جورج !.. هنرى !»

وعند الحاجز قبل الاخير لحق هبرت آكلى بهومير ماكولى وقال له : لا تؤاخذنى .. انا مضطر !

فقال هومير : تقدم .. ان استطعت .

وتقدم هبرت آكلى على هومير قليلا عندما شارف الشوط منتهاه ولم يعد هناك مجال لتقدم جـديد . ولم يقفـز هومير الحاجز الاخير ولكنه كاد ان يلحق تماما بالعداء الاول ، وانهى الاثنان السباق فى وقت متقارب جدا حتى لم يعد أحد يستطيع أن يعرف من الذى كسب السباق ، أهو هبرت آكلى أم هومير ماكولى . وبعد وصولهما بقليل الى غاية الســباق قدم سام فجورج فهنرى ، وجمعتهم مس هيكس مدرسة التاريخ القـديم أمامها وقالت لهم : أنتم جميعا تعدون عدوا مدهشا !

وقال لها هبرت آكلى : انا آسف يا مس هيكس ، كان من الواجب على ان اظل محجوزا مع هومير .

فقالت مس هيكس : دع هذا الآن ، لقد كان جميلا منك أن تنتظر هومير عندما تعطل حتى يقوم .

وقدم مدرب مدرسة ايتاكا العليا غاضبا ممرورا قد اذهلته السقطة التى نالها بعض الشيء ، واتجه عاديا نحو المجموعة التى جمعتها مس هيكس حولها، وعندما اصبح على بعد خمس عشرة ياردة منهم صاح قائلا : ماكولى .. بناء على ما فعلت الآن ، ستحرم بقية هذا الفصل الدراسى من حق الاشتراك فى اى نشاط رياضى تقوم به المدرسة . ولما وصل اليهم اخيرا وقف المدرب ينظر محملقا فى غضب الى هومير ماكولى . فالتفتت اليه مدرسة التاريخ القديم وقالت: لماذاتعاقب هومير ماكولى الآن يامستر بايفيلد ؟

فأجابها المدرب : لاتؤاخذينى يامس هيكس ، أظن اننى قادر على أن اتخذ قراراتى دون مساعدة قسم التاريخ القديم . والتفت الى هومير قائلا : أفهمت ؟

فأجاب هومير : نعم يا سيدى .

فعاد بايفيلد يقول : والآن اذهب الى مكتبى وانتظر هناك حتى آمرك بالانصراف .

فقال هومير : «مكتبك ؟.. ولكنى مضطر ان اذهب الى..» وتذكر فجأة ان عليه ان يكون فى عمله الساعة الرابعة ، فسأل : كم الساعة الآن ؟

ونظر هبرت آكلى الى ساعة يده وقال : الرابعة الا ربعا .

ولكن بايفيلد صاح : اذهب الى مكتبى .

فقال هومير : انك لا تعرف .. يا مستر بايفيلد .. فانا على ان اكون فى مكان ما وساتأخر .

وقدم جو تيرانوفا فدخل بين الجماعة وقال: ولماذايبقى هومير بعد المدرسة ، انه لم يرتكب خطأ .

وكان المدرب قد تحمل أكثر مما يستطيع فصاح صارخا فى جو : اقفل انت فمك الطليانى القذر !

ودفع الصبى فراح يتعثر زاحفا على الارض ، ولكن جو قبل ان يقع صاح مستنكرا : الطليانى القذر ؟

وفى الوقت ذاته هاجم هومير المدرب وكانهما يلعبان الكرة قائلا له : لا اسمح لك أن تشتم واحدا من أصدقائى .

فلما سقط هومير وبايفيلد مرة اخرى على الارض ، كان جو تيرانوفا قد قام واقفا وقفز فى ثورة على بايفيلد فاختل توازن الرجل وتباعدت اطرافه على أرض المكان كله . وجاء ناظر المدرسة مستر اك يعدو مبهور الانفاس مذهولا وصاح: «ياسادة .. يا أولادى .. ياأولادى ..» وانتزع جو تيرانوفا من فوق المدرب الرياضى الذى ظل كما كان على الارض لايريد أن يقوم !

وسأله ناظر المدرسة : مامعنى هذا السلوك الشاذ يا مستر بايفيلد !؟

ولم يستطع بايفيلد ان يتكلم بل اشار بيده الى مس هيكس، فوقفت هذه عند راس الرجل وقالت : «لقد نصحتك اكثر من مرة يا مستر بايفيلد الا تتحكم فى النـــاس وتأمر فيهم فهم لا يحبون ذلك » . والتفتت الى ناظر المدرسة قائلة : على مستر بايفيلد ان يعتذر لجو تيرانوفا ..

فقال مستر اك : هكذا اذن يا مستر بايفيلد ..؟!

فعادت مس هيكس تقول : ان اهل جو من ايطاليا ولايصح ان تنسب اليهم القذارة .

ولكن جو قال : ليس هو بحاجة ان يعتذر الي، انه اذا شتمنى مرة اخرى فساحطم له فمه وان لم اقـــدر انا على ضربه فسأستعدى احوتى ..

فصاحت فيه مس هيكس : « جوزيف !! .. يجب عليك أن تعطى مستر بايفيلد الفرصة كى يعتـذر . انه لا يعتذر لك ولا لأهلك ، انه يعتذر لبـلدنا نحن جميعا ، ويجب عليك أن تعطيـه الحق فى أن يحاول مرة أخرى أن يكون أمريكيا » .

وأمن على قولها الناظر : «نعم هذا صحيح ·· نحن فى أمريكا ، والاغراب فيها فقط هم الذين ينسون أنها أمريكا » والتفت الى الرجل الذى ما زال مبعثرا على الارض وقال آمرا : « مســـتر بايفيلد ! »

فانتصب مدرب مدرسة ايتاكا العليا واقفا على قدميه ، وقال غير موجه الحديث لأحد بالذات : أنا أعتذر ··· ، ثم انصرف مسرعا ·

واتجه جوتيرانوفا وهومير ماكولى منصرفين معا ، أحدهما ، جو ، يسير بخطوات عادية لم يصبها شىء ، والآخر هومير ، يعرج فقد أصيبت ساقه اليسرى عندما كان بايفيلد يحاول أن يوقفه ·

أما مس هيكس ومستر اك فقد التفتا الى المجموعة الكبيرة من الصبية والفتيات الذين كانوا قد تجمعوا حولهم وبلغ عددهم الثلاثين او الاربعين يمثلون نماذج عديدة وقوميات كثيرة مختلفة ، ثم قالت لهم مس هيكس : « كفى الآن ·· انصرفوا ·· وعودوا الى أهلكم · »

ولاحظت أن الاطفال مضطربون مدهوشون · فقـــالت لهم : هيه ·· ابتسموا ·· ولا تنزعجوا ·· فلم يحدث شىء ·

وأمن ناظر المدرسة من جديد : نعم ·· ابتسموا ·· فلن تستمر الحرب الى الابد ·

وتوزع الاطفال فى مجموعات صغيرة وساروا منصرفين ·

- ١٣ -

يا الهـى ، الفخ ! الفخ !

فى الوقت الذى كان فيه هومير ماكولى يتأرجح على دراجته مندفعا بها بأسرع مايستطيع كى يصل الى عمله ، دخل رجل يدعى بيج كريس الضخم الى مخـزن الادوات الرياضيـة الذى يمتلكه كوفنجتون فى شـارع تولير . وكان الرجل ضخما طويلا صلب العود مفتولا ، ذا لحيـة شقراء طويلة ، قد هبط حديثـا من الجبال حول (بيدرا) يتمون من طعام المدينة ويشترى شيئا من الرصـاص لسلاحه والفخاخ لصيده . وبدأ مستر كوفنجتون صاحب المخزن ومؤسسه يعرض مباشرة على بيج كريس فخـا جديدا مركبا نوعا ما ، قد اخترعه رجل من فراينت . وكان الفخ كبيرا معقدا قد صنع من الصلب وخشب الليمون ، به أكثر من زنبرك وعدد من الحبال . ويبدو أن الفكرة وراء الفخ أنه يمسك بالحيوان فيرفعه الى أعلى ويلقيه ويمسك به حتى يعود الصائد .

وقال مستر كوفنجتون : انه فكرة جديدة تماما ابتدعها رجل اسمه سافرتى من مدينة فراينت • وقد قدم فعلا طلبا لتسجيل اختراعه ، ولم يصنع منه حتى الآن غير فخين فقط ، أرسل أحدهما وهو نموذج مصغر مع طلب التسجيل ، وأرسل لى الآخر كى أبيعه • والفخ كما ترى يصلح لأى نوع من الحيوانات التى تسير على الارض ، وقد أسماه مستر سافرتى « فخ سافرتى لصيد حيوانات الارض جميعا ، يرفعها الى أعلى ، ويؤرجح أجسامها شمالا ويمينا ، ويظل قابضا عليها » وهو يطلب عشرين دولارا ثمنا له • ولا شك أن الفخ لم يجرب بعد ولكنه كما ترى ، يستطيع ، فيما أظن ، أن يرفع دون أدنى صعوبة دبا كبيرا ناميا وأن يمسك به » •

وكان بيج كريس يستمع لصاحب مخزن الادوات الرياضية كما لو أنه طفل ، غير أن يوليسس ماكولى كان يقف وراءه يستمع هو الآخر فى لذة لا تقل عن لذته ، وقد حشر نفسه بين الرجلين ليحصل على مكان أفضل يتفرج منه على الفخ • وكان مستر كوفنجتون يعتقد أن يوليسس قد جاء الى المحل مع بيج كريس على حين اعتقد بيج كريس أنه يتبع مستر كوفنجتون ، فلم يكن لديهما معا ما يدعو للتساؤل أو الاستفسار عن وجود الصبى • أما يوليسس نفسه فقد كان يعتقد ، كما اعتقد دائما ، أنه ينتمى الى كل مكان يجد فيه ما يتفرج عليه أو يثير اهتمامه !

وعاد كوفنجتون يقول : وأهم ما فى هذا الفخ أنه لا يضر بالحيوان أبد ابل يحتفظ بفرائه دون أدنى اصابة • ومستر سافرتى نفسه يضمن الفخ أحد عشر عاما ، ويسرى الضمان على جميع أجزائه •• مرونة الخشب ، فهو خشب ليمون ، وقوة احتمال كل زنبرك فيه ، وصلابة الصلب ، ومتانة الحبال ••• وكل جزء آخر • وهو يعتقد ، وأن لم يكن هو نفسه صيادا ، أن هذا الفخ هو أضمن فخ فى الدنيا وأكثرها انسانية : انه رجل هرم قد أشرف على السبعين يعيش منعزلا فى فراينت يقرأ الكتب ويخترع أشياء كثيرة • وقد بلغ مجموع ما أخترعه حتى الآن سبعة وثلاثين جهازا كل اداة منها نافعة عملية •

وتوقف مستر ، كوفنجتون عن تحريك أجزاء الفخ وقال : أظن أن الفخ قد أعد الآن .

وزحمهم يوليسس كى يتفرج ولكنه كان قد تقدم أكثر مما يجب ، فأقفل عليه الفخ فى لطف تام ولكن فى سرعة خاطفة ، ورفع قدميه من الارض وتأرجح به شمالا ويمينا وأمسك بك على ارتفاع ثلاثة أقدام مبسوطا راقدا فى وضع أفقى . ولم يصدر عن الصبى أى صوت وان بدا عليه شىء من الدهشة والذهول الخفيف . الا أن بيج كريس لم يأخذ الامر على هذا النحو من السهولة ، فقد صاح فى كوفنجتون : هيه .. احترس أنا لا أريد أن يصيب ابنك ضرر .

فقال كوفنجتون : ابنى ؟! كنت أظنه ابنك أنت ، فانى لم أر الصبى فى حياتى أبدا ، وهو قد دخل المحل معك .

فقال بيج كريس : حقا ؟ أنا لم ألاحظ ذلك . وعلى كل حال ، اسرع الآن وخلصه من الفخ .. أخرجه .

فقال كوفنجتون : نعم .. فلنخرجه .

ولكن بيج كريس كان قلقا مضطربا وراح يقول للصبى : ما أسمك يا بنى ؟

فقال الصبى من الفخ : يوليسس .

فواصل الرجل الذى جاء من الجبال حديثه الى الصبى : « أنا اسمى بيج كريس . كل ما عليك الآن أن تمسك هنا جيدا ، وهذا الرجل سيخرجك وسيضعك سالما على الارض » . والتفت بيج كريس الى مستر كوفنجتون وقال : هيا الآن .. أخرج الصبى .. خلصه !!

غير أن مستر كوفنجتون كان مضطربا مربوكا كبيج كريس تماما ، وما لبث أن قال : كل ما هناك أننى لا أستطيع أن أتذكر كيف وصف لى مستر سافرتى هذا الجزء من عمل الفخ . فهو لم يجربه أمامى ، لاننا .. كما تعرف ... لم يكن لدينا ما نجرب الفخ عليه . لقد وصف لى مستر سافرتى عمل الفخ ...

واعتقد أن هذا الجزء يتحرك الى الخارج ... لا ... يبدو أنه ثابت .

وفى هذا الوقت كان مستر كوفنجتون وبيج كريس قد شغلا معا بالفخ ، فأمسك بيج كريس بيوليسس كى لا يقع على وجهه اذا ما انفتح الفخ فجأة ، وراح الرجل الآخر يعبث بأجزاء الجهاز المختلفة عسى أن يلين أحدها فى يده .

وقال بيج كريس : هيه .. أسرع الآن ، هل سنبقى الصبى هكذا معلقا طول النهار ، انك لم تصب بشىء يا يوليسس ، أليس كذلك ؟ »

فقال يوليسس : لا ياسيدى ..

فقال بيج كريس: اذن استمر قابضا هنا بشدة فسنخرجك من هذا الفخ حالا ..

ثم نظر الى الصبى وعاد يسأله : ماذا جعلك تحشر نفسك هنا ؟

فقال يوليسس : كنت أتفرج .

فرد عليه بيج كريس : لك الحق .. انها آلة مدهشة حقا .. والآن سيخلصك هذا الرجل وأنا سأمسكك حتى لا تقع . كم عمرك ؟

فأجابه يوليسس : أربع سنين .

فقال كريس الضخم : أربع سنين .. أنظر أنا أكبر منك بخمسين عاما . ان هذا الرجل سيخلصك الآن حالا .. أليس كذلك ؟ . والتفت بيج كريس الى مستر كوفنجتون يسأله : « ما اسمك ؟ »

فقال مستر كوفنجتون : والتر كوفنجتون .. صاحب هذا المخزن .

فرد بيج كريس : جميل جدا .. والآن ، خلص الصبى من الفخ يا والتر .. حاول أن تحرك هذه الخشبة .. فأنا ممسك به . لا تفزع يا يوليسس ، ما اسم أبيك ؟

فقال يوليسس : ماتيو

فعاد بيج كريس يقول : محظوظ أبوك هذا أن يكون له صبى مثلك ، ان عيونه مفتوحة حقا ، فانا مستعد أن أضحى بالعالم كله يا يوليسس كى يكون لى صبى مثلك ، ولكنى لم أعثر أبدا على المرأة الصالحة ، لقد التقيت بفتاة منذ ثلاثين عاما فى أوكلاهوما ولكنها ذهبت مع رجل آخر . هل اهتديت الى طريقة لفتح الفخ يا والتر ؟

فأجاب مستر كوفنجتون : لالم أجدها بعد .. ولكنى أظن أننى سأفعل .. أعتقد أن هذا الجزء .. لا . أنا متأكد أن مستر سافرتى قد شرح لى كيفية اخراج الحيوان من الفخ ولكن يبدو أننى لا أستطيع أن أتذكر الحيلة . ألا تظن أن الفكرة فى فتح الفخ قد تتغير اذا كان الصيد طفلا صغيرا وليس حيوانا ؟

وفى ذلك الوقت كان قد تجمع بالمخزن رجلان وامرأة معها طفلة صغيرة وصبيان فى التاسعة أو العاشرة ، دخلوا جميعا المحل يشاهدون مايجرى .

وقال أحد الصبية : ماذا جرى ؟

فأجاب مستر كوفنجتون : عندنا فخ هنا أمسك بصبى صغير اسمه يوليسس .

فقال أحد الرجلين : وكيف دخل فيه .. هل استدعى الطبيب ؟ .

فأجاب بيج كريس : لا ، انه لم يصب بشىء .. ان الصبى بخير تماما وكل ما فى الامر أنه ليس على قدميه .

وقالت المرأة : أظن من الواجب عليك أن تستدعى البوليس .

فقال بيج كريس : لاياسيدتى .. كل مافى الامر أن الفخ أمسك به .. وهذا الرجل .. والتر .. سيخلص الصبى .

فقالت المرأة : على الله .. كم يقاسى أولئك الاطفال الصغار من هذه الحيل الميكانيكية السخيفة .

فرد بيج كريس : ولكن الصبى ياسيدتى بخير .. انه لايقاسى شيئا .

فقالت المراة : ارجو هذا ، ولكن لو كان ابنى لما انتظرت عليك دقيقتين قبل ان استدعى لك البوليس ، وانصرفت عنهم مغضبة وشدت طفلتها وراءها . ولكن الطفلة راحت تبكى وهى تقول : اتفرج .. اتفرج !! كلهم تفرجوا الا انا . ولكن المراة التفتت اليها وهزتها بشدة وسحبتها خارج المحل .

وعاد بيج كريس يقول . لاتفزع يا يوليس ابدا ، اننا سنخرجك حالا من هذا المكان .

غير ان مستر كوفنجتون كان قد يئس تماما وقال : اظن ان من الافضل ان اتصل بمستر سافرتى تليفونيا فانا لا استطيع ان اخرج الصبى .

فتساءل يوليس : هل سابقى هنا ؟.

فاجابه بيج كريس : لا يابنى .. لن تبقى .. سنخرجك .

ودخل المخزن صبى يحمل عددا من جرائد المساء تحت ابطه ، وازدحم فى الجمع ثم نظر الى يوليس وللناس من حوله ، وعاد ينظر ليوليس من جديد ثم تكلم قائلا : هالو يوليس .. ماذا تعمل هنا ؟

فاجاب يوليس : هالو .. اوجى .. انى حبيس ..

فسأله اوجى : لماذا ؟

فقال يوليس : وقعت فى الفخ .

وحاول بائع الجرائد ان يساعد بيج كريس ولكنه لم يفعل الا ان اعاقه ووقف فى طريقه ، فراح ينظر حوله وقد تملكه الفزع حتى شل حركته ، وظل متحيرا مرتبكا لحظة ثم اندفع فجاة عاديا الى الطريق . وجرى الصبى الى مكتب التلغراف ، ولكنه لم يجد هومير هناك ، فانطلق مرة اخرى فى الطريق يعدو فى هذا الاتجاه ثم يستدير فجاة ويجرى فى الاتجاه الآخر مصطدما بالناس مصرا على اية حال ان يظل ينادى صارخا باسطر الاخبار الاولى .

وقالت امراة ممن صدمهم اوجى : قد جن .. جن من حرصه على بيع الجرائد .

ولكن أوجى ظل يجرى حتى وصل مفرق طرق وعبر الشارع حتى منتصفه ، ووقف يلتفت حوله فى كل اتجاه بحثا عن هومير . وكان من المعجز أن يظهر هومير فى هذه اللحظة ، ولكن هذا ما حدث تماما ، فقد رآه أوجى يستدير بدراجته عند الناصية ، فجرى ناحيته صارخا وراءه بكل ما فيه من قوة : هومير .. !! تعال حالا .. أمر مهم .. أمر مهم !

فترجل هومير من دراجته وقال : أوجى ، ماذا حدث ؟

وظل أوجى يصرخ بأعلى صوته على الرغم من أن هومير قد أصبح الى جانبه تماما . قد حدث حادث .. هومير ، يجب أن تأتى معى .

وعاد هومير يسأله : ولكن ماذا حدث ؟

فقال أوجى : فى محل كوثنجتون .. اسرع ، يجب أن تأتى ..

فقال هومير : آه .. اسمع يا أوجى .. هل أنت تريد أن ترينى جهازا للصيد أو سلاحا مما يعرضه كوثنجتون فى نافذته .. أنا لا أستطيع أن أدور معك الآن للفرجة على هذه الاشياء .. فأنا أعمل الآن .. وعلى أن اذهب .

وامتطى هومير دراجته من جديد وبدأ يحركها منصرفا ، ولكن أوجى أمسك بمقعدها وراح يجرى الى جانبه دافعا الدراجة الى ناحية مخزن كوثنجتون وهو يصيح : هومير .. يجب أن تأتى معى .. انه حبيس .. لا يستطيع أن يخرج .

فسأله هومير : من هو الذى تتحدث عنه ؟

وكانا قد بلغا عند ذاك الجانب الآخر من لطريق المواجه لمخزن كوثنجتون ، ورأى هومير جماعة صغيرة من الناس مجتمعين أمام المخزن ، فبدأ يدب فى نفسه شىء من الفزع . وأشار أوجى ناحية الزحمة ، فاتجه الصبيان يدفعان الناس حتى دخلا المحل وبلغا الفخ وما زال فى داخله يوليسس أخو هومير وحوله بيج كريس ومستر كوثنجتون وعدد من الاغراب رجالا ونساء وأطفالا .

وصاح هومير : يوليسس !

ورد يوليسس : هاللو هومير .

والتفت هومير الى من حوله وقال : ماذا يفعل اخى هنا فى هذا المكان ؟

فاجاب مستر كوفنجتون : لقد وقع فى الفخ .

وعاد هومير يقول : وماذا يفعل هؤلاء الناس جميعا هنا ؟ والتفت اليهم : اذهبوا .. انصرفوا الى بيوتكم .. الا يمكن ان يقع طفل صغير فى الفخ دون ان تنقلب الدنيا هكذا حوله ؟

فقال كوفنجتون : نعم ، معه حق ، كل من ليس عميلا هنا نرجو منه ان ينصرف .. وراح يفحص الناس من حوله وهو يقول : تستطيع انت يامستر والاس أن تبقى فانت تشترى من المحل ، وانت كذلك يامستر سيكرت .. نعم ياجونز .. وانت يامستر سبندل .. وشورتى .

فتقدم رجل وقال : وانا ايضا اشترى من هنا .. قد اشتريت من مدة لاتزيد على اسبوع عددا من شص السمك .

فقال كوفنجتون : نعم . . شص السمك . على الباقين الآن جميعا ان ينصرفوا . فلم يتحرك غير رجلين اثنين الى الوراء قليلا .

وعاد هومير يقول : لاتفزع يايوليسس .. سينتهى كل شىء على خير ، وانحمد لله ان اوجى التقى بى . اسمع يا وجى ، اسرع انت الآن الى مكتب التلغراف وقل لمستر سبانجلر ان اخى وقع فى فخ فى مخزن كوفنجتون واننى أحاول أن اخلصه . لقد تأخرت الآن فعلا ولكن قل له اننى سأعود مباشرة بمجرد خروج يوليسس من الفخ .. اسرع .

واستدار اوجى عاديا فاصطدم بشرطى يدخل المحل وكاد يوقعه على الارض .

وقال رجل البوليس : ماسبب هذا الزحام ؟

فأجاب مستر كوفنجتون :وقع صبي صغير هنا في الفخ ، ولانستطيع أن نخرجه .

فقال الشرطي : « دعني أرى هذا » ،وراح ينظر الى يوليسس ثم التفت للناس قائلا : « كفى وقوفا هنا اذن ..انصرفوا جميعا ، هيا . هذه حوادث تقع كثيرا ولابد أن وراءكم ماهو أهم من الوقوف تتفرجون على صبي صغير في فخ» . ودفع الشرطي الناس أمامه حتى أخرجهم من المخزن وأغلق الباب الخارجي ، ثم عاد الى مستر كوفنجتون وبيج كريس قائلا :والآن ، فلنخرج الصبي من هذا المكان ليعود الى أهله .

فقال مستر كوفنجتون :نعم هذا ماأريده ، وأن يكون بأسرع ما يمكن ... انك قد أغلقت محلي ومازلنا عصرا .

فقال هومير : قل لنا ، كيف يعمل هذا الفخ ؟

فقال كوفنجتون : انه فخ جديد جدا ، اخترعه أخيرا مستر ويلفرد سافرتي من فراينت وقدم طلبا لتسجيله . انه يريد فيه عشرين دولارا .

فرد هومير : المهم ،أخرج أخي أواستدع من يستطيع أن يخرجه ، استدع مستر سافرتي نفسه .

فأجاب كوفنجتون : لقد حاولت فعلا أن أطلب مستر سافرتي ولكن التليفون معطل .

فصاح فيه هومير : «معطل!» واستبد به الغضب من الامر كله ، فاستمر صائحا فيه:مادخلي أنا بالتليفون المعطل .. أحضر الرجل الى هنا وأخرج أخي مباشرة .

وأيده الشرطي قائلا لمستر كوفنجتون : نعم ، أعتقد أن من الافضل لك أن تفعل ذلك .

فقال كوفنجتون : أنا أيها الشرطي أدير محلا مشروعا وأطيع القانون في كل شيء ، وأدفع ضرائبي كاملة ، هذه الضرائب التي تقبض انت منها ، ـ معذرة ـ مرتبك .ولقد بذلت كل ماأستطيع كي أتصل بمستر سافرتي ولكن يبدو أن التليفون معطل ، فهل

تتصور أن أترك محلى فى منتصف النهار وأذهب لابحث لكم عنه ٠

فاقترب هومير من كوفنجتون يحملق فى عينيه ويهز أصبعه تحت أنف الرجل مهددا : طاوعنى ، اذهب الآن وارجع بمخترع آلة التعذيب هذه وأخرج أخى حالا ٠

فقال مستر كوفنجتون : أولا ، هذه ليست آلة تعذيب ، انها أفضل فخ ، فى السوق الآن ، لصيد الحيوانات ، ترفع الحيوان من الارض التى يقف عليها فيصبح لاحول له ولاقوة ٠٠ ثم ثانيا ٠٠ قد لايكون مستر سافرتى فى داره ٠

فصاح هومير : ماهذا الكلام الذى تقوله ! ؟

وكان الشرطى قد قرر أن يتفحص بنفسه الفخ ، فقال بعد قليل مقترحا : ألا يحسن بنا أن ننشره ونخرج الصبى ؟ » ٠

فقال كوفنجتون : تنشر الصلب ٠٠؟ كيف ؟

واقترب هومير من الفخ يقول: يوليسس ، هل تريد شيئا ٠٠ أأنت بخير ٠٠ ألا تريد أن أحضر لك شيئا ؟

وراح بيج كريس وقد علاه العرق من جهاده مع الفخ ، يدير بصره بين الاخوين وقد امتلأت نفسه تأثرا بهدوء الصبى الصغير فى الفخ ومحبة أخيه الغاضب لما حدث له ٠

وقال هومير : ألاتريد منى أن أحضر لك شيئا يايوليسس ؟

فقال يوليسس : بابا ٠٠

فرد هومير : أوه ٠٠ وغير بابا ٠٠ ألا تريد شيئا آخر ؟

فعاد الصبى من الفخ يقول :ماركوس ٠

فقال هومير : أنت تعرف أن ماركوس فى الجيش ٠٠ ألا تريد آيس كريم ٠٠ أو شيئا آخر مثل هذا ؟

فأجاب يوليسس : لا ٠٠ لاأريد غير ماركوس ٠

فقال هومير : « ولكنك تعرف ٠٠ أن ماركوس فى الجيش » واستدار الى كوفنجتون: « قلت لك أخرج أخى من هنا وأن يكون هذا بسرعه ايضا ٠٠ »

وقال بيج كريس : « انتظر لحظة يابنى ، تعال وامسك أخاك من هنا ولا تدعه يقع » ، وعاد الى جهاده مع الفخ وقد بدا مشغولا تماما · غير أن مستر كوثنجتون قال : « ولكنك ستكسر الفخ ·· انه الوحيد من نوعه فى الدنيا ويجب ألا تحطمه · سأحضر مستر سافرتى ، سأحضر مستر سافرتى ·· انك تحطم اختراعا عظيما ·· ومستر سافرتى أصبح الآن هرما وقد لا يستطيع أن يصنع آخر مثله ·· ان الصبى بخير ·· لم يصبه شىء ·· انتظر سأحضر سافرتى · · لن أغيب الا ساعة أو اثنتين · »

فصاح فيه هومير : « ساعة أو اثنتين ! » ونظر اليه بكل ما يستطيع من احتقار ، وتلفت حوله فى المخزن قائلا : « سأكسر لك المحل كله » !! والتفت الى بيج كريس الضخم وقال : « اكسره يا سيدى ·· اكسره ··· »

واستمر بيج كريس يصارع الفخ بعضلاته جميعا وأصابعه ويجاهد بذراعيه وأكتافه وظهره حتى بدأ الفخ يلين شيئا فشيئا لقوته · واستدار يوليسس على جنبه كى يرقب الرجل والفخ يتحطم أخيرا فى يديه · لقد تحرر يوليسس ·

وكان هومير واقفا ممسكا بأخيه كى لا يقع على وجهه . فلما تحطم الفخ وضعه بلطف واقفا على رجليه · وهللت جماعة الناس أمام المخزن ، وان كان تهليلهم متقطعا ضئيلا ، فقد كانوا جماعة لا ينتظمهم شىء ولا يقودهم أحد ·

وحرك يوليسس قدميه يجربهما ، فلما اطمأن هومير الى أن أخاه لم يصبه شىء طوقه بذراعيه ، أما الصبى فراح ينظر الى بيج كريس وقد بدا متعبا مرهقا تماما ·

وقال مستر كوثنجتون : من الذى سيدفع ثمن هذا الفخ ، انه لا نفع فيه الآن ، ولا بد أن يدفع أحد ثمنه ·

فأخرج بيج كريس من جيبه عددا من الاوراق المالية ، وراح يعد منها عشرين دولارا دون أن تبدر منه كلمة واحدة وألقاها على المنضدة أمام الرجل · والتفت الى يوليسس آخذا برأسه وفرك

المحل .

وحدث هومير أخاه : أنت بخير .. هيه ؟ كيف أوقعت نفسك في هذا ؟ . ونظر الى الفخ المحطم ورفسه بقدمه .

فصاح فيه الشرطي : احترس يا بني .. هذا اختراع جديد ولا يعرف أحد ماذا يتأتى منه .

وخرج كوثنجتون الى الناس في الطريق ووقف يخاطبهم : «فتح المحل من جديد ، محل كوثنجتون مفتوح يوميا من الثامنة صباحا حتى السابعة مساء ما عدا الآحاد ، مواعيد الاحد حتى العاشرة ويغلق المحل بقية النهار . بالمحل كل أدوات الرياضة ، عندنا آلات صيد السمك ، والبنادق ، والذخيرة وأدوات الرياضة البدنية ، سيداتي وسادتي ، شرفونا بالشراء » . ولكن الناس بدأوا يتحركون في بطء منصرفين . وقبل أن يغادر هومير المخزن التفت الى الشرطي يسأله : من هذا الرجل الذي خلص أخي من الفخ ؟

فأجاب الشرطي : لا أدري ، فلم أره من قبل أبدا .

ولكن يوليسس قال لهومير : بيج كريس .

فسأله هومير : بيج كريس الضخم .. ؟ هذا اسمه .

فأجاب يوليسس : نعم بيج كريس .

وفي ذلك الوقت دخل أوجي الى المحل يجري ثم توقف لحظة ينظر الى يوليسس وقال : هل خرجت ؟.. كيف خرجت يا يوليسس .

فأجاب يوليسس : بيج كريس !

فالتفت أوجي الى هومير يسأله : كيف خرج ؟ ماذا حدث ؟ ماذا جرى للفخ ؟ أين ذهب الرجل ذو اللحية ؟ ماذا حدث أثناء غيابي ؟

فقال هومير : كل شيء بخير الآن ياأوجي ، هل أخبرت مستر سبانجلر بما قلته لك ؟

فقال أوجى : نعم ، قلت له ،ولكن ماذا حدث يا هومير ، قل لى هل انفتح الفخ ، وهل يصيدالآن الحيوانات ؟

فرد هومير : أوه ٠٠ هذا الفخ ليس الا عبثا لا قيمة له ٠ والتفت الىصاحب المحل : ما الفائدة فى أن تمسك بالحيوان اذا كنت لا تستطيع أن تخرجه ٠وأنا مندهش جدا يا مستر كوفنجتون لأنك جرؤت أن تأخذمن كريس الضخم عشرين دولارا ثمنا لمثل هذه الآلة الخربة ٠

فقال كوفنجتون:السعر المحدد عشرون دولارا ٠

فصاح فيه هومير : سعر محدد ؟!٠٠ما هذا الكلام الذى تقوله؟ أوجى ٠٠ هيا ٠٠ هيا نخرج من هذاالمكان ٠ وغادر الصبيةالثلاثة المخزن سائرين حتى وصلوا الىمكتب التلغراف ٠ وهناك كان مستر سبانجلر قد جلس منحنياعلى المنضدة الطويلة ينظر الى الشارع ، على حين كانمستر جروجان عند الصندوق يرسل برقية ٠ ودخل هومير المكتب وقدازداد عرجه عما كان من قبل منذ أن تصادم وبايفيلد فى سباق المائتين والعشرين ياردة ، وتوقف أمام مدير المكتب يحادثه : هذاأخى يوليسس يامستر سبانجلر٠ لقد خلصناه الآن فقط من نوع من الفخاخ عند كوفنجتون ٠ قد خلصه بيج كريس بعد أن اضطر أن يحطم الفخ واضطر بعد ذلك أن يدفع ثمنه عشرين دولارا ،وهذا أوجى ، هل أخبرك بسبب تأخرى ؟

فقال سبانجلر : الامور تسير على خير وجه ٠٠ كل ما فى الامر أن بعض البرقيات قد تجمعت وعليك أن توزعها ولكن لم يحدث ضرر على أى حال ٠٠٠ هذا اذن أخوك ٠٠ يوليسس ؟

كان يوليسس قد وقف وراء عامل التلغراف يرقبه وهو يؤدى عمله ، على حين وقف أوجى فى الناحية الاخرى من المنضدة أمامه يصغى بأهتمام الى صوت الصندوق ٠

وعاد سبانجلر يقول : وجاءت أيضا بعض الاشارات التليفونية

وحملت أنا القريب منها ، وما زالت هناك اشارتان أخريان فى صفحة المكالمات ، فخذ الاشارات أولا ثم وزع البرقيات ٠

فقال هومير : نعم يا سيدى ، فى الحال ، وانى اريد أن أكرر اعتذارى وأسفى الشديد على ما حدث يا مستر سبانجلر ، ولكن هل أستطيع أن أترك يوليسس فى رعايتك حتى أعود ؟ انى أرجو أن أستطيع اذا ما تأخر الليل وخف العمل أن أحمله على دراجتى الى البيت ٠

فأجابه سبانجلر : نعم ، دع أخاك معى هنا ، واذهب أنت مباشرة ٠

فقال هومير : نعم يا سيدى ، وشكرا لك ٠ ان يوليسس لن يزعجك أبدا ، فهو سيتفرج فحسب ، ولن يعمل أى شىء آخر ٠

وغادر هومير مكتب التلغراف مسرعا وهو يعرج ٠

ـ ١٤ ـ

ديانا

تحرك يوليس مقتربا من مستر جروجان على حين ظل أوجى يستمع لدقات صندوق البرق .

وسأل أوجى مستر سبانجر مشيرا الى الصندوق : ماذا يفعل بهذا الصندوق ؟

فأجاب سبانجلر : مستر جروجان يرسل التلغرافات .

فقال أوجى : أين يرسلها ؟

ـ الى نيويورك .

فعاد أوجى يقول : تقطع كل الطريق الى نيويورك !؟ ولكن كيف تذهب الى هناك ؟

ـ على الاسلاك .

فقال أوجى : أسلاك الاعمدة ؟ هناك أعمدة تلغراف من هنا حتى نيويورك ؟ كل هذه المسافة من ايتاكا حتى نيويورك ؟

ـ نعم .

واستمر أوجى يسأل : ومن الذى يرسل هذه البرقيات ؟

ـ أصناف الناس جميعا .

فراح بائع الجرائد الصغير يفكر لحظة ثم قال : أنا لم تجئنى برقية أبدا فى حياتى ، ماذا أفعل كى تأتينى برقية ؟

ـ لو أرسل لك أحد برقية تجيئك .

فقال أوجى : ولكنى لم تصلنى واحدة أبدا ، فمن هذا الذى يرسلها ؟

ـ يرسلها لك صديق أو أى أحد تعرفه .

فقال أوجى : « أن كل من أعرفهم هنا فى ايتاكا » وأضاء فى اللوحة الكهربائية نور أخضر ،فعاد يسأل : « لماذا يضىء هذا النور الاخضر ؟ »

ـ هذه علامة لنا بأن الخط خال .

فقال أوجى : خط ماذا ؟

ـ خط سان فرانسيسكو .

فصاح أوجى : ياه .. كم يكون عمر الانسان كى يستطيع أن يشتغل ساعيا هنا ؟

ـ السادسة عشرة .

فقال أوجى : أنا عمرى تسع سنين ، ولكن لماذا ينتظر الانسان هذه المدة الطويلة ! ألا يستطيع الانسان أن يلتحق بالبحرية قبل السابعة عشرة .

ـ هذا هو القانون .

قال أوجى : انى لا أفهم أبدا السبب فى كل هذه القوانين .

وبدأ مستر سبانجلر يضع البرقيات المعدة للتوزيع فى

الكوات الخشبية وراءه . وقال له : هذا القانون ، لكى يحولوا دون اشتغال الاطفال .

ـ لماذا ؟

فقال سبانجلر : لكى لا يرهقوا ، وكى يستطيعوا أن يلعبوا . لقد وضع هذا القانون لحماية الاطفال .

ـ حمايتهم من ماذا ؟

فحاول سبانجلر أن يجيب : من العمل الشاق على ماأعتقد .. و .. من الرؤساء الذين يجعلون الاولاد يعملون عملا كثيرا لا يتناسب مع اجورهم .

ـ ولكن ماذا لو كان الولد لا يريد حماية ؟ ماذا لو كان يريد ان يعمل ؟

فقال سبانجلر : سيحمونه هم على اى حال .

ـ والى متى يجب أن انتظر حتى لا أعود طفلا ، واستطيع ان احمى نفسى وأن اعمل فى اية مهنة اريدها ؟

فاجاب سبانجلر : لابد ان تبلغ السادسة عشرة كى تكون ساعيا .

ـ ولكن هومير يشتغل ، اليس كذلك ؟.. فهل بلغ السادسة عشرة ؟

فقال سبانجلر : لا .. هومير شىء آخر ، انه حقا فى الرابعة عشرة ولكنه قوى وذكى .

ـ ذكى ؟.. ماذا تقصد ؟ هل من الضرورى ان يكون المرء ذكيا لكى يكون ساعيا ؟

فاجاب سبانجلر : لا.. ليس ضروريا .. ولكن من الافضل ان يكون ذكيا ، فان هذا يساعده فى اى عمل مهما كان .

ـ ولكن كيف تعرف اذا كان المرء ذكيا ام لا ؟

فنظرسبانجلر للصبى وتبسم قائلا : اتحدث معه قليلا .

ولكن اوجى عاد يسأل : لماذا تضع هذه الاوراق هنا ؟

ـ هذه هى البرقيات التى وصلتنا بالامس ، ونحن نضعها هنا موزعة ، كل مدينة على حدة ، لكى نحفظ سجلاتنا وحساباتنا . فهذه البرقية مرسلة الى سان فرنسيسكو ، لهذا اضعها هنا ، وكل البرقيات فى هذه العين مرسلة الى سان فرنسيسكو .

فقال اوجى : استطيع انا ان اعمل هذا ، واعرف ايضا كيف اركب الدراجة ، فليس هناك الا اننى لا املك واحدة ، ولكنى اذا اشتريت دراجة يا مستر سبانجلر ، فهل أستطيع ان أعمل ساعيا هنا ؟ وهل ترضى ان تعطينى وظيفة ؟

فتوقف سبانجلر عن العمل وعاد ينظر للصبى وقال له : نعم يا اوجى ، اعطيك .. لكن ليس الآن . انت فى التاسعة ما زلت صغيرا جدا .. عندماتصبح فى الثالثة عشرة اوالرابعة عشرة .. هذا معقول ..

ـ او الثانية عشرة .. انفع ؟

فقال سبانجلر : جائز .. ولكن لماذا تريد ان تكون ساعيا ؟

ـ اتعلم اشياء كثيرة .. واقرأ البرقيات .. وافهم الدنيا!!

وتوقف لحظة ثم عاد يقول : ولكن لن ابلغ الثانية عشرة الا بعد ثلاث سنوات ..

فأجابه سبانجلر : ستمضى السنوات الثلاث حالا ، دون ان تشعر بها ..

ـ لا اظن .. اننى انتظر هذه الساعة منذ امد طويل .

فقال سبانجلر : سترى انك ستبلغ الثانية عشرة دون ان تدرى .. قل لى ، ماسمك الكامل ؟

ـ جوتليب .. اوجست جوتليب .

وراح مدير مكتب التلغراف وبائع الجرائد الصغير ينظر كل واحد منهما للآخر ، وقد تبدى على كل منهما الجد والعزم ، ثم قال سبانجلر :

ـ اوجست جوتليب .. انى اعدك بمجرد ان يحين الوقت ..

ولكن سبانجلر لم يكمل كلامه، فقد رأى ديانا ستيدتدخل المكتب وهى تقفز كالحصان النافر ، وعند الباب على الطريق ، رأى العربة التى حملتها وقد جلس عند عجلتها سائق يرتدى حلة خاصة، ورن صوتها جذابا جميلا مناديا سبانجلر، وانكان فيه شيء من التكلف : « أوه .. حبيبى !هذا انت أخيرا » والقت نفسها عليه فى ثورة عذبة من التودد وطوقته بذراعيها وقبلته قبلة أجمل من أن تكون فى الحياة الواقعة ، لا بل أحلى من أن تكون كذلك .

ولكن سبانجلر قال : «تمهلى قليلا » وحاول أن يردها الى الخلف قليلا وهو يضع الساعةالتى كانت فى يده على المكتب . وعاد ملتفتا اليها، فانطلقت الشابة من جديد اليه، ولكنه صدها عنه قائلا : قفى .. تمهلى .. أعرفك بأوجست جوتليب .

ـ كيف حالك ياصغيرى ..؟

وقال سبانجلر : مس ستيد ، يا أوجست .

ـ هاللو ..!! ولم يعرف الصبى ماذا يقول بعد ذلك فسألها : أتريدين الجريدة ؟

فقالت ديانا : طبعا لم لا .. كم ثمنها ؟

ـ خمسة سنتات فقط ، انها طبعة المدينة.. نتائجالسباق وأسعار البورصة ،آخر أخبار الحرب .

ـ كل هذا بخمسة سنتات ؟.. خذ .. أشكرك جدا ..

فأخذ أوجى القطعة المعدنية وأعطى مس ستيد الجريدة ، ولكنه لم يناولها لها حتى طواها أولافى مهارة واحتفال كأنما يقوم بعمل هام خطير ، وضربها علىركبته ضربة الخبير ثم عاد فطواها مرة أخرى وقدمها لهامنتظمة مرتبة وكأنه ساحر قد أدى لعبة ماهرة هامة . وقالأوجى : شكرا يا سيدتى أنا أبيع أيضا يوم الأربعاءالايفننج بوست واللیبرتى وفى أيام الجمع أحمل جريدة كولير .. وأنا أوزع على المدينة كلها .

ـ أرجو اذن أن يكون كسبك كبيرا ٠

فقال أوجى : أنا أكسب فى اليوم حوالى أربعين سنتا ٠٠ من الجرائد والمجلات معا ٠ وعندما يبدأ سوق البلدية أبيع فيه المثلجات ٠

فقالت ديانا بصوتها الجميل المرح : على هذا ٠٠ أنت تجد مجال العمل دائما ٠٠ أليس كذلك ؟

ـ « أوه ٠٠ نعم ٠٠ ولكنى أتعلم أشياء كثيرة أيضا ٠٠ فقد أصبحت أعرف كيف أحكم على الناس وأزنهم » ٠ وبدا من لهجته أنه قد حكم على مس ستيد وانه راض بما استطاع أن يعرفه فيها ٠

فردت عليه هى : « أوه ٠ انى واثقة انك تستطيع » ثم التفتت الى سبانجلر وقالت : « لقد انتظرت ان تحادثنى بالتليفون ٠ ألم تقل انك ستكلمنى فى الخامسة ؟ »

فقال سبانجلر : « أوه نعم ٠٠ ولكنى نسيت ٠٠ لقد كنت أتحدث هنا مع أوجى ٠ انه يريد أن يكون ساعيا وقلت له الآن انه لابد سيحصل على هذه الوظيفة عندما يحين الوقت »

فأجاب أوجى : « شكرا لك يا مستر سبانجلر » ٠ وتحرك كى ينصرف قائلا : « سأراك ثانية ٠٠ بعد اذنك ياسيدتى ٠٠ » والتفتت الى الصبى الصغير وقالت : « الى اللقاء يا يوليسس » ٠

وصاحت ديانا متعجبة تقول لسبانجلر : « يوليسس ؟ يا الهى اسم يبعث الذكريات ٠ ٠ ٠ يوليسس ؟ يوليسس هنا ، وفى ايتاكا ! ٠٠ اسمع يا عزيزى ٠٠ ليس لدى الا دقيقة واحدة ، انك ستأتى للعشاء ، أليس كذلك ، هذا ضرورى جدا ٠٠ انك تعرف ذلك » ٠

وحاول سبانجلر أن يجيب ولكن الشابة قاطعته من جديد قائلة : « لا ٠٠ لا تقل كلمة ٠٠ لقد وعدتنى ٠٠ نعم وعدتنى ٠٠ وأبى وأمى فى غاية الشوق لرؤيتك ٠٠ ٠٠ نحن فى انتظارك فى السابعة تماما » ٠

فقال سبانجلر أخيرا : انتظرى ٠٠ انتظرى لحظة ٠٠

ـ لا ·· يا عزيزى ·· لا ··انك لن تخيب رجائى مرة أخرى»

فرد سبانجلر : لا شىء فى هـذا العالم يستطيع ان يخيب رجاءك أنت ·· فاطمئنى تماما·· ولكنك قلت السابعة تماما ؟ لماذا تصرين على الوقت ؟ ثم قولى·· لى ·· لماذا تريدين أن آتى للعشاء ؟

فقالت المراة فى صبر وكانها تحدث طفلا صغيرا : « لأنى احبك يا عزيزى ·· أحبك ··أحبـك ·· أحبـك ·· أتسمع هذا ؟ » وضحكت ضحكة مرحةطويلة ·

فاجاب مدير مكتب التلغراف : « رويدك ·· رويدك :· انك كلما تجيئين هنا بمثل هذا الكلام أحس ··· »

فقاطعته جادة : ولكنى أحبكفعلا ، ياعزيزى ··

فتنهد سبانجلر قائلا : لقـددعيت للعشـــاء مرتين فقط فى حياتى ، وفى كلتيهما أضجرتنىالدعوة جدا ·

فأجابت ديانا : ولكنك ستحب أبى وأمى ·· ولن نكـــون بملابس السهرة ·· بل بثيـــابالمساء العادية ·

فقال سبانجلر : ثياب المساء ؟ ·· ماذا تعنين ·· لن أرتدى غير ثيابى التى أرتديها فى نهاريومسائى !

قالت ديانا ـ « فى السابعة اذن ·· ولمحت البيضة المسلوقة على مكتب سبانجلر فصاحت :أوه ·· حبيبى ·· أتضع هذه على أوراقك ·· ما أبرعها فكرة·· ولكن ما هى ؟

ـ انها بيضة ·· بيضة حقيقية ·· أحملها لتجلب الحظ ··

ـ أوه ، ما أطرفك ·· اسمع يا حبيبى ·· انى مضطرة للذهاب ·· واتجهت نحوه تريدأن تقبله قبل أن تنصرف، ولكنه صدها عنهفى لطف ، ومضت هىمغادرة المكتب ·

وفرغ مستر جروجان من كتابة البرقية على الآلة ، فصحب سبانجلر يوليسس الى الرجل الهرم قائلا : « ويلى ·· انى ذاهب عند كوربيت أشرب كاسا·· وهذا يوليسس ماكولى أخو

هومير.. لقدحدث له حادث منذقليل .. أظنه وقع فى فخ أو شىء منهذا القبيل .. يوليسس أعرفك بمستر ويلى جروجان .

فقال مستر جروجان : أوه اننا أصدقاء قدامى . . انه كان يتفرج على وأنا أعمل .

فحرك يوليسس راسه موافقا، وقال سبانجلر وهو ينصرف : سأشرب كأسا وأعود حالا .

ـ ١٥ ـ

فتـاة على الناصية

استـدار سبانجلر خارجا ولـكنه توقف عنـد صـندوق المكالمـات التليفونيـة وقد بدأت أجراسه تدق رسـالة جـديدة وتطبعها في الآن نفسـه على الشريط . وذهب سـبانجلر الى الآلة عند منضدة التوزيع وراح يتأمل الرسالة على الشريط ، ثم قال لجروجان : انها من مصـانع نبيذ ايتاكا هنالك في المزارع . ولكن اذا عاد هومير ، فاستبقته حتى نتلقى اشارة المساء من « زبيب الشمس » ... لقد استطاع هومير الى الآن أن يصل اليهم مرتين قبل ساعتى شركة وسـترن يونيون التى تنافسنا ، ولو اسـتطاع أن يفعـل ذلك مرة أخـرى فان أرباح هذا الشهر سـتكون طيبة فعـلا ! كم اشـارة تلقيناها بالامس ؟

فقال جروجان : سبعا وستين برقيـة من ثمان وسـتين اشارة . . . صبينا وصل الاول فحصل على البرقيات جميعها الا

واحدة ، والثانى حصل على برقية واحدة .. هذا حسن .. سأذهب الآن لاشرب الكأس .

ولكن الصندوق بدأ يدق اشارة جديدة : نقطة ، نقطة . خط نقطة نقطة نقطة . وعندما سمع مدير المكتب النقطتين الاوليين أدرك مباشرة أن الاشارة من « زبيب الشمس » غير أن هومير لم يكن بالمكتب ليذهب فيتلقى البرقية ، فصاح سبانجلر قائلا لجروجان : سأذهب أنا وأتسلمها قبل أى أحد آخر .

وفى الوقت الذى تكررت فيه الرسالة ثلاث مرات كان سبانجلر قد كاد يصل الى الناصية الثانية بعد المكتب ، عاديا فى الطريق مخترقا جماعات الناس متجنبا اياهم ، وكأنه عداء يجرى بالكرة فى الملعب . ولما أصبح على بعد ثلاثين ياردة تقريبا من الناحية ، رأى أمامه فتاة فى الثامنة أو التاسعة عشرة تقف وحيدة وحجلة ومتعبة وعند به مستكنة رائعة . كانت تقف منتظرة العربة التى ستحملها الى بيتها بعد نهار من العمل . وبالرغم من أن سبانجلر كان متعجلا يجرى فقد كان من المستحيل عليه ألا يلحظ وحدة الفتاة والا يحس فى هذه الوحدة عزلة تافى الوجود كله . واقترب من الفتاة حرا خفيفا دون أن يفكر أو يقصد التهريج ، وتوقف لحظة أمامها ثم قبلها فى خدها . وقبل أن يبتعد عنها عاديا قال لها : أنت أجمل امرأة فى هذا العالم . كان هذا هو الشىء الممكن الوحيد الذى يستطيع أن يقوله لها .

وواصل سبانجلر جريه ، فلما وصل الدرج فى مبنى شركة « زبيب الشمس » راح يرتقيه قافزا على الدرجات ثلاثا ثلاثا . أما ساعى شركة الوسترن يونيون فقد تعطل فى بدء رحلته أمام الكاتب الذى يتلقى الرسائل عندهم لانه لا يعرف أماكن الاشارات كما يفعل سبانجلر . ولما وصل هذا الاخير مكتب الشركة حيث يتسلم البرقيات كان ساعى الوسترن يونيون مازال يترجل من على دراجته وبدأ ينتظر المصعد ليحمله الى المكتب .

وعند المكتب ، أمام المرأة العجوز ، وقف سبانجلر وأعلن اسم شركته وكأنه مازال ساعيا بوست تلجراف ، فصاحت

المرأة العجوز مسرورة دهشة :انت ياتوم ! أوما زلت تعمل ساعيا

ـ « يظل الساعى طول عمره ساعيا .

ولم يبد على سبانجلر أنه ارتبك أو خجل من ملاحظتها التى لامعنى لها ، ولكنه ابتسم للمرأة العجوز وقال : « غير أننى قبل أى شيء آخر قصدت أن أراك أنت يامسز بروكنجتون » ودخل ساعى الوسترن يونيون المكتب صائحا :وسترن يونيون»

فقال مسز بروكنجتون :هارى .. لقد سبقوك هذه المرة أيضا ، ولكنها ناولته،عطفا عليه،برقية واحدة وقالت : أرجو لك حظا أسعد فى المرة القادمة ! .

واحس ساعى الوسترن يونيون الصغير بشيء من الارتباك والحرج ، لالانه قد سبق هذه المرة أيضا ، بل لان من سبقه هو مدير مكتب البوست تلجراف نفسه ، فأخذ من المرأة العجوز البرقية قائلا : شكرا لك على أية حال يامسز بروكنجتون .. وخرج مغادرا المكتب .

وجمعت مسز بروكنجتون حزمة كبيرة من البرقيات وناولتها لسبانجلر وهى تقول : « هذا كله لك أنت ياتوم ، مائة وتسع وعشرون برقية ليلية الى جميع أنحاء القطر .. ثمنها جميعا مدفوع » .

فقال سبانجلر : مائة وتسع وعشرون . ان أرباحى هذا الشهر ستكون طيبة . وانحنى فوق الحاجز الذى يفصل بينها وبينه وقبل المرأة العجوز .

فصاحت مسز بروكنجتون :توم ! .. ماهذا ؟ ..

ـ أوه .. لاتكونى قاسية على . لقد ظللت أريد أن أقبلك منذ رأيتك هنا أول مرة .. أتذكرين؟ نعم منذ عشرين سنة .. وأنت تزدادين جمالا سنة بعد أخرى .

فقالت المرأة العجوز : أوه ، لاتكن قاسيا فتعبث بامرأة عجوز .

ـ عجوز ؟ ٠٠ أنت ؟ ٠٠ لا ٠

فردت مسز بروكنجتون : أوه توم ٠٠ انك ظريف ٠٠ وسعاتك جميعا كذلك ٠٠٠ ولكن أين الساعى الجديد ؟

ـ هومير ؟! ٠٠ أتقصدين هومير ماكولى ٠ انه سيجيئك هنا كل يوم ٠٠ دائما ٠٠ قبل أى ساع آخر ٠ لقد تعطلنا قليلا اليوم عصرا لان أخاه يوليسس قد حدث له حادث ، اذ وقع فى فخ عند محل كوثنجتون واضطر هومير أن يذهب ليخلصه ، ولكنك سترينه دائما من الآن فصاعدا ٠٠٠ وتوقف لحظة يبتسم للمرأة العجوز ، ثم قال : « الى اللقاء يا أميلى » ٠

ـ أوه ٠٠ انك مازلت تذكر اسمى ٠٠ هذا ظرف منك زائد ٠

وأحس فى الطريق أنه سعيد يغمره الرضا بكل شىء ٠٠ كان سعيدا راضيا لان هومير قد خلص أخاه من الفخ ، ولأن جروجان مازال قادرا على أن يعمل بالرغم من تجاوزه سن المعاش ، ولأن يوليسس هناك فى المكتب واقفا يتفرج مأخوذا ، وأن أوجى حريص على أن يكبر سريعا كى يصبح ساعيا ، بل كان راضيا حتى عن ديانا ستيد ٠ غير أن رضاه وفرحته بالفتاة الواقفة على ناصية الطريق تنتظر العربة كان أكبر وأعمق من رضاه وفرحه بهذا كله ٠ وعندما بلغ المكان الذى كانت تقف فيه تمهل قليلا وراح يحدث نفسه : « كانت تقف هنا تماما ، وأغلب ظنى أننى لن أراها أبدا مرة أخرى ، بل حتى لو حدث ذلك فلن أراها أبدا كما رأيتها اليوم فى العصر » ومضى هابطا الطريق يصفر لنفسه حتى أصبح فى مواجهة محل كوربيت ٠ وبلغ سمعه من المحل نغمات البيانو تلعب الفالس القديم : « كل ما أتمناه أنت » ، فعبر الطريق حتى بلغ الباب الدائرى لبهو المحل وتوقف هناك لحظة ثم نفذ داخلا ٠٠ ووجد وراء الباب كوربيت نفسه واقفا ، فلما رأى سبانجلر ذهب مباشرة يعد الشراب الذى اعتاده ، كأسا من السكوتش وكوبا من الماء ٠

وقال سبانجلر : هاللو رالف ٠٠ كيف الحال ؟ والقى نظرة

خاطفة على جنود ثلاثة كانوا جالسين عند البيانو يستمعون الى الموسيقى .

وأجاب كوربيت : ليس رديئاجدا ولا طيبا جدا .. عملاء كما ترى .. جنود لديهم متسع من الوقت وقليل من المال . اننى أبيعهم كل ثلاث كؤوس بثمن الكأس الواحدة ، فاذا ما عرفت أنهم أفلسوا آخر الليل واستعدوا للانصراف أعدت لهم نقودهم .. نعم .. لم لا ؟

فقال سبانجلر : ولكن هل تتحمل ميزانيتك هذا ؟

ـ لا .. ولكن ماأهمية هذا ؟ قد أستطيع بعد الحرب أن أسترجع شيئا ، فأنا لاأستطيع أن أكون مجرد بائع على بار .. أنت تعرف من هو كوربيت الصغير .. وتوقف لحظة يتذكر شيئا يزعجه ويهمه . ثم استأنف حديثه : بالامس ياتوم ، كنت أقف كالعادة على البار ليلا أحاول أن أسير الامور ، واذا برجل أخرق متهور يصيح على : « أنت يامهووس ، هات لى كأسا أخرى » .. ولم يكن الرجل جنديا ، بل كان من هنا من ايتاكا . فنظرت أنا حولى وتلفت عسى أن يكون أحد غيرى وراء البار ، ولكن لم يكن هنا الا اياى . فقلت له : « أتقول مهووس ؟ أتتكلم الى أنا » فقال الرجل : « لمن اذن ؟ أتحسبنى أكلم نفسى يامهووس » .. وقلت لنفسى : ماذا أفعل الآن ، اننى أستطيع أن أضرب الرجل فقد كنت ملاكما ، ولكننى ذهبت اليه وأمسكت به هكذا .. وقبض كوربيت بيده على ياقة سبانجلر ورفع يده الاخرى مفتوحة عالية ، وانتظر لحظة من الغضب والثورة ، ثم قص عليه ما قاله للسكير الشرير بالامس : أتعرف الى من تتحدث ، انك تكلم كوربيت الصغير ، لو صفعتك صفعة واحدة فستقع على الارض وتموت .. وأنا لا أريد أن يموت أحد هنا فى محلى . اخرج حالا واياك أن تعود ، واياك أن تجعلنى أراك هنا مرة أخرى طالما أنت حى . وعندما تخرج من هنا أشكر ربك أنك مازلت حيا ..

وترك كوربيت ياقة سبانجلر ويداه ترتعشان من الغضب ، واستمر يقول : « وظلت يداى ترتجفان طوال الليل بعد ذلك .

غير أن هـــذه ليست أول ليلة يحدث فيها مثل ماحدث بالامس. ان شيئا من هـذا النوع يحدث كل ليلة تقريبا . وفى كل مرة أقول لنفسى : « كفانى من هذا. لابد أن أغلق هذا المحل وأن أمضى بعيدا » .. لقد أصبحت أخشى وأرتعد من أن أفقد صوابى فى ليلة من هذه الليالى وأن أقتل رجلا . ان عمل البارات ليس عملا سهلا ، وقلبى فيما أعتقد أطيب من أن يكون قلب بائع على بار » .

وظل مدير مكتب التلغراف والملاكم السابق يتحدثان سويا خمس دقائق أخـــرى ، ثم قام سبانجلر عائدا الى مكتبه ، وعندما كان يغادر بهو المحل كان الجنود الثلاثة مازالوا يديرون البيانولا ، وكانت الاغنيـة هذه المرة هى أغنية « البراعم البيض» وقد انحنى الجنود على الشريط يرقبون الـــكلمات وهى تنساب من الآلة ويحاولون أن يغنوا مع الموسيقى . ووقف سبانجلر يستمع اليهم قليلا ، فعلى الرغم من أن أصواتهم لم تكن بالجميلة حقا ، فليس فى الشـــعور أو الاحساس وراءها شىء قبيح أو ردىء .

- ١٦ -

سأعود بك الى البيت

دخل توماس سبانجلر مدير مكتب بوست تلجراف ايتاكا بكاليفورنيا فى هدوء مكتبه ٠ورأى عند مكتب التوزيع الاخوين ماكولى ،هومير ويولسيس ، وقدشغل هومير بطى البرقيات ووضعها فى الظروف ، على حين وقف الاخ الصغير يرقب أخاه فى اعجاب هادىء ٠ والتفت الساعى الى رئيسه قائلا :

ـ هل لحقت بشركة « زبيب الشمس » يامستر سبانجلر ؟

ـ نعم ياهومير ٠٠وأخذت مائة وتسعا وعشرين برقية ٠
ووضع أمامه البرقيات يريهاله ٠

فقال هومير متعجبا : مائة وتسعا وعشرين ٠٠ كيف سبقت الآخرين الى هناك ؟

ـ جريت ٠

ـ أتعنى أنك سبقت شركة وسترن يونيون حتى مبنى «زبيب الشمس » جريا ؟

ـ طبعا ، وما الغرابة فى هذا؟ بل اننى توقفت فى الطريق أحيى الجمال والبراءة !! ..

ولم يستطع هومير أن يفهم اشارته ، فاستمر سبانجلريقول:

« من الافضل ألا أشرح لك هذا . خذ أنت يوليسس الى البيت الآن . »

ـ حسنا ياسيدى ... لقد تسلمنا اشارة من جوجنهيم ، وسأمر عليهم وأنا فى طريقى بعد أن أحمل يوليسس الى البيت ، ثم أذهب الى مصانع نبيذ ايتاكا فمحل فولى بعد ذلك وأعود مباشرة . سأكون هنا فى لمح البصر .

وغادر الساعى المكتب ووضع أخاه على مقدم دراجته حينما وقف سبانجلرير قبهما .. وقفز هومير على الدراجة وبدأ يحركها منحدرا فى الطريق . وعندما أصبحا فى خارج حدود المدينة التفت يوليسس لينظر الى أخيه ، وانفرجت أساريره لاول مرة طيلة هذا النهار عن بسمة ماكولى الشهيرة .

ـ هومير ؟

ـ ماذا تريد ؟

ـ انى أستطيع أن أغنى !

ـ برافو .

وبدأ يوليسس يغنى «سنغنى أنشودة » ولكنه توقف ليبدأ من جديد « سنغنى أنشودة » . وتوقف مرة أخرى وعاد يكرر « سنغنى أنشودة » .

قال هومير : ولكن ليست هذه انشودة يايوليسس ، انها جزء صغير فقط ، استمع أنت الآن لى ثم غن بعد ذلك معى ، وبدأ الاخ الاكبر يغنى والصغير ينصت :

« كفى بكاء ياسيدتى .. أوه .. كفى اليوم بكاء !

فسنغنى انشودة لبيتنا القديم فى كنتكى !

لبيتنا القديم فى كنتكى ، هناك بعيدا ! »

وقال يوليسس : غنها مرة أخرى ياهومير .

ـ فليكن !

وبدأ هومير يغنى من جديد ، ولكن أخاه الاصغر أشترك معه فى الغناء هذه المرة . وتراءى ليوليسس وهو يغنى، ذلك الزنجى فى فطار البضاعة وقد انحنى على جانب العربة الاخيرة يبتسم ويلوح له . كان هذا أروع ما حدث ليوليسس ماكولى طوال سنواته الاربع فى هذا العالم . نعم أن يلوح لرجل فيلوح له الرجل ويرد على تحيته ... ويفعل ذلك لا مرة واحدة بل مرات كثيرة ، انه لن ينسى ذلك أبدا طالما هو حى .

وترجل هومير أمام بيت ماكولى وأنزل أخاه باحتراس ورعاية الى الارض ، ووقفا معا لحظة يستمعان الى صوت البيانو والقيثارة تلعب عليهما أختهما وأمهما . لقد راحت تغنى لهما جارتهما مارى أرينا .

وقال هومير :هيه يايوليسس .. ها قد وصلت البيت فادخل أنت اذن ، اذهب فماما وبس ومارى هناك .. وسأعود الى العمل .

ـ ستعود للعمل ؟

ـ نعم ، ولكنى سأعود الى البيت فى الليل .. اذهب .. ادخل أنت يايوليسس .

وبدأ الاخ الاصغر يرقى درجات الشرفة ، فلما وصل الى الباب اعتلى هومير دراجته وركب منحدرا فى الطريق .

- ١٧ -

الجنود الثلاثة

بينما كانت أسرة ستيد وضيوفهم وتوماس سبانجلر قد جلسوا يتناولون العشاء ، كانت السماء تمطر مطرا شديدا على إيتاكا . الا أن بس ماكولى وماري أرينا كانتا في طريقهما الى مكتب التلغراف وقد ارتدتا معاطف المطر والاحذية العالية وحملتا صندوقا به طعام هومير . ولما عبرا محل البومة العجوز مرا بشاب يقف على باب المحل راح يلقى عليهما نظرات الغزل النهم قائلا : هيه . ياحلوة .. ماذا فى يدها ؟

وتجاهلت بس الشاب والتصقت بمارى وسارتا معا تصعدان الطريق ولكنهما وجدتا نفسيهما تتجهان صوب جنود ثلاثة وقفوا يلعبون فى عرض الشارع . كان الجنود الثلاثة قد ارتجلوا لانفسهم لعبة يعبرون بها عن سعادتهم بحريتهم هذه الليلة وعن فرحهم بالدنيا النبيلة المضحكة وبملهاتها الخالدة، وعما

يشعرون به من غبطة بهذا المطر المنعش المتساقط . كانوا يتدافعون ويتعقب كل منهم الآخر ، فتنطلق منهم ضحكات حرة لايقيدها شيء، ويتصايحون بالكنى التى اطلقها الواحد منهم على الآخر ، السمين وتكساس والحصان . ورأى الشبان مارى وبس فردوا حركاتهم ولعبهم الى وقفة صامتة عابدة ، وراحوا ينحنون واحدا بعد الآخر مبالغين فى الانحناء والتحية. وعلى نحو ما سر المنظر الفتاتين ولكنهما ترددتا، ماذا يجدر بهما أن تفعلا، وماذا يجب أن يكون موقفهما منهم .

وهمست مارى : ليسوا يابس الا جنودا غرباء عن بيئتهم!

فقالت بس : فلنقف اذن .

وتوقفت الفتاتان تواجهان الجنود ، فتقدم الذى يدعونه السمين وخطا خطوة ناحيتهما، وكأنه المتحدث الرسمى باسم جماعته أو مبعوث الجنود لفتيات أمريكا ، وقال لهما :

ـ سيداتى ، نحن خدمكم المتواضعون ، من جنود الجيش الديمقراطى العظيم ، نقف الآن ـ ونحن اليوم هنا ونأمل غدا أن نكون هنا ـ متقدمين لكم بالشكر على هذه الوجوه التى احتفظت بجمالها فى أيام الجفاف وفى أيام المطر هذه على السواء . ولتسمحا لى أن أقدم زملائى المعجبين المخلصين ـ هذا أطلق عليه لقب « تكساس » وهو من أهل نيوجرسى ، وهذا سمى « الحصان » وهو من أهل تكساس ، أما أنا « السمين » ـ فبلدى الجوع . غير أننى ماجعت قط مثل جوعى الآن لصحبة فتيات أمريكا الجميلات ، فما قولكما فى هذا ؟

فقالت بس : لقد كنا ننوى الذهاب الى السينما .

فصاح السمين بلهجة مسرحية : الى السينما.. هل لنا نحن الجنود ، سواء بقينا اليوم هنا او ذهبنا غدا ، أن نصحبكما ، أنتما يابنات امريكا ، الى السينما؟ انما اليوم هو اليوم وغدا هو الغد ، غير أننا فى الغد عائدون الى ثكناتنا والى الحرب ، هذا الامر البشع الضرورى وتلك المهمة المقدسة، لنقضى على مافى الانسان من جراثيم فتاكة تحاول أن تودى بروحه الحرة . فلتكن

لكم الليلة اخوة افتقدوا دفء النار فى بيوتهم واستشعروا الوحدة فى انفسهم . نعم ، اننا سعداء فخورون ولكنا وحيدون غرباء، فليست ايتاكا موطننا . لقد دخلت انا اخطر فى حلة الجندى الامريكى هذه وتركت ورائى شوارع مدينة شيكاغو المتوحشة وشعب ولاية ايللينوى الكريم . فهل لكما ان تردانى بالذكرى الى تلك المدينة وذاك الشعب، وان ترجعا بكل من اخوتى الأعزاء هؤلاء الى أوطانهم العزيزة . انظرا بعين العطف والكرم لطلبنا هذا المتواضع ، فنحن ابناء اسرة واحدة هى البشرية، ولم نكن لنلتقى ابدا لولا هذه الحرب !!.. لقد رقت لحظتنا هذه ولطفت ، فهى صنيعة اعذب القرون والطفها !!..

وانحنى السمين لهما ثم اعتدل فى وقفة عسكرية وقال : علام استقر الرأى ؟

فهمست مارى : أهو مجنون ؟

فقالت بس لا ، انه يشعر فقط بالوحدة ، فلنذهب معهم الى السينما .

فأجابت مارى : لا مانع .. ولكن قولى لهم انت ذلك ، فلست ادرى ماذا اقول .

والتفتت بس الى الجندى وقالت : لا مانع .

فقال السمين : « شكرا لكما ، شكرا » وقدم ذراعه لبسى قائلا : أو نذهب الآن ؟

ولكن بس قالت : على ان احمل أولا لأخى طعامه ، انه يعمل فى مكتب التلغراف ولن يستغرق هذا دقيقة واحدة .

فقال السمين : تلغراف ؟ اسارسل اذن برقية.. — والتفت الى الآخرين صائحا : وانت يا تكساس ؟

فقال تكساس : اتعرف كم تتكلف البرقية الى نيوجرسى ؟

فأجابه السمين : لن تتكلف ابدا قدر قيمتها لهم.. — والتفت الى الجندى الثالث والحصان ؟

فقال الحصان : نعم سارسل انا لآخر برقية لأمى وجو ..

وكيتي ..ـ والتفت الى بس مكملا: فتاتي.. فعلق السمين قائلا : « كل فتاة في العالم هي فتاتي . ولما كنت لا استطيع ان ارسل برقيات لكل واحدة منهن فسأرسل البرقية لواحدة فقط، سأرسل في برقيتي الواحدة ملايين البرقيات » .

كان ويلي جروجان عامل البرق الهرم يجلس وحيدا في المكتب عندما دخلت عليه الفتاتان والجنود الثلاثة . وتقدمت بس الى المنضدة الطويلة التي جلس وراءها الرجل ووضعت صندوقها عليها ثم قالت : « انابس ، أخت هومير ، أحضرت له طعامه » .

فقال جروجان : كيف الحال يامس ماكولي . ان هومير سيعود حالا ، وسأسلمه غداءه .

وأضافت بس : هؤلاء الشبان يريدون ان يرسلوا برقيات .

فقال جروجان : حسنا .. خذوا املأوا هذه .. واليكم الأقلام .

وسأله تكساس : كم يتكلف ارسال البرقية الى مدينة جرسي؟

ـ الخمسة والعشرون كلمة بخمسين سنتا ، تضاف اليها ضريبة بسيطة . ولكن الامضاء والعنوان لايدخلان في العدد ، وتسلم البرقية غدا صباحا .

فقال تكساس : خمسون سنتا فقط ، هذا جميل جدا « وشرع من فوره يكتب برقيته » .

وسأل الحصان : والى سان انطون ؟

ـ نصف ثمنها الى مدينة جرسي ، فسان انطون اقرب لايتاكا من جرسي .

اما السمين فقد كان مشغولا يكتب برقيته ، فلما فرغ منها ناولها لجروجان الذي راح يقرأها وهو يعد الكلمات :

« اما دانا

طرف، جامعة شيكاغو

شيكاغو . ايللينوى

عزيزتى ، أحبك وافتقدك ، وأفكر فيك دائما . استمرى فى الكتابة. الف شكر على الصديرى. أتعلم الآن الاقتصادالسياسى حقا . سنعود الى جبهة القتال قريبا جدا . لا تنسى ابدا ان تذهبى الى الكنيسة كل احد وان تصلى من اجلنا . انا سعيد . واحبك .

نورمان »

وجاء من بعده تكساس فناول جروجان برقيته :

« مسز اديث أنطونى

١/٢ ١٧٠٢ شارع ولنجتون

مدينة جرسى ، نيوجرسى .

أمى العزيزة . كيف أنت ؟انى مرتاح . تسلمت خطابك وصندوق التين . شكرا . لاتنزعجى على شىء ، الى اللقاء ، مع حبى .

برنارد »

وجاء دور الحصان فناول العامل العجور برقيته :

مسز هارفى جيلفورد

٢١١ طريق ساندىفورد

سان أنطونيو ، تكساس .

هللوا ى . اردت فقط أن أحييك من كاليفورنيا المشمسة. ولكن السماء تمطر ، ها .. ها . بلغى تحياتى للجميع . تولى لجو يأخذ بندقيتى والرصاص . لاتنسى أن تكتبى .

كونتين »

وغادر الجنود والفتاتان المكتب ،وذهب مستر جروجان الى منضدته يرسل البرقيات .

وتقدم الجنود الثلاثة والفتاتان الامريكيتان فى الممشى الرئيسى بدار السينما وقد ظهر على الشاشة ونستون تشرشل ، رئيس وزراء بريطانيا بفضل الله فى عام ١٩٤٢ واقفا أمام أعضاء البرلمان الكندى . ولما وجد الشباب لأنفسهم مقاعد واستقروا فيها كان مستر تشرشل قد قال ثلاث كلمات ، واحدة بعد الأخرى ،

أثارت موجة متزايدة من الفرح والسرور بين أعضاء البرلمان الكندى ورواد سينما ايتاكا سواء بسواء .

وانحنى السمين على بس قائلا . انظرى ، هذا واحد من أعظم رجال زماننا .. ومن أعظم الامريكيين كذلك .

فقال الحصان : كنت أعتقد أن تشرشل انجليزى .

فأجاب السمين : طبعا .. ولكنه أمريكى كذلك ، فمنذ الآن فصاعدا سيصبح كل رجل فاضل أمريكيا ... وتحرك مقتربا قليلا من مارى أرينا ، الفتاة على الناحية الاخرى الى جانبه ، وقال لها : ألف شكر على أنك سمحت لنا بالمجىء الى السينما معكم ! ! ان قرب البنات أحلى . وهذه الرائحة الجميلة أفضل من أن يظل المرء يشم روائح الجنود فحسب .

فقالت مارى : كنا سنذهب الى السينما على أية حال .

وظهر الآن فى شريط الاخبار فرانكلين ديلانوروزفلت ، الرجل الذى يرأس الولايات المتحدة ، وهو يذيع بالراديو على الامة خطابا من بيته فى هايدبارك . وراح الشباب الخمسة يستمعون اليه فى اهتمام وهو يتحدث بطريقته المألوفة مازجا الجد بالفكاهة ، ولما فرغ الحديث اندفع الحاضرون جميعا يصفقون .

وقال الحصان : وهذا أعظم أمريكى بينهم جميعا . وظهر فى هذه اللحظة العلم الامريكى فبدأ عدد كبير من الحاضرين يصفقون من جديد .

وقال تكساس : وهذا أعظم علم فى العالم .

فالتفت السمين الى بس وقال : أنا لا أدرى لم هذا ... ولكن المرء لا يبدأ بحب وطنه حقا حتى يراه فى ضبق ، أما قبل ذلك فهو كأسرته شىء حوله مفروض لا يفكر فيه .

فقالت بس : لقد أصبحت أحس الآن كأن شيئا يقف فى حلقى كلما رأيت العلم !! كنت قبل ذلك أذكر به واشنجطون أو لنكولن ، أما الآن فهو يذكرنى بماركوس أخى ، انه جندى أيضا .

فصاح السمين : أوه .. الك اخ فى الجيش ؟

ـ نعم .. كان فى كارولينا الشمالية عندما كتب لنا آخر مرة.

فقال السمين : « أعتقد أن هذا العلم يجعل كل واحد يفكر فى أقرب الناس اليه وأعزهم لديه. أنه يجعلنى أذكر شيكاغو بكل ما فيها ، الطيب والردىء ، انه يذكرنى بأسرتى وفتياتى .. أشياء كلها جميلة .. ويذكرنى بالسياسة وأحيائها الفقيرة ، وهى رديئة قبيحة ، ولكنى احبها جميعا ، وأعتقد أننا سنتخلص يوما ما من هذه الاحياء الفقيرة ومن السياسة أيضا . »

فقالت بس : لاأظن ان عندنا هنا فى ايتاكا أحياء فقيرة فالناس فقط هم الفقراء ، وعلى الرغم من أن لنا فى المدينة حكومة فلا أظن أن لدينا من شئون السياسة ما نتحدث عنه . وأسرتى على أية حال لا تهتم بمثل هذه الامور ، فنحن نحب الموسيقى ، وأكاد أجزم أن أخى ماركوس يعزف الآن فى مكان ما على الاكورديون .

كان أخوها ماركوس فى الواقع جالسا فى هذه اللحظة فى بار اسمه « قاذفة القنابل » بمدينة صغيرة من مدن كارولينا الشمالية ، وقد جلس معه صديقه توبى جورج وثلاثة جنود آخرين . وراح ماركوس يعزف لهم أنشودة اسمها « الحلم » وبدأ توبى يغنى على حين قام جنديان آخران يرقصان فى البهو مع فتاتين لا تكادان تفترقان عن مارى وبس . ولما أنتهت الانشودة جلس توبى الى جانب صديقه ماركوس وسأله أن يزيده من الحديث عن ايتاكا وعن أسرة ماكولى هناك .

وبينما كان ماركوس ماكولى يحادث صديقه توبى جورج عن ايتاكا ، كان توماس سبانجلر وديانا ستيد يسيران متقدمين فى الممشى بدار السينما بايتاكا وقد بدأ الفيلم الرئيسى يظهر على الشاشة . ولما استقرا فى مقعديهما كانت الشاشة لم تظهر عليها الصور بعد ، بل مازالت مليئة بكل هذه الكلمات التى تسمى الفيلم وجميع أولئك الذين شاركوا فى صنعه . وكانت الكلمات كثيرة جدا تذكر أسماء عدد ضخم من الناس وتنسب لهم أمجادا كبيرة ، وقد صاحبها نغم فيه فخامة وعظمة لا تليق بما يذكر من جهود ، وان كان قد ألف ووقع خصيصا لهذا .

وجلس سبانجلر وديانا فى الصف الثالث قريبين جدا من الشاشة وعلى بعد عشرة صفوف من بس وماری والجنود الثلاثة . وجاءت جلستهم فى صف ليس بين الجالسين فيه الا أطفال صغار . ولم يلبث أن ظهر على الشاشة أرض بهو كبير فى مستشفى من المستشفيات الحديثة ، فرشت بالمشمع النظيف، وجاء اليهم من الميكرفون فى آخر بهو السينما صوت ممرضة منزعجة فزعة تصرخ فى لهفة زائدة : دكتور كافاناج .. جراحة !! .. دكتور كافاناج .. جراحة !

وما كاد توماس سبانجلر يسمع هذه الكلمات حتى وقف منتصبا على قدميه . لقد شرب خمرا ، وكانت السهرة هامة ممتعة مليئة بالمشاكل التى يبدوأنها تحركت عليه الآن ، فلم يجد هناك ما يدعوه الى أن يتماسك وألا يتصرف على هواه ، وكأنه لايزيد سنا على كل هؤلاء الجالسين معه فى صف واحد .

ـ لسوء الحظ . . لم نحسن اختيار الرواية ... وأخذ بذراع ديانا قائلا : هيا .

فقالت المرأة الشابة : ولكن الرواية لم تنته بعد يا عزيزى .

فجذبها سبانجلر وراءه قائلا : « قد انتهت بالنسبة لى أنا .. هيا »

ومرا بصبى صغير يرقب الشاشة باهتمام زائد ، فقال له سبانجلر : « ستدخل الجنة » والتفت الى ديانا : « هيا .. هيا .. لا تقفى هكذا أمام الصبى »

فقالت ديانا : ولكن يا عزيزى ، أن الرواية ما زالت فى البداية .

ولكن الصبى اتجه الى سبانجلر يسأله : ماذا تقول يا سيدى ؟

ـ الجنة .. !! الجنة ! .. ستدخل أنت هناك .

ولم يتأكد الصبى أنه فهم ما يقوله له سبانجلر فسأله : أتعرف كم الساعة ؟

ـ لا ٠٠ ولكن الوقت ما زال مبكرا ٠

ـ نعم ، ياسيدى ٠

ولما بدأت المرأة تسير معه فى ممشى الدار قال لها سبانجلر : « سنذهب عند كوربيت فنشرب كأسين ونسمع البيانولا ثم تعودين أنت الى البيت » والتفت ينظر الى الشاشة صاعدا الممشى وهو يسير القهقرى ، ثم قال لها : انظرى ٠٠ انظرى ٠٠ الدكتور كافاناج ٠٠ لا بد أنه سيفعل شيئا بهذه الملاقط ٠٠ أليس من الجائز أن يختلط عليه الامر فينزع بها أحد أسنانه ٠٠ انظرى اليه ! »

وأحست الشابة وهما عند مدخل دار السينما أنها لا تأسف كثيرا على أنها تركت الشريط وهولم يكد يبدأ ، والتفتت لسبانجلر تقول : انك تحبنى ، أليس كذلك ؟ نعم ٠٠ نعم ٠٠ أنى أعرف أنك تحبنى ٠

فقال سبانجلر وهو يكاد يصيح : أحبك ؟ ألم آخذك الى السينما ٠٠ ألم أفعل ذلك ؟

وخرجا الى الطريق يتعجلان الخطو الى محل كوربيت ويسيران قرب المبانى كى يتجنبا المطر ٠

ـ ١٨ ـ

رأى جروجان فى الحرب

كان سبانجلر وديانا ما زالا يجريان تحت المطر الى محل كوربيت ، عندما وصل هومير ماكولى وقد أغرقه المطر الى مكتب التلغراف، فأوقف دراجته ودخل. وراح يستكشف حالة العمل من مكتب التوزيع فلم يجد به اشارات تليفونية تتطلب منه أن يعود ليتسلمها ، ولكنه وجد برقية واحدة عليه أن يوصلها لاصحابها .

وفرغ جروجان من البرقية التى كان يكتبها على الآلة وقام قائلا : « أحضرت لك أختك الغداء »

ـ حقا ؟ لم يكن هناك ما يدعو الى أن تحمل لى طعاما ، لقد كنت أنوى أن اشترى لنا فطيرتين.. . وأخذ العلبة ثم قال : ان فيها شيئا كثيرا .. فهل تأكل معى يا مستر جروجان ؟

ـ لا .. شكرا .. لست جائعا .

ـ حاول أن تأكل شيئا قليلا فقد تنفتح شهيتك .

ـ لا .. شكرا جزيلا . ولكن ما هذا ، انك مبلول تماما .. اسمع .. عندنا هنا بالمكتب معاطف للمطر . فقال هومير وهو يقضم لقمة من الساندويتش: نعم .. ولكنى فوجئت بالمطر ساكل هذا الساندويتش فقط ثم أوصل البرقية . وراح يلوك اللقمة في فمه لحظة ثم نظر الى عامل التلغراف الهرم يسأله : مانوعها ، هذه البرقية ؟

ولم يجب مستر جروجان فأدرك هومير أنها واحدة أخرى من رسائل الموت ، فتوقف أسنانه عن مضغ الطعام وبلع لقمته جافة صحيحة ، وقال : « كم أود ألا أصطر لايصال مثل هذه البرقيات » .

فقال مستر جروجان فى هدوء: « نعم » وظل ساكتا لحظة وهومير يمسك فى يده الساندويتش لا يستطيع أن يقضمه من جديد ، ثم عاد يقول له : « هيا يا بنى .. كل .. كان مع أختك فتاة أخرى جميلة جدا »

ـ أوه .. هذه مارى ، انها جارتنا .. وهى فتاة ماركوس ، أخى الذى فى الجيش ، انهما سيتزوجان بعد الحرب .

ـ وجاء مع مارى وأختك ثلاثة جنود أرسلوا برقيات من هنا .

ـ صحيح ؟ وأين البرقيات؟

فأشار مستر جروجان الى الفجوة التى يضعون فيها البرقيات المرسلة فأخرجها هومير وراح يقرؤها واحدة بعد الاخرى ولما فرغ منها رفع عينيه الى عامل التلغراف الهرم وقال :

ـ لو أن واحدا مات من هؤلاء فهل يخفف وقع الامر على نفسك أنك تعرفه أو لا تعرفه أو أنك حتى لم تره أبدا ؟ اننا هنا فى ايتاكا فحسب ، بلد صغير واحد من بلاد أمريكا العديدة ، وهذه البرقيات تذهب الى كل مكان وتصل الى الاغنياء والفقراء وأنواع الناس جميعا ، فهل كل أولئك الذين يموتون ، انما يموتون هكذا من أجل لا شىء ؟

وظل عامل البرق الهرم ينتظر لحظة دون ان يتكلم واحس كان مايريد ان يقوله أكبر وأقسى من أن يخرجه دون عون . فاتجه الى درجه وأخرج زجاجته ثم جرع منها جرعة طويلة وجلس يتأمل الصبى ، ثم قال :

« لقد عشت فى هذا العالم طويلا ، بل ربما عشت أكثر مما يجب . فدعنى أقول لك أن هذا العالم سواء أقامت الحرب أو ساد السلام ، فان ما يقع فيه لا يتم هكذا اعتباطا ، وعلى الاخص فى هذا كله الموت » . وتوقف الرجل الهرم ليبتلع جرعة أخرى ثم قال : « ان الناس جميعا وحدة واحدة ، تماما كما انك أنت وحدة واحدة . وكما ان الشر بماشى الخير فى نفسك كذلك الناس جميعا فى نفوسهم الخير والشر ، امتزجا معا فى كل فرد من ملايين هذه الامم ، نعم حتى فى افراد معنا نحن ايضا . وكما أن الرجل ذا الضمير يصارع الأضداد فى نفسه ، فان هذه الأضداد المتناقضة تتصارع فى مجموع الأحياء جميعا وفى العالم كله ، وعند ذلك تنشب الحرب . ان جسم العالم يحارب أمراضه ليتخلص منها ، فلا تنزعج أنت من ذلك لأن الخير يصمد دائما ويطرد الشر بعيدا كلما ظهر ، وهذا الجسم المريض وتلك النفس المريضة يعودان دائما للصحة والسلامة . ولقد يمرضان من جديد ، ولكنهما يتحسنان دائما فكلما طرد منهما مرض جديد قويت الروح والجسد حتى يبلغا من القوة ما قصد لهما ويتظهرا من شوائب الفناء ، ويزدادا نبلا ولطفا وصفاء فلا يمسهما الفساد بعد ذلك . ان كل انسان فى هذا العالم مصيبا أو مخطئا انما هو يسعى ويحاول » .

وتنهد الرجل الهرم وبدا عليه التعب وواصل حديثه : « نعم ، حتى القاتل واللص يحاولان ، فليس هنالك من يموت اعتباطا . اننا جميعا نموت ونحن نبحث عن الخلاص ، متطلعين الى الخلود ، نريد أن نحقق الحق والعدالة ، ولا بد أن يأتى على الانسانية جمعاء يوم نستطيع فيه نحن جميعا ، فردا فردا حتى آخر واحد فينا ، أن نستقر وأن نسكن فنحصل على نعمة الخلاص ونصبح خالدين ، ويستحيل هذا العالم الشرير الرائع الى مكان تسود فيه السماحة ويسود فيه الخير بين الناس . »

وازداد تنهد الرجل الهرم عمقا وصمت لحظة ثم أخرج من جيب صديريته قصاصة من الورق ناولها للصبى الساعى وهو يقول : هل أكلفك من جديد أن تحضر لى هذا الدواء من الصيدلية ؟

ـ نعم يا سيدى .

وخرج هومير مسرعا من المكتب .

ووقف وليام جروجان وحيدا فى مكتب التلغراف ينظر حوله وقد امتلأ قلبه عطفا على الاشياء جميعا ، ومازج شعوره فورة متوثبة من التودد والمحبة . وامتدت يده فى بطء الى صدره تقبض على موضع قلبه وكأنما كان ينتظر صابرا هذه الازمة السريعة التى لم تعد تفجؤه . وعاد متراجعا الى مقعده ، وجلس جامدة جمودا مخيفا حتى استنفدت الازمة شدتها كلها .

وعاد الساعى من الصيدلية وناول عامل التلغراف العلبة الصغيرة ، فقال الرجل الهرم : ماء .

وملأ هومير كوبا من الورق بالماء وحمله الى الرجل الذى رفع من العلبة الصغيرة ثلاث حبات والقاها فى فمه ، ثم اخذ الكوب من هومير وابتلع الحبوب وقال : شكرا ، شكرا يابنى .

ـ نعم ، ياسيدى .

وراح ينظر للرجل الهرم لحظة ليرى اذا كان سيتحسن أم لا ، ثم اتجه الى مكتب التوزيع والتقط برقية الموت . ووقف برهة ممسكا بالبرقية فى يده ناظرا اليها ، ثم فتح مظروفها واخرج الرسالة وقراها . ولما فرغ منها اعادها الى مظروف جديد ثم الصقه واستدار خارجا من المكتب تحت المطر . وغادر عامل البرق الهرم مقعده وراح يتبع الصبى الى الشارع ، ولكنه وقف على افريز الطريق يرقبه وهو يدفع بنفسه فى الريح والمطر . وبدأ صندوق البرق يدق فى المكتب ولكن الرجل الهرم لم يسمعه . ودق التليفون والرجل الهرم لايسمع ، ولم يستدر الرجل عائدا الى المكتب حتى كان التليفون قد دق سبع مرات طوالا .

- ١٩ -

الى أمى . . مع حبى

وبعد خمس عشرة دقيقة ترجل هومير من على دراجته أمام بيت عتيق جميل اقيم فيه حفل ، ورأى السباعى من فرجات النوافذ أزواجا من الشباب ترقص ، فأدرك انهم جميعا فى الداخل سعداء مرحون، وأحس بنفسه تمتلىء فزعا ومرضا . واتجه الى باب البيت ووقف هناك برهة يستمع الى الموسيقى ، ثم تجرأ فرفع أصبعه الى جرس الباب وترك يده تسقط من جديد الى جانبه . وقال لنفسه بصوت عال : « لا ، سأعود الى المكتب. أستقيل ، أنا لا أريد عملا كهذا» . وعاد فجلس على الدرجات المفضية الى البيت . وبعد أن لبث هناك وقتا طويلا قام مرة أخرى متجها الى الباب وضغط بأصبعه الزر الصغير . ولما فتح الباب ورأى أمامه امرأة شابة استدار هومير دون أن

يدرى ماذا يفعل وعاد جاريا الى دراجته ، ولكن المرأة خرجت وراءه الى الشرفة وصاحت تناديه : « ماذا هناك يابنى ؟ »

فنزل هومير من فوق دراجته وسار فى خطوات بطيئة الى الشرفة وقال للمرأة الشابة : « آسف ياسيدتى .. اننى احمل برقية لمسز كلوديا بوفرير »

فقالت المرأة فى فرح : « انها لى واليوم عيد ميلادها » واستدارت داخلة الى بهو البيت وصاحت : أمى ، هنا برقية لك.

وجاءت أم الفتاة الى الباب وقالت : أوه .. انا متأكدة انها من « الان » . والتفتت الى هومير قائلة : ادخل ، يابنى ، لابد ان تنال قطعة من كعك ميلادى .

ـ اشكرك ياسيدتى ، اننى مضطر ان اعود مباشرة الى العمل .

ومد يده اليها بالبرقية فأخذتها منه وكأنما البرقية ليست الا تهنئة بعيد ميلادها ، وقالت للصبى فى مرح : ماتقوله هراء ، لن تعود حتى تأكل قطعة من الكعك وتشرب كوبا من الشراب . وقبضت على ذراع هومير وسحبته الى الداخل حتى مائدة مليئة بالفطائر والشطائر والشراب ، واستمرت الموسيقى والرقص والمرأة تقول له : « ان اليوم عيد ميلادى يابنى » .

وضحكت قائلة : « رباه انى عجوز .. لابد ان تتمنى لى السعادة يابنى » وناولت هومير كأسا من الشراب ، فبدا هومير يقول : « أرجو لك .. » ولكنه توقف وراح يحاول من جديد « أرجو لك .. » ولم يستطع ان يقول شيئا ، فوضع الكأس على المائدة وخرج مندفعا الى الباب . ونظرت الام حولها ثم اتجهت الى ركن لايراها فيه احد . وتحركت الابنة الى ركن آخر مقابل وهى ترقب امها . اما هومير فركب دراجته واندفع مسرعا خلال المطر عائدا الى مكتب التلغراف . وعلى الحائط فى البهو أمام الام تدلت من اطارها صورة صبى جميل ذى شعر أحمر ، وقد كتب عليها : « الى امى مع حبى ، من الان فى عيد ميلاده الثانى عشر » . وفتحت الام البرقية وقرأتها فراحت تبكى دون ان يرتفع لها صوت ، على حين استمع الحاكى يغنى « انشودة لفتاتى السمراء » ، والجمع السعيد يواصل الرقص على الغناء . وتطلعت الابنة من الغرفة الى امها فى البهو ، ثم انطلقت فجأة وكأنما فقدت صوابها ، فأغلقت الحاكى وصاحت باكية : « أمى » ، واندفعت اليها فى البهو .

- ٢٠ -

انه حظك العاثر لا حظى أنا ..

قذفت السينما بروادها بعدان انتهى العرض الاخير . وفى الطريق التفتت بس الى السمين وقالت : لا بد أن نعود الآن الى البيت .

فقال السمين : « شكرا لكمايا سيدتى » . وحان الوقت أن يتبادلوا التحية وأن ينصرفوا ،ولكنهم مع ذلك وقفوا فى الطريق معا ينتظرون وكان شيئا جميلا رائعا على وشك أن يقع . وراح السمين ينقل النظر بين مارى وبس ثم اتجه فى يسر تام وبراءة كاملة فقبل بس ثم مارى .

وصاح المسمى الحصان : « ونحن ؟ أنا وتكساس ؟ نحن أيضا لسنا نكرات ، اننا فى الجيش كذلك » . وهكذا قبل الجندى بس ومارى هو الآخر وجاء دور تكساس فقبلهما من

بعده . وكانت هناك امرأة في الطريق راحت ترقب المنظر في تقزز مرير ، فاستدارت الفتاتان ومضتا مسرعتين تهبطان الطريق . وقفز الحصان الى أعلى ودفع بتكساس أمامه ، فقفز هذا الاخير أيضا ودفع السمين ، ومالوا جميعا الى جانب الطريق يتصايحون .

وقال الحصان : ياهوه ! . ياهوه ! . أما أنت ياتكساس ! وهذا السمين !

وصاح تكساس على السمين : « كيف يا بنى .. ! كيف استطعت أن تتكلم هكذا كأحسن شيخ فى البرلمان .. السناتور الهرم السمين من جامعة شيكاغو ! »

وضحك السمين يزقزق في صخب وهم ينحدرون في الطريق المظلم متصايحين يقهقهون وهم يتدافعون .

وصاح عليهم السمين : أوه .. عندما أدخل البرلمان .. سأكلمهم حقا كاملا جديا ! .

فصاح الحصان : « يوبى ، أمامى ، أيتها العجول ، انه حظك العاثر لا حظى أنا » (١)

وبدأ الجنود الثلاثة يقفز بعضهم على بعض ، فيتقدم أحدهم وينحنى ، ليقفز عليه الآخران ، ثم يعتدل ليأخذ دوره فى القفز على من تقدم منهم وانحنى ، وهكذا سلكوا الطريق الخالد يقتربون شيئا فشيئا الى الحرب!

---

(١) هذا مطلع انشودة من اغانى الغرب الامريكى كان يغنيها رعاة البقر وهم يدفعونها الى المذابح

ـ ٢١ ـ

عالم أجمل وأناس أفضل

عندما عاد الساعي الحزين من منزل عائلة بوفرير الى مكتب التلغراف كان المطر قد توقف وشع نور القمر وقد راحت قطع من السحاب الخالي المتهالك تساق بيضاء عبر السماء . وأحس الساعي بتعب شديد وهو يدخل المكتب بساقه العرجاء .

وقال له عامل التلغراف الهرم : ماذا جرى لساقك يابني ، انك طوال اليوم تعرج .

ـ أوه لاشيء .. هل هناك برقيات جديدة ؟

فأجاب مستر جروجان : لا ،لاشيء .. وعما قريب تستطيع أن تعود الى بيتك فتنام ، ولكن قل لي ماذا حدث لساقك ؟

فقال هومير وهو يمد ساقه يجربها : « أعتقد انها التوت أو كسرت ، أو شيئا من هذا ..لقد كنت أجري في سباق المائتين والعشرين ياردة، وأظن أن مدرب المدرسة لا يحبني أبدا . ولكنها

كانت غلطتى أنا ، فقد كنت أجرى فى المقدمة ورأيته قادما الى المجرى يحاول أن يوقفنى ، وكنت أستطيع أن أتوقف لو أننى أردت، ولكننى لم أكن أريد ذلك ، اذ ليس له الحق فى أن يوقفنى ، ولهذا قفزت بالرغم منه ووقعنا معا على الارض . وعند ذلك توقف بقية الاولاد جميعا عن الجرى نتيجة لهذا التدخل، فقد قال لهم ذلك ولد اسمه هبرت أكلى الثالث. وهذا الولد لم أكن أنا أبدا أحبه ، فهو من أسرة غنية ومهذب جدا ، والى جانب هذا فان الفتاة التى أحبها أنا، وهى هيلين اليوت.. تحبه هو . وكلما ازدادت تعلقا به ازددت تحرقا وحبا لها. ولكنى أظنها لا تلحظ وجودى أبدا . أوه ، لا ، لا أعتقد أنها تستطيع أن تتجاهل وجودى ، ولكنها تتصور أنى مغرور ، ولا أحسب أنها تحبنى أبدا ، بل من الجائز أنها تكرهنى فعلا ، بالرغم من أنها الشخص الوحيد فى هذا العالم الذى أحبه أكثر من أى انسان آخر خارج أفراد أسرتى. وفى الحقيقة يامستر جروجان أن هذا المدرب الذى اسمه بايفيلد قد يكون طيبا اذا استطعت أن تفهمه ، ولكنى لا أعرف أحدا قد استطاع ذلك . انه دائما يثير المتاعب حوله ، ومس هيكس تقول انه يكذب أيضا .. مس هيكس هذه، هى التى تدرس لنا التاريخ القديم ، وهى تدرس فى مدرسة ايتاكا العليا منذ خمس وثلاثين سنة ، وقد درست لاخى ماركوس وأختى بس ، وبعد أن وقعنا معا قمت أنا طبعا وبدأت العدو من جديد ، وعند ذلك ـ بكل أمانة ـ بدأ الاولاد الآخرون يعدون . وقد أحسست اذ ذاك أن شيئا قد حدث لساقى ولكننى لم أتوقف لارى ما حدث ، فقد كنت أريد أن أفوز فى السباق. وأنا لم أكن أريد أن أفوز لمجرد الفوز ، بل لم أكن أريد حتى أن أهزم أكلى .. أتعرف أننى دهش من هذا الغلام ، فهو الذى أوقف الاولاد عن الجرى عندما عطلنى مستر بايفيلد. وأنا أعتقد أنه ولد طيب ، ولكن كل مافى الامر أن أخلاقه مهذبة أكثر مما يجب . وأقول لك الحق يامستر جروجان ان السبب الحقيقى الذى جعلنى فى مبدأ الامر أريد أن أجرى فى سباق المائتين والعشرين ياردة هو أن مستر سبانجلر قد فاز فى هذا السباق عندما كان فى مدرسة ايتاكا العليا ، ولكن بعد الذى حدث لى ، أصبحت أريد أن أفوز لاجل مس هيكس .

لقد اشتبكت أنا وآكلي ونحن في الفصل في جدال بسيط ، فاضطرت طبعا مس هيكس أن تحجزنا بعد المدرسة . ولكن بايفيلد ، هذا المدرب ، جاء اليها كاذبا وأخذ معه آكلي ولم يخلصني أنا . وقالت لي مس هيكس أنه يكذب كما اعتاد أن يكذب عندما كان في فصل التاريخ القديم ، وتألمت هي جدا من هذا ، وأظن أن كل ما هناك أنها لا تستطيع أن تحتمل هؤلاء الناس الذين يكذبون على هذا النحو . وراحت تتحدث الى ، وحكت لي عن أخي ماركوس ثم قالت لي اذهب الآن واجر في السباق .. ان مستر سبانجلر كان بطل الوادي وأنا أريد أن أكون في يوم ما بطل الوادي كذلك ، غير أني لا أعتقد اننى أستطيع أن أفعل ذلك هذا العام» .

وراح الساعي يحرك ساقه ليليننا مرة أو مرتين ثم قال : « أظن انه يحسن بي أن أدلكها الليلة بشيء من الدهان . هل أنا أعرج بشكل ملحوظ ؟ »

فأجابه مستر جروجان : لا ليس عرجك ملحوظا جدا ، ولكنه قد يلحظ على أية حال . قل لي ، هل تركب دراجتك بسهولة ؟

ـ « أوه طبعا .. انها تؤلمني قليلا وخاصة عندما أرفع ساقي اليسرى ، ولهذا أحرك العجلة برجلي اليمنى فقط وأكاد أسند فقط باليسرى ، وأحيانا أرفعها عن « البدال » وأتركها تتدلى فتستريح في هذا الوضع . لابد أن شيئا قد حدث لالياف الساق . سأدلكها الليلة بالدهان »

وسادت بينهما لحظة من الصمت قطعها عامل البرق الهرم قائلا : لقد تغيرت قليلا منذ جئت تعمل هنا من ثلاثة أيام ، أليس كذلك ؟

ـ اذن قد لاحظت ذلك يا مستر جروجان ؟ .. نعم ، .. أعتقد انى تغيرت فعلا ، لقد كبرت ، وأظن أن الوقت حان لهذا . اننى لم أكن أعرف شيئا أبدا قبل أن أعمل في هذه الوظيفة ، أوه .. لا .. كنت أعرف أشياء كثيرة ولكننى لم أكن أعرفها معرفة كاملة ، وما أظنني أستطيع ذلك أبدا ، بل ما أظن أحدا يستطيع ذلك . فليس هناك ما يدعو ألا أقدر أنا على هذا اذا قدر عليه أحد غيري . ان كل من في مدرسة ايتاكا العليا ، حتى أولئك الذين لا يحبونني ، يعتبرونني أذكى طالب هناك . ولكني لا أرى نفسي ذكيا الى هذا الحد فانا كغيري لا أفهم كثيرا من هذه الاشياء الهامة

جدا ٠ اننى أريد أن أعرف وسأظل دائما أريد أن أعرف ، سأظل أحاول دائما ولكنى لا أعرف كيف أصل الى ذلك ٠ كيف يستطيع أى انسان أن يرى الامور كلها واضحة مستقيمه لها معنى ؟

فقال عامل البرق الهرم: «لا تسلنى كيف يستطيع الانسان أن يعرف فأنا لا أعرف ذلك، ولكننى سعيد أنك قد عزمت على أن تظل تحاول ٠

ـ ولكننى مضطر أن أظل أحاول ٠ اننى يامستر جروجان لا أعرف ماذا يحس به الناس الآخرون ، ولا أعرف اذا كنت أستطيع أن أجعلك تفهمنى أم لا، ولكنى أريد أن أقول لك ، اننى لست مجرد هذا الشخص الذى يراه الناس، ان هناك شخصا آخر بجانبه ٠٠ شخصا آخر أفضل ، وان كنت لا أستطيع أحيانا ان أعرف ماذا أفعل به ٠٠٠

واسترسل الساعى فى حديثه منطلقا ، فقد كان متعبا تؤلمه ساقه ، مرتبكا لانه حمل رسالة الموت لذلك البيت السعيد، مستشعرا متأكدا مع ذلك كله أن هذا العامل العجوز رجل طيب يستطيع أن يفضى اليه : « لا ، لا ماذا أفعل بهذه الافكار الكثيرة التى تجيئنى ، عن عالم أجمل ، وأناس أفضل ، وطريقة للحياة أحسن من هذا » ٠ وتوقف لحظة ثم واصل حديثه : « لو اننى أكلم أحدا غيرك يامستر جروجان لخجلت، ولكنى أحس اننى فى يوم ما سأتحرك للعمل وأحقق شيئا ٠ وعلى الرغم من أنى لا أدرى الآن ماهذا الذى سأحققه الا أننى واثق أنه سيكون شيئا كبيرا ٠ لقد كنت أعيش من قبل وأنا لا أكاد أعرف شيئا أبدا وأقضى وقتى كله وكأننى فى حلم سعيد من أحلام اليقظة !! ان عائلتى جميعها من السعداء ، فنحن جميعا من أولئك الذين يحبون المرح ، ولكننى يامستر جروجان لم أكن أعرف شيئا ٠ أما الآن فقد بدأت أتعلم ٠٠ أتعلم قليلا جدا ، ويوما بعد يوم تزداد معرفتى قليلا قليلا فأدرك شيئا من هنا وشيئا من هناك وأعرف عن هذا أو أفهم من ذاك ٠٠ » ٠

وتوقف الساعى من جديد وراح يختبر ساقه وكأنما يتوقع انها ستشفى وهو يتكلم، فلما أحس بألمها واصل كلامه : «اننى يامستر جروجان لا أستريح لهذه الحالة التى عليها الامور ، ولست أعرف لماذا أريد أن تكون أفضل ، فقد يكون هذا لمجرد

اعتقادى أن من الضرورى أن تكون أفضل . ولكننى أعرف على الاقل شيئا واحدا حتى الآن . . أعرف اننى لا أعرف شيئا ، واننى عزمت على أن أظل دائما أتعلم . سأكون منذ الآن يقظا الاحظ كل شيء وأفكر دائما فى هذا . ولقد يجعلنى هذا أحس أننى وحيد ، ولكنى ما عدت أهتم بذلك ، فاننا وان كنا نحب دائما أن نكون مرحين سعداء الا أننا أيضا ذوو جلد نستطيع أن نحتمل . وليس ما أخشاه الآن هو أن أحس الوحدة فى نفسى أنا ، فقد أصبحت أخشى على أولئك الناس الذين لا يستطيعون الجلد والاحتمال ومع ذلك يجرحون وتملأ نفوسهم الوحدة ، أننى عرفت الآن ما لم أكن اعرفه من قبل ، وتبدى لى أن العالم ملىء بأمثال هؤلاء الناس . أننى لم أعد الآن أهتم حتى ولو أن هيلين اليوت لم تحبنى !! أنا حقا أتمنى أن تفعل ، ولكن ماذا ان لم تحبنى !

أننى أحبها بكل قلبى غير أنها اذا شاءت أن تحب هبرت آكلى الثالث بدلا عنى فلن أدع هذا يؤلمنى . أنه شاب طيب ، وأظن أن فتاة مرفهة مثلها تفضل أن يكون صاحبها شابا مهذبا مصقولا كهبرت آكلى الثالث ، ولست أظن أنى سأكون مهذبا أبدا ، فأنا لا أفعل الا ما أعتقد أنه صواب وما أجد نفسى مضطرا الى أن أفعله . انى فى المدرسة ، أقول أشياء مضحكة كثيرة ، ولكنى لا أقصد بهذا أن أسيء الى المدرسين أو أن أسبب لهم المتاعب . أفعل ذلك لأننى مضطر له ، فكلما تطلعت حولى ورأيت الجميع حزانى مرتبكين ورأيت الامور كلها تسير بطيئة بليدة أو منحرفة ضالة ، وجدت نفسى مضطرا بين الحين والحين الى أن أبعث فيهم المرح . فأنا أعتقد أن علينا أن نستخلص من حياتنا شيئا من الفرح والسرور . ، ولا أظن أننى أستطيع أن أكون مهذبا مؤدبا عن عمد حتى ولو أردت ذلك ، ومادمت لم أقصد فكيف أستطيع ان أكون . »

وراح الساعى يثنى ساقه مرة أخرى متكلما عنها وكأنها ليست منه : « لا بد أن فيها شيئا » . ورفع نظره الى الساعة ثم قال: «الساعة الآن يا مستر جروجان ، الثانية عشرة وخمس دقائق . وأظن أنى سأعود الآن الى البيت وان كنت لا أشعر الليلة بحاجة

شديدة الى النوم . ان غدا هو يوم السبت ، وكان السبت خير الايام عندى ولكنه الآن .. لم يعد كذلك . سآتى غدا الى المكتب فقد أستطيع أن أقدم مساعدة ما» ورفع صندوق طعامه من مكتب التوزيع وهو يقول : « ألا تحب أن تأخذ قطعة ساندويتش الآن يا مستر جروجان ؟ »

فأجاب العامل العجوز : « نعم ، ما دمت قد فكرتنى بذلك يا بنى فأنا الآن جوعان » وأخذ مستر جروجان الساندويتش من الصندوق المفتوح وقضم فيه وهو يقول : « بلغ والدتك شكرى على هذا . »

ـ أوه .. هذا لا شىء .

ـ لا .. أنه شىء كبير .. أرجوك أن تشكرها بالنيابة عنى .

ـ سأفعل يا سيدى .

وترك هومير المكتب عائدا الى البيت .

- ٢٢ -

فلتدع النـور يعم

خلا المكتب الا من وليام جروجان ، فقام يتحرك فى بطء وتراخ، وهو الذى كان فى يوم من الايام شابا يسبق عمال البرق جميعا بسرعته ، ومضى الى المنضدة التى يعمل عليها يرتبها ويزيح الاوراق من فوقها ، وراح الرجل يهمهم لنفسه نغما قديما بقى فى ذاكرته من أيام شبابه الاولى • وبينما هو فى عمله دخل عليه توماس سبانجلر ومضى صامتا الى مكتبه وهو ما زال منتعشا بالجلسة عند كوربيت، متقلا شيئا ما بالخمر التى شربها ، منتشيا بذلك المزيج الفريد من السعادة والدوار العميق الساكن • ونظر متطلعا الى العامل الهرم دون أن يتكلم معتمدا على ما بينهما من تفاهم عميق ، فما أكثر ما جلسا معا ساعة أو ساعتين يعملان دون أن يتبادلا كلمة واحدة • ورفع سبانجلر البيضة التى تجلب له الحظ من فوق كومة البرقيات وراح يتأمل فى دقتها وانتظامها العجيب • ومرت بخاطره فكرة حلوة من فتاته ، فرد البيضة

الى مكانها فوق كومة البرقيات ومط شفتيه كي يتكلم كما تعودت هى أن تتكلم : انك تحبنى أليس كذلك ؟ نعم ، نعم أنت تحبنى ٠

فنظر العامل الهرم الى مدير المكتب وقال : توم ، ما هذا ؟

ـ ويللى ، ماذا تقول فى امرأة شابة تقول لك ٠٠ انظر ٠٠ هكذا ٠٠ أنك تحبنى ، أليس كذلك ؟ نعم ، نعم أنت تحبنى ٠

فقال مستر جروجان : لا أدرى ٠٠ ماذا عساى أقول فى هذا؟

ـ ألا تحب امرأة كهذه يا ويللى ؟٠ ومضى سبانجلر يقلدها من جديد : أنك تحبنى ، أليس كذلك ٠ لقد ظلت طول الوقت تقول هذا ٠

وفرك سبانجلر وجهه كأنما يريد أن يعلو على ما يغمره من سعادة ثم قال : ماذا تنوى أن تفعل الليلة ؟

ـ كالمعتاد ٠٠ اللهم الا أن الليلة ممطرة ٠

ـ وكيف حال الساعى الجديد ٠٠ هل هو صالح ؟

ـ أوه ٠٠ هذا أفضل ساع عرفته ٠٠ ما رأيك أنت فيه ؟

ـ انه أعجبنى منذ اللحظة التى جاء فيها يطلب عملا ٠٠ « أنك تحبنى ، أليس كذلك ؟ » ٠ انه لم يكن يستطيع أن يتخلص من ذكرى هذه الطريقة الحلوة التى تقول بها تلك الكلمات القليلة ولكنه واصل كلامه : أنا مسرور ! انك تحبه ٠ اسمع يا ويللى ، لاتشغل بالك الليلة باغلاق المكتب ، سأفعل أنا ذلك ، فعندى عمل قليل أريد أن أفرغ منه ٠ ألا ترى معى أن اسم هذا الساعى اسم غريب ممتاز ؟ ٠٠ هومير ماكولى ٠ لماذا تظن أن أباه قد أسماه هومير ولم يسمه مثلا توماس أو وليم أو هنرى أو شيئا مثل هذا ٠٠ » ولم ينتظر سبانجلر أن يجيبه الرجل بل استمر يقول : « نعم ، نعم أنت تحبنى » ٠

ولكن جروجان قال : وأخو هومير أيضا اسمه يوليسس ولكن أخته اسمها بس ٠

ـ هومير ، يوليسس ، وبس ٠

ـ ولهم أخ آخر اسمه ماركوس فى الجيش ٠

ـ ماركوس ، هومير ، يوليسس وبس ٠٠ ويللى لم لا تعود الى البيت ؟

ـ « البيت ؟ » . وابتسم مستر جروجان وهو يقول : اذا سمحت يا توم دعنى أبقى هنا معك ،فليس لدى مكان أذهب اليه أو شيء أفعله بعد عملى الا أن أذهب للنوم ، وأنا لا أنعم بالنوم كثيرا ولا أحبه .

فأجابه سبانجلر وكأنما يحدث طفلا صغيرا : اسمع يا ويللى . أنا لا أريد أبدا أن تقلق بالك ، فأنا أعرف أنك منزعج وليس هناك ما يدعو لذلك . أنك لست هرما ولن يحيلك أحد على المعاش . وأنك تعرف تماما أننى لا أستطيع شيئا فى هذا المكتب بدونك . أنك ستعيش حتى تبلغ المائة وستظل تعمل كل يوم فى حياتك .

ـ « شكرا » . وتوقف العامل الهرم عن الحديث برهة ، ثم قال فى صوت خافت : « لقد جاءتنى الليلة الازمة مرة أخرى .. أوه .. لم تكن خطيرة .. وقد كنت أستشعر مقدمها منذ مدة . وكان الصبى معى هنا فأرسلته يحضر لى الدواء . وأنت تعرف أننى يجب ألا آخذه . وأننى على العكس من ذلك مفروض أن أرى الطبيب ومفروض أن أستريح » .

ـ أوه ياويللى .. ان الاطباء لا يعرفون كل شيء .. انهم يفهمون فى المادة أما الروح فلا .. وأنا وأنت نعيش بالروح !!.

وفجأة قال سبانجلر : انت تحبنى أليس كذلك ؟ ان الاطباء جميعا لا يفهمون شيئا الا المادة فحسب . ولكن قد يكون من الافضل على أية حال أن تستريح قليلا .

ـ أوه .. سأستريح يا توم .. سأستريح الراحة الكبرى .

ـ اسمع يا ويللى .. سر الى الناصية حتى كوربيت فخذ لك كأسا واستمع الى البيانو لا قليلا، ثم عد نتذاكر هنا الماضى . أتذكر ولنسكى وتوملنسون ودافنيوز الهرم ؟ أتذكر هارى بول عامل الخط وفرد ماكينتر المجنون وجرى بياتى العجيب ؟ اذهب .. اذهب يا ويللى ، خذ لك كأسا أو اثنتين وتعال نتذكر الايام القديمة .

ـ لكن يا توم ، من المفروض ألا أشرب .. أنك تعرف أنه يجب على ألا أفعل ذلك .

ـ أنا أعرف طبعا أنه من المفروض ألا تشرب ، ولكن أعرف أيضا أنك تحب أن تشرب ، وقديكون ما يحبه المرء أحيانا أهم مما يجب عليه أن يفعله ، فاذهب .. اذهب وخذ لك كأسا .

ـ « حسنا يا توم » وخرج مستر جروجان مغادرا المكتب .

ومنذ ثلاث دقائق مضت كان على الافريز أمام المكتب شاب ظل يروح ويجيء عدة مرات ، ثم دخل المكتب أخيرا ووقف عند المنضدة الطويلة ، فلحظه سبانجلر وقام اليه وقال له وقد تذكره : « أهذا أنت ؟ كنت أظن أنك الآن في طريقك منذ مدة الى بيتك في بنسلفانيا . لقد أرسلت اليك أمك النقود ولم يكن هناك ما يدعو أن تعود لتدفع لي » .

ـ أنا لم آت لأدفع لك ، لقد جئت آخذ من جديد ، وسعل الشاب وهو يقول : ولن أستجديك هذه المرة بل سآخذ منك عنوة .

ـ ماذا جرى لك ؟

فأخرج الشاب من جيب معطفه الايمن مسدسا وحمله في يده المرتعشة وهو يقول: هذا ماجرى لي . غير أن توماس سبانجلر وما زال مخمورا سعيدا لم يستطع أن يفهم الشاب . فعاد هذا يقول له : « هيا .. هيا اعطني النقود .. كل ما عندك هنا من نقود . ان الناس جميعا يقتلون بعضهم بعضا ولن يهمني في شيء أن أقتلك ، ولن يهمني في شيء ان أقتل أنا أيضا . انني الآن ثائر مضطرب ولا أريد أن أثير المتاعب ، ولكنك اذا لم تعطني .. الآن .. كل النقود .. فسأطلق الرصاص .. هيا ، هات النقود .. أسرع »

ففتح سبانجلر الدرج وأخرج النقود من جوانبه المتعددة ثم وضعها جميعا بما فيها من أوراق وقطع معدنية ملفوفة وأخرى مبعثرة وأزاحها جميعا على المنضدة أمام الشاب ثم قال له : لقد كنت أعطيك النقود على أية حال ، لا لأنك ترفع هذا المسدس علي ، بل لأنني أعرف أنك تحتاجها . خذ ، خذ ، هذا كل ما هنا من مال .. خذها جميعا واركب القطار وعد الى البيت .. عد الى حيث

تنتمى .. فأنا لن أبلغ عن السرقة وسأسوى الأمر بنفسى .. انها حوالى خمسة وسبعين دولارا ..

وانتظر سبانجلر حتى يأخذ الشاب النقود ، ولكن الشاب لم يشأ حتى أن يلمسها ، فعاد سبانجلر يقول :

ـ أنا أعنى ماأقول .. خذ النقود واذهب فأنت بحاجة اليها . انك لست مجرما ولست مريضا بحيث لا يمكن أن تشفى . . ان أمك تنتظرك ، فخذ هذه النقود هدية منى اليها ولن تكون لصا اذا أخذتها . نعم .. خذها وابعد هذا المسدس وعد الى البيت . ألق هذا المسدس بعيدا فستشعر أنك تحسنت .

وأعاد الشاب المسدس الى جيب معطفه ، ثم رفع يده التى حملته الى فمه المرتعش وهو يغمغم : أستحق الآن أن أذهب فأطلق الرصاص على نفسى .

ـ « لاتكن أحمق » . وجمع مدير المكتب النقود جميعا ومد بها يده الى الشباب : «هاهى .. هذا كل ماهنا من نقود ، وليس هناك الا أن تأخذها وتعود الى البيت ، واذا أردت .. فاترك معى هذا المسدس .. هذه هى نقودك .. نعم نقودك . فقد رفعت من أجلها المسدس . اننى أعرف شعورك تماما . لقد أحسست به من قبل ، ومر علينا ماأنت فيه الآن . ان القبور والأصلاحيات مليئة بأولاد أمريكا الطيبين الذين عانوا من الحظ العاثر والايام القاسية . انهم ليسوا مجرمين .. » ثم قال له فى صوت حنون :

« خذ .. خذ هذه النقود وعد الى البيت » .

وأخرج الشاب المسدس من جيبه وأزاحه على المنضدة الى سبانجلر الذى أسقطه فى درج النقود المفتوح .

وقال الشاب : « أنا لا أعرف من أنت ، ولكنى أعرف أن احدا من قبل لم يكلمنى كما تفعل أنت . اننى لا أريد المسدس .. ولن آخذ النقود .. وسأعود الى البيت . لقد سألت الناس فى الطريق حتى جئت الى هنا ، وسأسألهم من جديد حتى أعود » . وراح يسعل لحظة ثم قال : « انى لاأعرف من أين جاءت أمى بالثلاثين دولارا فليس لديها ماتستغنى عنه ، ولكنى سكرت ببعضها وقامرت بالبعض الاخر .. »

فقاطعه سبانجلر قائلا : « تعال .. ادخل هنا واجلس ». وتردد الشاب لحظة ثم ذهب الى المقعد بجوار المكتب فجلس عليه، وجلس سبانجلر فوق المكتب ثم التفت للشاب يسأله : قل لى .. ماذا بك ؟

ـ لست أدرى تماما .. أظن أنى مريض ، وقد أكون مسلولا فلست متأكدا ، غير أنى لم أكن مريضا فمن المعقول جدا أن تسلنى الحياة التى عشتها . اننى لا أحب أن أشكو فانا أعرف أن كل ما قابلت من حظ عاثر انما هو من عملى أنا وحدى . سأذهب الآن .. فالف شكرا لك ، وسأحاول أن أذكرك فى يوم ما » .

واستدار الشاب يريد أن يغادر المكتب غير أن سبانجلر استوقفه قائلا : « انتظر لحظة .. اجلس .. وهون عليك ، فلديك الآن متسع من الوقت ولست متعجلا كما كنت ، ويحسن أن تحاول منذ الآن أن تتحرك فى اناة قليلا . قل لى ما الذى تحب أن تعمله ؟ »

ـ لست أدرى .. أنا لست أدرى أى طريق أسلك أو أى عمل أتخذ ، أو أى اله أومن به . اننى لا أدرى شيئا على الاطلاق . لقد كان أبى قسا ولكنه مات وأنا فى الثالثة . وأنا الآن لا أدرى ماذا أعمل .. وتوقف الشاب ينظر لسبانجلر لحظة ثم قال : «وماذا هناك يعمله المرء على أية حال؟ »

ـ أوه .. لا شىء بالذات .. يعمل المرء فى أى شىء ، فليس من المهم ماذا يعمل المرء مادام العمل صالحا شريفا .

ـ لقد كنت دائما قلقا ناقما، ولست أدرى ما معنى هذا ، ولكنى لم أجد أبدا للاشياء معنى . اننى لا أحب الناس ولا أحب أن أكون قريبا منهم ، اننى لا أثق فيهم ولا أحب هذا النحو الذى يتبعونه فى معيشتهم ، ولا هذه الطريقة التى يتحدثون بها ، ولا هذه الاشياء التى يعتقدون فيها ، وأكره مسلكهم فى ارغامهم بعضهم بعضا .. .

ـ لقد مر هذا الشعور بكل انسان فى وقت أو آخر .

ـ وليس هذا كله لاننى لا أفهم نفسى، فانى أعرفها فيما أعتقد. لا ، ليس لى عذر أبدا ، اننى مسئول عن كل ما حدث لى ، لقد أصبحت الآن تعبا ، معلولا ، مريضا ، وقد زهدت فى كل شىء !

أرى العالم وكأنه قد جن كله !.. اننى لا استطيع أن اعيش الحياة التى أريدها لنفسى ، ولا أستطيع أن أعمل نفسى على قبول أى حياة أخرى ، فليست النقود هى ما أريد أو أحتاج ، اننى أعرف انى أستطيع أن أحصل على عمل وخاصة الآن ، ولكنى لا أحب أولئك الناس الذين يقدمون العمل ، فهم قوم سوء . اننى لا أستطيع أن أتدنى لهم ولا أستطيع أن أدع أحدا يرغمنى على شىء . لقد حاولت فى يورك وبنسلفانيا أن أحتفظ ببعض ما حصلت عليه من أعمال ، ولكنى كنت أشتتك دائما فى عراك فيفصلوننى . كنت أقضى فى كل عمل ثلاثة أيام أو أربعة أو أظل فيه أسبوعا أو أسبوعا ونصفا ، وأطول ما بقيت فى عمل كان شهرا واحدا ! وقد حاولت وأنا فى نيويورك أن التحق بالجيش ، وقلت لنفسى هذا أحسن ما يمكن أن أفعل ، فقد أرسل بعيدا ، وقد أقتل ، وهم اذا كانوا سيرغمونك فى الجيش أو يترأسون عليك فهم يفعلون ذلك لغرض قد يكون محتما كريما بعض الشىء . ولست أدرى اذا كان حقا محترما كريما أم لا ، ولكنه على الأقل مفروض أن يكون كذلك . غير أنهم على أية حال لم يقبلونى ، فقد فشلت فى الكشف الطبى ، لا بسبب رئتى فحسب ، بل لأنهم وجدوا ايضا أشياء أخرى لا أدرى ما هى ولم أهتم أبدا أن أعرف .

وبدأ الشاب يسعل من جديد وطال سعاله هذه المرة دقيقة كاملة ، فأخرج سبانجلر زجاجة من أحد أدراج المكتب وقال : خذ اشرب لك جرعة .

ـ شكرا .. اننى حقا قد شربت كثيرا ولكنى محتاج الآن لهذا .

وشرب جرعة من الزجاجة وأعادها الى سبانجلر وهو يشكره .

وقدر سبانجلر بينه وبين نفسه أن يستحث الشباب على أن يستمر فى حديثه ، فقال له متسائلا : وماذا تقرأ ؟

ـ أوه .. أقرأ كل شىء .. أو على الأقل كنت أفعل ذلك عندما كنت فى بيتنا . كان لدى أمى كتب كثيرة ولم تكن كلها كتبا دينية بل كان فيها كتب جيدة لمؤلفين ممتازين . وكان الكاتب الذى أحبه وأفضله هو وليم بليك ، أظنك تعرف كتاباته .

ولكنى كنت أقرأ شكسبير ، وملتون ، وبوب ، ودون ، وديكنز ، وثاكرى .. كنت أقرأهم جميعا . لقد قرأت كل كتاب كان عند أبى ، بل قرأت بعض الكتب مرتين والقليل منها قرأته ثلاث مرات . كنت أحب القراءة ولكننى لم أعد أشعر بذلك الآن أبدا . اننى لم أعد أحب الآن حتى النظر فى الجرائد اليومية ، انى لا أعرف الاخبار ، فماذا فيها الا أخبار الفساد والقتل فى كل مكان دون أن يهتز انسان فى العالم لشىء من هذا كله . ووضع الشاب رأسه فى يديه وراح يتكلم فى صوت خافت دون أن يرفع رأسه : انى لا أستطيع أن أشكرك على ما فعلت ولا أن أشكر فيك هذا الانسان الذى كنته . فلا بد أن أقول لك انك لو كنت قد خشيتنى أو أسأت الى لما ترددت أبدا فى اطلاق الرصاص عليك .. ان الناس جميعا فى هذه الدنيا جبناء قساة ، وأنا أعرف اننى لم أت الى هنا أحمل مسدسا من أجل النقود . قد لا تستطيع ان تفهمنى ولكنى أريد أن أقول لك اننى جئت حتى هنا بمسدسى لأرى هذا الرجل الذى كان سمحا كريما مع انسان آخر لا لغرض الا لان يكون سمحا كريما ، ولأن أعرف وأطمئن أنه هكذا حقا وأن الأمر كله لم يكن مصادفة أو اعتباطا !! انى لا أستطيع أن أعتقد أن هناك انسانا واحدا كريما سمحا حقا ، فان هذا سيفسد على تصورى للأشياء كلها وفهمى للناس جميعا . لقد صرت أعتقد منذ زمن بعيد أن الجنس البشرى كله فاسد لا أمل فيه ، وأنه ليس هناك انسان واحد جدير بأن يسمى انسانا أو بأن ينال التقدير والاحترام من انسان آخر . لقد ظللت أمدا طويلا لا أحمل فى نفسى الا الاحتقار والزراية بالضعيف المسكين والمتكبر المتعجرف على السواء . ولكن هنا أجد فجأة فى بلد غريب ، وعلى أميال بعيدة من وطنى ، رجلا سمحا كريما . لقد أقلقنى هذا وأقلقنى زمانا طويلا ، وكان على أن أتحقق وأن أتأكد . فأنا لم أكن أستطيع أن أومن أو أن أصدق ما وقع لى . كنت أريد أن يكون هذا حقا وكنت أريد أن أومن به ، فطالما قلت لنفسى سنوات عديدة : « دعنى أجد انسانا واحدا طاهرا غير فاسد فى هذا العالم كله ، فأستطيع أنا أن أتطهر وأن أتجنب الفساد ، وأستطيع أن

أومن وأن أعيش ، ولـــم أكن متأكدا عندما التقينا أول مرة ، أما الآن فقد تأكدت ولم أعـــد أطلب منك دليـــلا آخـــر . لقد أعطيتنى كل ما أريد وليس فى وسعك أن تعطينى شيئا بعد ذلك! انى أعرف أنك تفهم ما أقوله كله وعنـــدما أقوم الآن فانما أقوم لأودعك . وأنا لا أريد منك أن تقلق على فليس هنـــاك ما يدعو لذلك ، اننى عائد الى بيتى ..الى حيث أنتمى ، ولن أموت بهذا المرض بل سأعيش ، وقد عرفت الآن كيف ...

وظل الشاب لا يرفع رأسه لحظـــة ثم قام فى بطء ونظر الى سبانجلر ثم قال : «ألف شكر» .

وراح سبانجلر يرتب الشاب وهو يسير مغادرا المكتب ثم ذهب الى درج النقود فردها جميعا الى حيث كانت ، وأخـــذ مسدس الشاب فأفرغ الرصـــاص منـــه ووضعـــه فى الدرج وأسقـــط الرصاصات فى جيب معطفه . ثم اتجه سبانجلر بعد ذلك الى الرف الصلب الذى يحفظون فيه البرقيات يوما بعد يوم فى حزم مستقلة ، وعثر على برقية الشاب التى أرسلها لأمه ، فأخـــرجها من الحزمة وأخذ برقية فارغة ، وبدأ مدير المكتب يكتب برقية بنفسه :

« مسز مارجريت ستريكمان

١٨٧٤ بيدل ستريت

يورك ، بنسلفانيا

أمى العزيزة ، شكرا على النقود ، ســـأعود حالا ، كل شىء يسير سيرا حسنا »

وقرأ كلمات البرقية مرة أخرى ، ثم قرر أن يغير « سيرا حسنا » وأن يضع بدلها «على مايرام» . ثم تذكر الشاب لحظة وأضاف الى البرقية : «مع حبى ، جون» . وأخذ ســـبانجلر الورقـــة وذهب الى منضدة مسترجروجان وراح يطلب العامل على الخط . ولما جاءه الرد بعد دقائق عديدة ، بدأ يدق البرقية حتى فرغ منها ، ثم بدأ يتكلم مع العامل فى نهاية الخط مبتسما وهو يستمع الى النقط والخطـــوط ويدق للآخر اجاباته . وعنـــدما انتهى من حديثه قام عائدا الى مكتبه .

ودخل وليام جروجان وجلس في المقعد الذى جلس فيه الشاب، فسأله سانجلر : كيف حالك الآن ؟

ـ احسن طبعا .. لقد تربت كاسين ياتوم واستمعت للجنود يغنون . اتعرف انهم يحبون البيانولا وهذه الاغانى القديمة التى لم يسمعوها بدا من قبل .

فقال سانجلر : «انت تحبنى؟ اليس كذلك ؟ نعم ، نعم انت تحبنى .. وانت تعرف». هذا ماكانت تقوله لى ياويللى .. وهى تقوله بنفس هذه الطريقة . اظن انى ساتزوجها .

وتوقف لحظة عن الحلم بداناستيد ، وراح يتأمل وجه صديقه ثم قال : هذه الاغانى القديمة طيبة جدا .

ـ اتذكر ياتوم طريقة دافنبورز الهرم فى غناء هذه القطع ؟

ـ طبعا .. ومادام هذا المكتب قائما فساظل اذكره .. انني اكاد اسمعه الآن وهو لايغنى هذه القطع فحسب ، بل يغنى اناشيد الكنيسة ايضا . فهل نسيت هذه الاغانى الكنسية التى اعتاد دافنبورز الهرم ان يغنيها كل احد ؟

ـ لا ، لم انس ، انى اذكر كل واحدة منها .. كان يحب حقا ان يدعى انه غير مؤمن ، وبالرغم من ذلك كان يظل يرتل طول يوم الاحد .. كان يظل طول النهار يمضغ الدخان ويرسل الرقبات . . ويغنى ويقذف فى المبصقة عصير الدخان من فمه . وفى اول النهار كان يبتدىء دائما يغنيا : « مرحبا بك ايها الصباح الجميل ، صباح يوم الراحة المقدس » . لقد كان رجلا عظيما ياتوم .. وبعد قليل ينفجر صائحا : « ذلك يوم النور ، فلتدع النور يعم اليوم».

ـ نعم اذكر .. اذكره يغنى « فلتدع النور يعم اليوم » ثم يبصق فى الاناء .

ـ وبعد ذلك يغنى « الهنا يارب الصباح ويارب الليل . اننا نشكرك على نعمة النور التى وهبت » نعم ، هذا الكافر الكبير .. كان يحب النور والحياة اكثر من اى شىء آخر . فاذا ماانتهى النهار قام من على مقعده بطيئا وراح يتمطى وهو يغنى فى رقة : « مر النهار وهذا الليل يقترب» . قد كان يعرف كل الاغانى

القديمة الجميلة ويحبها جميعاواحدة فواحدة . اتذكره يصيح مغنيا « أيها المخلص » متظاهرا انه كافر يتهكم : « أيها المخلص، أرسل لنا مع النسيم بركات المساء ، قبل أن تنطوى منا النفوس وترقد . لقد جئناك بالخطيئة والحاجة تعترف ونسجد ، فأنت وحدك المخلص وانت وحدك رب الشفاء » .

وصمت عامل البرق الهرم يتذكر صديقه القديم الذى طواه الموت سنوات بعيدة ثم قال : « لقد صدق ياتوم .. لقد صدق ، فهذا حق » .

وابتسم مدير المكتب رهو يربت على كتف صديقه ويقوم ليطفىء الانوار ويغلق المكتب تاهبا لليل .

- ٢٣ -

أيها الموت لا تذهب الى ايتاكا

كان هومير اخيرا فى الفراش يحرك ويتقلب ، منزعجا يحلم يرى نفسه فيه يجرى من جديد فى سباق الحواجز، وكلما اقترب من حاجز وجد عنده بايفيلد يريد أن يوقفه، ولكنه لا يهتم به ويقفز فيقعان معا على الارض . كان بايفيلد يلقاه عند كل حاجز ، واحدا وراء واحد، حتى اصبحت الاصابة فى ساقه مؤلمة جدا ، فلما حاول ان يجرى من جديد لم يستطع أن يمسك نفسه ووقع على الارض . ولكنه تماسك وقام وكال لبايفيلد لكمة فى فمه، وصاح صارخا فيه : بايفيلد ، انك لن تستطيع ان توقفنى .. ومهما انخفضت الحواجز او ارتفعت فلن تستطيع ان تعوقنى عنها مهما كانت .

وبدأ يجرى مرة اخرى وهو يعرج اول الامر ولكنه سرعان ما انطلق يعدو عدوا رائعا ، فلما بلغ الحاجز التالى وجده

مرتفعا عاليا لاتستطيعه قدرة انسان ، ولكن هومير ماكولى ، وهو الذى قد يكون الآن اعظم رجل فى ايتاكا برمتها ، قفز الحاجز فى رشاقة واتزان كامل.

ورأى هومير نفسه بعد ذلك فى حلمه يرتدى حلة الساعى ويركب دراجته منحدرا بسرعة فى طريق شديق . وعلى حين فجأة راى بايفيلد يقف امامه فى الطريق، ولكنه اندفع اليه اسرع من كل مرة اخرى صائحا :« بايفيلد .. لقد قلت لك انك لن تستطيع ان توقفنى» .. ورفع مقدم دراجته محركا ذراع القيادة الى اعلى، وسرعان مايدات الدراجة ترتفع طائرة فى الهواء محلقة فوق راس بايفيلد مباشرة ثم هبطت بخفة الى الارض من ورائه. ولكن ماكاد يحس ارض الطريق حتى وجد بايفيلد امامه مرة اخرى ، فتركت الدراجة الارض من جديد وظلت عالية محلقة على بعد عشرين قدما فوق راس بايفيلد، ووقف الرجل فى الطريق يحملق مدهوشا مستاء . ثم صرخ فى الساعى : « انك لاتستطيع ان تفعل هذا .. لقد خرجت على قانون الجاذبية » .

فصاح هومير مجيبا الرجل فى الطريق : « قانون الجاذبية ، قانون المتوسطات ، قانون العرض والطلب ، ماذا يهمنى انا من هذا كله او من اى قانون آخر . انك لن تستطيع ان توقفنى .. هذا كل ماعرفه .. لن تستطيع ان توقفنى .. ايها الحشرة .. ايها العفن الصدىء ... » وحلق الساعى فى الفضاء تاركا وراءه الرجل فى الطريق قبيحا مهانا محتقرا كاشد مايكون الاحتقار.

ووجد هومير نفسه بعد قليل طائرا بدراجته وسط سحائب سود ، ولم يلبث وهو يخترق السماء، ان راى راكبا آخر مثله على دراجة قد ارتدى حلة كحلته، يخرج من سحابة سوداء ويندفع بسرعة تفوق سرعته . وتعجب هومير من ان الساعى الآخر يبدو وكأنه هو نفسه ، الا انه فى الآن ذاته شخص يحس هومير انه يخافه ويخشاه . وعزم بينه وبين نفسه ان يسابق هذا الساعى الآخر وان يلحق به حتى يعرف من يكون، وتسابق الراكبان مسافة بعيدة قبل أن يستطيع هومير ان يقترب منه ، فلما تقاربا استدار الآخر فجأة ونظر اليه . وذهل هومير عندما رآه يشبهه تماما،

ومع ذلك فهو يستشعر فى يقين تام ، لامن مظهر الساعى بل من مجرد احساسه ، ان هذا الساعى ليس الا ساعى الموت . واقترب الراكبان فى ايثاكا فزاد هومير من سرعته منطلقا وراء ساعى الموت. ونظر هومير تحته واستطاع ان يرى على بعد انوار المدينة المنعزلة وبيوتها الجميلة وشوارعها المنتظمة. وقرر بينه وبين نفسه ان يسبق الساعى الآخر كى يبعده عن ثيماكا ، فقد احس انه ليس فى الدنيا جميعها شىء أهم من ان يمنع هذا الساعى من الوصول الى ايثاكا .

وكان السباق عنيفا قاسيا ولكنه كان شريفا عادلا لاخداع فيه ولا حيل . ومسهما الجهد والارهاق على السواء، الا ان هومير قد استطاع اخيرا ان يجانب الراكب الآخر وان يصرفه عن ايثاكا . ولكن هذا الاخير زاد من سرعته فجأة وابتعد عنه عائدا الى المدينة الصغيرة ، فأحس هومير بالخيبة والاسى وان ظل يسابقه مندفعا بكل قوته . غير ان هومير لم يستطع ان يواصل السباق. فقد تقدمه الساعى كثيرا متجها الى ايثاكا ومخلفا اياه وراءه !! لقد نفد جهده ولم تعد لديه القدرة على مطاردة ساعى الموت . وكاد الصبى ينهار على دراجته باكيا منتحبا فى مرارة ، ولم تلبث الدراجة نفسها ان بدات تسقط متحطمة ، فصاح الصبى : « عد .. لاتذهب الى ايثاكا .. دعهم فى امان .. ارجع .. عد »

وراح الصبى ينشج فى حزن مخيف .

اما فى المنزل القائم فى طريق سانتا كلارا فان يوليسس وقف الى جانب اخيه هومير الحالم وراح يستمع اليه، ثم سار خلال البيت المظلم حتى وصل الى فراش امه فهزها ، وقامت الام جالسة فاخذ يوليسس يدها دون ان يتكلم وذهبا معا الى فراش هومير . ووقفت مسز ماكولى تستمع لحظة الى ابنها ثم ردت يوليسس الى فراشه واحكمت الغطاء عليه وعادت لتجلس الى جانب ابنها الباكى. وبعد قليل راحت تكلمه فى حنان دافق : « كفى ياهومير ... استرح .. انك متعب جدا ويجب ان تستريح . نم الآن .. نم فى امان » . وبدا الساعى

يكف عن النشيج وتتبدد من على وجهه معالم القلق والاضطراب وامه تواصل كلامها له : « نم .. نم الآن .. نم فى سلام »

وعندما رات الصبى قد عاد للنوم نظرت تطمئن على ابنها الصغير فوجدته قد استغرق فى النوم هو الآخر ، واذا بها ترى ماتيوماكولى فى ركن الغرفة يقف يرقبها ويبتسم ، فقامت بهدوء واخذت معها المنبه ومضت عائدة الى غرفتها .

وانتقل الحلم فى نومه من عالم الرعب والفزع الى عالم من الدفء والنور والراحة . ورأى هومير نفسه فى منامه الجديد يرقد على ظهره تحت شجرة تين نمت عند مجرى صغير ، فقال لنفسه وهو نائم : « لابد ان يكون هذا عند ريفردال ، حيث رايت شجرة التين الى جانب النهير وقد توهجت الشمس ترسل اشعتها الضاحكة فتبعث الضحك فى كل شىء آخر .. انى اذكر هذا المكان ، الم آت اليه انا وماركوس فى الصيف الماضى كى نستحم ، لقد جلسنا حينذاك على شط النهير وتحادثنا سويا عما سنفعله بحياتنا » واطمأن هومير وهو نائم الى جمال المكان واحس دفء الذكرى فتمطى مستريحا على العشب ونسى تماما انه نائم .

وكان يرتدى نفس الملابس التى كانت عليه ذلك اليوم من الصيف عندما كان هو وماركوس هنا . الا ان عصا الصيد الطويلة المثبتة فى الارض اللينة لم يضعاها فى ذلك اليوم بل كانت هناك دائما منذ زمان بعيد . انه يرى الآن هيلين اليوت قادمة من الارض التى يعلوها الاعشاب والاشجار حافية القدمين مثله ، وقد ارتدت ثوبا قطنيا بسيطا وراحت تسير على ممر ضيق متجهة اليه .

فقال هومير لنفسه : « هذه هيلين اليوت ، فتاتى ، التى احبها » . وجلس يبتسم يرقبها وهى تخطو اليه ، ثم قام على قدميه لكى يلقاها ويحييها . ولم يتكلم هومير ، بل علاه شىء كالوقار والجد ، واخذ يد الفتاة وسارا معا الى الشجرة . وهناك خلع هومير قميصه وسراويله واندفع سريعا ليغطس فى النهير . أما الفتاة فقد توارت وراء شجرة وخلعت ملابسها هناك وراح هومير يرقبها وهى تقترب من حافة النهير فتقف لحظة ثم تلقى بنفسها الى الماء . وظل الاثنان ، وما زالا فى وقارهما ، يستحمان برهة فى الماء ، ثم غادراه معا ليرقدا على الرمل جنبا الى جنب يلفهما الشمس والنوم .

- ٢٤ -
شجرة المشمس

استيقظ يوليسس ماكولى مبكرا هذا الصباح وراح يحجل تحت أشعة الشمس المبكرة الى فناء رجل يمتلك بقرة . ولما وصل الى الفناء راى يوليسس البقرة وظل يراقبها امدا طويلا . وجاء اخيرا الرجل الذى يمتلك البقرة خارجا من بيت صغير يحمل وعاء ومقعدا صغيرا . واتجه مباشرة اليها وبدأ يحلبها، وتقدم يوليسس مقتربا منهما حتى أصبح وراء الرجل مباشرة ولكنه لم يستطع أن يرى مايقنعه، فانحنى على ركبتيه متقدما حتى كاد يكون تحت البقرة تماما . . ولحظ الرجل الصبى ولكنه لم يتكلم فقد كان مشغولا بما يفعل، الا ان البقرة التفتت ونظرت الى يوليسس ، فنظر اليها هو الآخر، وبدا له انها لم تسترح لوجوده تحتها ، فغادر مكانه وابتعد قليلا يرقبها عن كثب . ولما نظرت اليه البقرة من جديد أحس الصبى انهما أصبحا صديقين .

وسار يوليسس فى الطريق عائدا الى البيت ، فمر برجل يبنى جرنا فوقف يرقبه . ويبدو ان الرجل كان حساسا عصبيا نافد الصبر وليس البناء من عمله ، فكان الرجل يؤديه فى ثورة وغضب محدثا اخطاء كثيرة بحركاته ، وظل يوليسس يرقبه دون أن يفهم شيئا .

وعاد يوليسس اخيرا الى طريق سانتا كلارا بينما كان مستر أوينا يركب دراجته منصرفا الى عمله ، ووقفت مارى أزينا فى الباب تلوح لأبيها حتى اختفى ثم عادت ادراجها الى البيت .

كان النهار صباح يوم السبت فى ايتاكا، وهو أسعد أيام تلاميذ المدرسة . ورأى يوليسس صبيا فى الثامنة أو التاسعة يخرج من بيت غير بعيد فلوح له محييا ورد عليه الصبى التحية، وهذا الصبى ،ليونيل كابوت ،هو أبله الناحية، وكان مع ذلك صبيا ضخم الجثة كريما دمث الخلق .وتطلع ليونيل مرة أخرى بعد لحظة الى يوليسس ، ولما لم يجد شيئا آخر يفعله لوح له بيده من جديد . وظل هذا يتكرر على فترات متباعدة حتى خرج أوجست جوتليب من البيت المجاور لسوق آرا .

وقد تسلم أوجى قيادة أولاد هذه الناحية منذ ان اعتزل هومير هذا المنصب فى الثانية عشرة .وتلفت القائد الجديد حوله يتفقد أتباعه ، فاستبعد ليونيل لانه لا يفهم ، ويوليسس لانه مازال صغيرا ، ولكنه مع ذلك رفع يده يحييهما ، ثم سار حتى منتصف الطريق وأخذ يصفر صفير بائعى الجرائد ،وكان صفيره عاليا يشعر بالسلطة وبالامر الذى لامرد له ولا تكرار . ووقف أوجى يفكر فى ثقة الرجل الذى يعرف ماهو فاعله ، الواثق بما سيحصل عليه من نتائج ، فتفتحت النوافذ مباشرة ودوت الصفارات فى المكان تجاوبه ،ومالبث أن جاءت جماعة الصبية تجرى متجمعة عند الناصية . وفى أقل من ثلاث دقائق كانت العصابة كلها قد التأم شملها ، أوجى جوتليب القائد ونيكى بالوتا وآلف ريف وشاج مانوجيان ...

وقال نيكى: أين نحن ذاهبون ياأوجى ؟

فأجاب أوجى : سنذهب لنرى هل نضج المشمش لدى هندرسون أم لا .

وسأله ليونيل : هل أستطيع أن آتى معكم ؟

ـ لامانع يالونيل .. ولكن اذا وجدنا المشمش قد نضج ، فهل ستسرق معنا ؟

فأجاب ليونيل: السرقة خطيئة ..

فقال أوجى متكلفا أن يوضح له تفرقة هامة : « لا ·· لا ليس سرقه المشمش · » والتفت بعدذلك الى يوليسس قائلا له : أما أنت يايوليسس · · · فعد الى البيت ، هذا أمر خطير ·· وليس للصغار أن يتدخلوا فيه » ·

فخطا يوليسس مبتعدا ثلاث خطوات ووقف يرقبهم ··ان أوامر أوجى لم تجرحه أو تغضبه فهو يفهم شريعة العصيان ، ويعرف أن أوجى لم يقصد ان يقول الآنه لم يكبر بعد · ولكن يوليسس على احترامه لهذا القانون لم يكن يستطيع أن يقمع فى نفسه الرغبة فى الذهاب على أية حال مع العصابة ·

واتخذ الصبية طريقهم الى بيت هندرسون ، لايسلكون الشوارع والطرقات المنتظمة بل ينفذون فى الحارات ويعبرون الاراضى العارية ويتسلقون الاسوار والاسلاك ، فهم لايحبون الطريق السهل بل يريدون أن يركبوا المسلك الصعب الوعر الملىء بالمخاطر والمغامرات · أما يوليسس فقد سار وراءهم يتبعهم على مسافة ليست ببعيدة فتفزعه او قريبة فتشغلهم ·

وقال أوجى لافراد عصابته :أتعرفون ، أن المشمش اذا نضج فهو أطعم فاكهة فى العالم ·

فسأله نيكى بالوتا : ولكن هل ينضج المشمش فى مارس ؟

فرد أوجى : لقد أصبحنا فى ابريل تقريبا ، والمشمش المبكر ينضج حالا مادامت الشمس وافرة ·

فقال آلف ريف : ولكن السماء مع ذلك أمطرت كثيرا ··

فقال أوجى: ومن أين تظن اذن يأتى هذا العصير فى المشمش؟·· من الماء ·· من هذا المطر · ان المطر ضرورى للمشمش ضرورة أشعة الشمس تماما ·

فقال شاج مانوجيان : الشمس أدفأته بالنهار والمطر بالليل ملأه بالعصير !! ·· لابد أن الشجرة الآن مليئة بالمشمش الناضج ·

فقال آلف ريف : آه ··يابنى نرجو هذا ··

ولكن نيكى بالوتا عاد يقول:مازال الوقت مبكرا على نضوج المشمش · · انه لم ينضج فى العام الماضى الا فى يونيه ··

ـ هذا كان فى العام الماضى ٠٠ اننا الآن فى هذه السنة ٠٠

وعندما أصبحوا على بعد مائة ياردة تقريبا من شجرة المشمش الشهيرة وقف الصبية جميعا يملؤهم الاعجاب بالشجرة العجوز الكبيرة وقد اخضرت أوراقها جميعا وبدت غاية فى الجمال ٠ كانت الشجرة القائمة فى الناحية الخلفية من فناء دار هندرسون ٠ وظل هندرسون الهرم عشر سنوات طوال يتلقى غزوات أطفال الجيرة على شجرته ٠ ففى كل ربيع يجلس مستر هندرسون فى بيته المتهدم يرقب قدوم الصبية فى سرور وتلذذ ، ويحاول دائما أن يرضيهم فلا يظهر الا فى اللحظة الاخيرة ليفزعهم ويصرفهم عائدين ٠ وكان مستر هندرسون الآن كعادته وراء ستائر نافذته ، فلما رآهم رفع عينيه عن الكتاب الذى يقرأ فيه وقال لنفسه :

ـ « أنظر ٠٠ أنظر ٠ ٠ جاءوا يسرقون المشمش فى مارس ، فى الشتاء ٠ ٠ أنظر ٠٠ أنظر » وراح يتلصص عليهم من جديد ويصفر كأنه واحد منهم : « أجئتم تقطفون مشمش هندرسون الهرم ٠٠ ها قد جاءوا ٠٠ رويدكم الآن ٠٠ ها ٠٠ » وبدا الرجل يضحك وهو يواصل حديثه لنفسه : « لتنظر ٠٠ اليهم ٠٠ أنظر الى هذا الصغير بينهم ٠٠ انه لا يتجاوز الرابعة أبدا ٠٠ عضو جديد ٠٠ هيه ٠٠ تعال ٠٠ تعال ٠٠ تعال الى الشجرة القديمة العجوز الرائعة ٠٠ لو انى أستطيع أن أنضج لك المشمش لتسرقه ٠٠ لفعلت ٠٠ »

ووقف هندرسون يتفرج على الصبية وأوجى ينقى اليهم بتعليماته ويقود الهجوم وينظمه ٠ واحتاطوا الآن بالشجرة حذرين وجلين ، وقد امتزج فى قلوبهم الأمل والخوف ٠ فالمشمش وان كان لا يزال أخضر فهو مشمش هندرسون وعلى شجرته ، ولا فرق بين مجيئهم وهو أخضر وقدومهم وقد نضج ، فكم يأملون اذن أن يكون قد نضج فعلا ٠ الا أنهم خائفون أيضا ، خائفون من هندرسون ومن الخطيئة ، خائفون من أن يقبض عليهم ومن أن يتهموا ، وخائفون مع ذلك كله من أن يكونوا قد بكروا فى المجىء وأن يكون المشمش مازال أخضر لم ينضج بعد ٠

وهمس نيكى بالوتا وقد وصل الصبية الثلاثة عند الشجرة تقريبا : « قد لا يكون فى البيت ٠ »

ـ من ؟ .. هذا ؟ انه دائما في البيت ، وكل ما في الامر أنه مختف !! هذه خدعة .. انه يريد أن يقبض علينا فاحترسوا جميعا .
اننا لاندري من أين يطلع علينا .. يوليسس .. عد أنت الى البيت .

فتراجع يوليسس طائعا خطوات ثلاثا وراح يرقب هذا الصراع الرائع مع تلك الشجرة العظيمة .

وسأل شاج : هل نضج يا أوجى ؟ أترى لونه ؟

ـ الاخضر فحسب ، ولكن هذه هي الاوراق ولا بد أن الثمر تحتها . أصمتوا الآن واستعدوا .. أين ليونيل ؟

فهمس ليونيل وقد ملأه الذعر : هنا ..

ـ حسنا .. كن مستعدا .. اذا رأيت هندرسون الهرم .. فلتجر ..

فغمغم ليونيل : « ولكن أين هو ؟ » وكأنما هندرسون لايكاد يرى ، أوهو شيء لايكبر عن الأرنب ، وقد يقفز فجأة من وسط الاعشاب .

ـ ماذا تعني .. أين هو ؟! .. انه في البيت فيما أظن .. ولكن من ذا الذي يطمئن من هندرسون هذا .. لقد يكون مختفيا هنا في الخارج في مكان ما يريد أن يأخذنا على غرة ! »

وتساءل آلف ريف : هل تتسلق أنت الشجرة يا أوجى ؟

ـ ومن اذن ؟ .. أنا طبعا الذي سيتسلقها .. ولكن فلنطمئن أولا الى أن المشمش قد نضج ..

فقال شاج مانوجيان : ناضج . أخضر . سيان .. اننا نريد على الاقل أن نسرق ولو قليلا منه يا أوجى .

ـ اطمئن .. سنفعل . أما اذا كان قد نضج فسنسرق الشيء الكثير .

فقال ليونيل لأوجى : ماذا تقول غدا وأنت تعترف في مدرسة الأحد ؟

ـ ليونيل ! سرقة المشمش ليست كهذه السرقة المذكورة في الكتاب المقدس .. هذا شيء آخر .

فعاد ليونيل يسأله : ولماذا أنت خائف اذن ؟

ـ خائف ؟ .. أنا خائف !!.. كل ما فى الامر أنه لا بد من الاحتراس .. فليس ما يدعو للقبض عليك اذا كنت تستطيع الافلات .

فاستمر أوجى يقول : ولكنى لا أرى مشمشا ناضجا .

ـ لكنك ترى الشجرة .. أليس كذلك .

فقال ليونيل : الشجرة .. نعم ياأوجى أراها تماما ، ولكن هذا كل ماهناك .. مجرد شجرة كبيرة ، كلها خضراء .. وهى لا شك .. أيضا .. جميلة جدا .

وأصبحت العصابة الآن تحت الشجرة تقريبا الا يوليسس فقد كان يتبعهم على مسافة قريبة .. انه لا يستشعر أبدا ذرة واحدة من الخوف ، وبالرغم من أنه لم يفهم شيئا مما يجرى فانه كان واثقا أن هنالك أمرا هاما يتعلق بشجرة وبشمش .

وراح الصبية يتفحصون غصون شجرة المشمش القديمة وقد اخضرت جميعها بالاوراق الصغير الجميلة ، ورأوا ان المشمش لايزال أخضر جدا غاية فى الصغر ، وانه لاشك صلب جدا .

وقال آلف ريف : أنه لم ينضج بعد .

فأجاب أوجى معترفا : حقا .. أظنه يحتاج الى يومين أو ثلاثة .. ربما فى السبت القادم ..

فقال شاج : طبعا .. فى السبت القادم .

ـ الا أن الشجرة محملة على أية حال .

فقال شاج : اننا لن نعود وأيدينا فارغة يا أوجى .. لا بد أن نقطف واحدة على الاقل .. سواء كانت خضراء أم ناضجة . لا بد أن نحصل ولو على واحدة ..

ـ وهو كذلك .. سأقطع أنا واحدة . . وتستعدون أنتم للجرى .

واندفع أوجى الى الشجرة فتعلق بأحد غصونها القريبة ، وأفراد العصابة وهندرسون ويوليسس يرقبونه فى سرور ودهشة واعجاب . وعند ذاك خطا مستر هندرسون خارجا من البيت ووقف على درج الشرفة الخلفية ، فاندفع الصبية جميعا يجرون كسرب من الاسماك الصغيرة الفزعة .

وصاح شاج مانوجيان : أوجى ·· هندرسون !

ففزع أوجى فزعة القـرد فى الغاب ، وراح يتأرجح فى الشجرة معلقا فى غصن من أغصانها ، ثم تركه ساقطا على الارض واندفع يجرى والارض لم تكد تمس قدميـه · الا أنه رأى يوليسس فتوقف فجأة صارخا على الصبى: يوليسس ·· اجر ·· اجر ··

غير أن يوليسس لم يتحرك من مكانه فهو لم يستطع أن يدرك ما حدث ·· واضطر أوجى أن يندفع راجعا الى الصبى وأن يحمله من الارض جاريا به ، على حين وقف هندرسون ساكنا يرقبه ·

ولما اختفى الصبية جميعا وعاد للمكان الهـدوء والصمت من جديد، ابتسم الرجل متطلعا لشجرته ثم استدار داخلا المنزل ·

ـ ٢٥ ـ

كن سعيدا . . كن سعيدا

عاد أفراد جمعية أوجست جوتليب السرية من فرارهم من هندرسون العجوز واحدا بعد واحد ، وتجمعوا أمام سوق آرا ينتظرون قدوم رئيسهم . ولمح الاتباع المخلصون أخيرا الرجل العظيم الذى ينتظرونه ملتفتا عند ناصية الطريق وقد أمسك بيد يوليسس ماكولى ، فوقفوا جميعا ينتظرون فى صمت وصوله . وما لبث أن أصبح بينهم ، فتطلع الاتباع يتفحصون وجه القائد ويستكشفون أخباره حتى قطع آلف ريف الصمت سائلا : « هل حصلت على مشمشة يا أوجى ؟ »

فنظر الرئيس الى هذا الجاحد الذى لا يستطيع أن يؤمن به وقال : لم تسألنى هذا السؤال ؟ ألم ترنى على الشجرة ؟ أنك تعرف طبعا أنى حصلت على مشمشة !!

وعند ذاك انفجروا جميعا ، الا ليونيل وهو على كل حال ليس

عضوا معهم ، وقالوا فى صوت واحد يملؤه الاعجاب صائحين :
« أين هى يا أوجى ·· دعنا نراها »

أما يوليسس فقد وقف يرقب ما يجرى مستشعرا أن هذه القيم الغامضة التى يتحركون بها لابد أن تكون هامة جدا بل أهم ما فى العالم كله فى هذه اللحظة على الاقل · وان كان لم يتأكد بعد من معناها · وصاح أعضاء الجماعة من جديد : دعنا نرى المشمشة التى سرقتها يا أوجى · أين هى ؟ ·· دعنا نراها · فدفع أوجست جوتليب يده فى جيبه ثم مد قبضته أمامه · ولما تجمع الاتباع لرؤيتها ، انتظر حتى لزم الجميع الصمت والاحترام الجديرين بالموقف ثم فتح لهم قبضته ·

وهناك فى راحة يده رقدت مشمشة خضراء صغيرة فى حجم بيضة العصفور ، فأشرقت وجوه أتباع القائد الدينى العظيم تهللا لمنظر هذه المعجزة القائمة فى يده ، وتقدم ليونيل ، وهو الطفهم شعورا وأرقهم قلبا وان لم يكن من أبناء العقيدة المؤمنين · ودفع يوليسس الصغير بين يديه حتى يستطيع أن يرى هذا الشىء الاخضر الصغير · ولما انتهى يوليسس من رؤية المشمشة الخضراء تلوى حتى خلص من يد ليونيل ونزل الى الارض ثم اندفع فجأة جاريا الى البيت ، لا لان مارآه لم يسره أو خيب ظنه ، بل من حرصه وتلهفه على أن يجد أحدا يقص عليه الامر كله ·

وعند ذاك خرج عليهم من المحل آرا ، ذلك الرجل الذى فتح هذا السوق فى ايتاكا كاليفورنيا منذ سبع سنوات · كان الرجل طويلا نحيل الوجه يضع فوق ثيابه مريلة بيضاء ، وتبدو عليه سمات الاسى وان كان فكها حاضر النكتة · ووقف لحظة على مدخل دكانه يرقب هذا المسيح الجديد وتلاميذه ، ويستمع الى صيحات اعجابهم وتمجيدهم لتلك الصورة المقدسة · ثم قال أخيرا : أنت يا أوجى ·· شاج ·· نيكى ·· آلفو ·· وأنت ياليونيل ·· أين تظنون أنفسكم ؟ أتحسبون أنكم بمجلس الشيوخ فى واشنطون ؟ ·· اذهبوا ·· اذهبوا من هنا ·· ابحثوا عن مكان غريب شاذ تعقدون فيه هذه الاجتماعات الهامة ·· هذا سوق لا مجلس شيوخ !

فأجابه أوجست جوتليب : أوه .. طبعا يا مستر آرا .. سنذهب الى الارض الفراغ فى الناحية الاخرى .. ألا تريد أن ترى مشمشة ؟

فقال البائع : وهل معك مشمش ؟ من أين جئت به الآن ؟

ـ من الشجرة .. أتريد أن تراها ؟

ـ هذا ليس اوان المشمش.. ولايظهر الا بعدشهر أوشهرين .. عندما يقدم مايو ..

فأجابه شيخ الدراويش الراقصة : « تلك التى معنا من مشمش مارس.. انظر هاهى» وفتح قبضته من جديد كاشفا عن تلك الفاكهة الخضراءالصغيرةالجامدة فى يده ، وقال : «انظر يامستر آرا » ثم صمت لحظةوعاديسأله : « ألبست جميلة ؟ »

ـ نعم .. نعم جميلة .. انهامشمشة جميلة جدا .. اذهبوا الآن فاعقدوا اجتماعات مجلس الشيوخ هذا فى مكان آخر .. ان اليوم هو يوم السبت والمحل مفتوح للتجارة .. فلا تزحموا مدخل هذا السوق الصغير ..ونحن مازلنا فى الصباح . دعوا الناس تدخل اليه فالناس تعدل عن المحل الصغير اذا وجدوا امامه زحاما . افسحوا فى الطريق .. هيا اسرعوا انتم .

ـ حسنا يامستر آرا .. انالانريد ان نعطل محلك ... سنذهب عبر الطريق .. هيابنا يا رفاق ..

وراح مستر آرا يتأمل ذلك النفر من رجال الشيعة وهم يهاجرون من امام دكانه، ثم هم بالعودة داخلا حين خرج اليه من المحل طفل يشبهه تماما ووقف الى جانبه يسأله : بابا ؟

فأجاب الاب ابنه بلغتهم : هيه ياجون ، ماذا تريد ؟

فقال الابن فى جد بالغ وشىء يشبه الحزن تماما : « أعطنى تفاحة » ..

فأخذه أبوه من يده ودخلا معا الى الركن الذى رصت فيه أكوام الفاكهة الطازجة وكرر الرجل كلمته يسأله : « تفاحا ؟» ثم اختار أفضل تفاحة فى الكوم وناولها للصبى قائلا : هاهى اذن ... تفاحة !!

وذهب الاب الى منضدته ينتظر زبائنه وراح يرقب خلال ذلك

ابنه متطلعا اليه وقد بدا حزينا مثله رغم هذا الفارق الذى لايقل عن اربعين سنة بين عمريهما . وقضم الابن قطعة كبيرة من التفاحة وراح يلوكها فى بطء ثم ابتلعها وظل لحظة ساكنا وكأنما يفكر فى الامر . ونظر اليه ابوه يفكر هو الآخر . فلقد احس ان التفاحة لم تجعل الصبى سعيدا . وتقدم الصبى فوضع التفاحة على المنضدة امام ابيه وراح يتطلع اليه . انهما هنا معا فى ايتاكا بكاليفورنيا على بعد سبعة آلاف ميل من تلك البقعة من الارض التى ظلت بيتا لهم ولاسلافهم مدة قرون طويلة .. وهما يحسان هنا فى قلب كل منهما وحدة وعزلة، ولكن من يدرى ان قلبيهما سيخلصان من هذا الشعور لو انهما عادا سبعة آلاف الميل هذه ورجعا الى بيتهما هنالك . هذا ابنه واقفا امامه فى ارض محله ، وهاهو ينظر اليه مكتشفا وجهه هو ، فى وجه الصبى ، وعينيه فى عينيه ، ولاشك ان وراء هاتين العينين شقاء وحزنا كشقائه وحزنه تماما. ان الصبى هو الرجل بعينه تماما الا انه اصغر واحدث .

واخذ الاب التفاحة المرفوضة فانشب فيها اسنانه قاضما قطعة كبيرة فى صوت عال، واخذ يلوكها ويبلعها وهو واقف وقد بدا عليه من سرعة بلعه وما يحدثه من صوت انه ممرور غاضب . فالتفاحة من اكبر النعم فى هذه الدنيا ولا ينبغى ان يلقى بها من غير فائدة ، واذا كان ابنه لايأكلها فلا بد عليه ان يأكلها هو وان كان لايحب التفاح ولا طعمه ..وهو يعتقد ان من الخطأ او من الحرام ان يبدد المرء شيئا ، فلابد ان يظل يقضم التفاحة ويلوكها ويبتلعها . ولكنه على الرغم من هذا لم يستطع ان يواظب ، فقد كانت التفاحة اكبر واوفر من ان يحتملها كلها ، واصبح من الضرورى عليه ان يلقى بعضها . وفى شىء من التهور وشىء من الندم والاسف القى الرجل ببقية التفاحة فى سلة المهملات .

ولكن الصبى عاد يسأله من جديد . بابا ؟

ـ هيه ياجون..ماذا تريد ؟

ـ اعطنى برتقالة .

فاختار الاب برتقالة فى الكوم المنتظم وناولها لابنه قائلا : هاهى اذن .. برتقالة .

وعض الصبى قشرتها بفمه ثم بدأ يكمل نزعها باصابعه بطيئا واثقا، وفجأة زادت حركاته سرعة ولهفة، واحس الأب شعور ابنه وهو يزيل قشرتها وكأنه سيجد تحت هذه القشرة سعادة قلبه كاملة وليس مجرد برتقالة عادية .. ووضع الصبى قشرة البرتقالة امام ابيه على المنضدة وقسمها نصفين وراح يفصص احدهما واخذ فصا ووضعه اخيرا فى فمه وبدا يلوكه ثم ابتلعه .. ولكن لا .. واأسفاه ، انها برتقالة حقا، ولكن ماذا فيها من سعادة القلب وامله ؟ وانتظر الصبى لحظة ثم وضع البرتقالة امام ابيه . وعاد هذا من جديد فالتقط ماتركه ابنه وراح يحاول صامتا ان يأكلها ولكنه سرعان ماشارف حد قدرته واضطر ان يلقى حوالى النصف من البرتقالة فى سلة المهملات .

ومرت لحظة قال بعدها الصبى : « بابا ؟ » . وعاد الاب يجيب : هيه .. ماذا تريد ياجون ؟

ـ أعطنى حلوى !

ـ حلوى ؟ .. هذه اذن .. حلوى .

واختار الأب من النافذة التى يحفظ فيها حلوى المحل قطعة من ذلك النوع الذى يبيعه بخمسة سنتات وبفضله الأطفال جميعا وناولها للصبى . وراح الصبى يتفحص تلك المادة المصنوعة التى ناولها له أبوه ، ثم أزال ماعليها من ورق شمعى ، وقضم قشرتها المغطاة بالشيكولاته وراح من جديد يلوكها ويبتلعها ! ولكن ما هذا ؟ انها لا تعنى شيئا .. انها مجرد حلوى .. قد تكون حلوة الطعم ولكنها لاشىء أكثر من ذلك .. انها لا تعنى شيئا أبدا .. أبدا . وأعادها الصبى من جديد تاركا أمام أبيه عرضا آخر من أعراض هذه الدنيا التى فشلت فى أن تجلب له السعادة . وتقدم الأب فى صبر يتحمل المسئولية التى ألقاها عليه ابنه، مسئولية تجنب الافساد والتبذير . فالتقط قطعة الحلوى وبدأ يقضمها ولكنه غير رأيه فجأة فالتفت الى سلة المهملات والقاها فيه . وأحس الأب لسبب لايدريه أنه غاضب

ممرور وان قلبـــه مملوء نقمـة ولعنة على أولئك الذين بدوا له في لحظة ما ، هنـاك ، على بعدسبعـة آلاف ميـل ، غلاظا لا انسانية فيهم أو على الاقل جهلة لايفهمون . وغمغم الرجل لنفسه: أولئك الكلاب .

ولكن الصبى سأل أباه من جديد : « بابا »

ـ هيه ياجون .. ماذا تريد؟

ـ أعطنى موزة .

وتنهـد الأب دون أن يفقـد ايمانه قائلا : « موزة ؟ .. هذه اذن .. موزة »

وتفحص أسباط الموز المعلقة فوق أكوام الفاكهة حتى عثر أخيرا على ما رآها أفضل الفاكهة وأكثرها نضجا وحلاوة فقطعها وناولها للصبى .

واخيـرا .. قدم الى المحـل عميـل . انه رجـل غـريب ، لايعرفه مستر آرا ولم يره من قبل . وهـز كل منهما رأسـه للآخر فى تحية خفيفة ، وقال العميل : « هل عندك كعك ؟ »

فأجاب صاحب المحل فى لهفة « من أى نوع ؟ »

ودخل المحل عميل جـديد ، ولكن العميل فى هذه المرة كان يوليسس ماكولى الذى وقف فى ركن من الأركان وراح يـرقب ويستمع منتظرا دوره .

وقال الرجل لصاحب المحل: هل عندك كعك محشو بالزبيب،

ـ محشو بالزبيب ؟ ! وأحس الرجل بمـا فى السـؤال من مشكلـة ، فراح يكـرر الطلب هامسا لنفسه : محشو بالزبيب .. محشـو بالزبيب ؟! وتقدم يبحث فى المحل عن المطلوب . ولكن ابنه تقدم فى الوقت نفسه فوضع على منضدة أبيه الطويلة بقايا موزته المرفوضـة وقال : « بابا »

فنظر الأب الى الصبى وراح يتكلم فى سرعة خاطفة : لقد طلبت تفاحة ، فأعطيتك تفاحة ، وطلبت برتقالة فأعطيتك برتقـالة .. وطلبت حلوى .. فأعطيتك حلوى .. وطلبت موزة .. فأعطيتك . ماذا تريد الآن .. ؟

ـ كعك .

ـ « أى نوع من الكعك هـذاالذى تريد ؟» انه لم ينس عميله، بل انه فى الحقيقة انمـا كان يكلمه وهـو يجيب صبيه ، بل انه يسأل الناس جميعـا ، انهانما يوجه سؤاله لكل الناس ، فى كل مكان ، وحيثما كان هذاالذى مازال يريد ويطلب ٠

ولكن الصبى أجابه : « كعكمحشو بالزبيب » ٠

فأحس الرجل بالغضب يعتمل فى نفسه ويكنه،فكتمه متحفظا، وأجاب ابنه دون أن ينظر اليه ملتفتا الى زبونه أمامه متحدثا فى صوت أشبه بالهمس : ليس عندى كعك ٠٠ ليس عندى كعك من أى نوع ، ماذا تريد ان تفعـل بهذا الكعك ٠٠ ان عنـدى كل شىء آخر الا هذا ٠٠ فما هـذاالكعك اذن ؟ ٠٠ ماهـذا الذى تريد ؟

فقال العميل صـابرا : أريدكعكا لصبى صغير ٠

ـ ليس عندى كعك ٠٠ ولكن عندى أنا الآخر صبى صغير ٠٠ وأشار الرجل الى صبيـه وهـو يقول : « اعطيته تفاحا وبرتقالا ٠٠ وحلوى وموزا ٠٠ أعطيتـه كل هذه الاشياء الجميلة الطيبة»! ونظر الى الرجل متفحصـا فى عينيه وسـاله وهو يكاد يكون غاضبا : ماذا تريد أنت ؟

فقال العميل : ان ابن أخى مريض ٠٠٠ بالانفلونزا ٠٠ وهو يبكى فى فراشـه صائحـا ٠٠ أريد كعكا ٠٠ أريدكعكا محشوا بالزبيب ٠

غير أن الانسان منا لا يعيش الا مهتما بحياته ، وفى كل حياة ما يشغلها ويكـون محـورها حتى أن الصبى وسط هـذا لم يفعل الا أن راح ينظر لأبيه من جديد يسأله : « بابا ؟ »

ولكن الاب لم ينظر لابنه ،بل التفت الى العميل الذى يرقد ابن أخيه مريضا صائحا يطلب هذاالكعك المحشو بالزبيب ٠ ونظر الاب للرجل فى فهم ومشاركة وفى شىء من الغضب الريفى ، لامن الرجل نفسه بل من هـذه الدنيا وهذا المرض ، من هـذه الوحدة وهـذا الالم ، من ذلك القلب الذى يطلب ،ويطلب دائما مالايستطيع أن يحصل عليه ٠بل انه غاضب على نفسه هو لأنه قد قطـع سـبعة آلاف الميل وانه جاء الى كاليفورنيا وفتـح

هذا المحل ومع ذلك فانه لايملك هذا الكعك المحشو بالزبيب ، هذا الشيء الوحيد الذى يطلبه الصبى المريض . وعاد الرجل يشير الى ابنه وهو يقول للرجل: هنا تفاح .. موز .. حلوى .. أما هذا الكعك . . فلا .. هذا ابنى أنا ، عمره ثلاث سنوات .. وهو ليس مريضا ، ولكنه يطلب أشياء كثيرة .. انه يريد تفاحا ، يريد برتقالا . . يريد من هذا الموز .. بل أنا لاأعرف ماذا يريد، ولن يستطيع أحد أن يعرف .. كل مافى الامر انه يريد . . . متطلعا الى الرب. أعطنى هذا .. أعطنى ذاك .. شقيا دائما محروما أبدا . ماأجحد ذوى القلوب المحزونة لنعمة هذا الرب ! ! لقد وهب من كل شيء وأعطى ماعنده جميعا .. أعطانا العالم وهذه الشمس المشرقة .. أعطانا الاب والام والاخ .. والاخت .. أعطانا العم والخال . . أعطانا البيت والارض المزروعة والنار الدفيئة .. ووهبنا الفراش ..

ماأجحد الناس لهذا الرب!! لقد أعطى من كل شيء فلم يسعد أحدا .. اننا جميعا كهذا الطفل الصغير الذى أرقدته الانفلونزا . كلنا نقول له .. اعطنا كعكا .. وأن يكون هذا الكعك محشوا بالزبيب » .

وتنهد الرجل تنهدا عميقا وقال لعميله عندما استجمع أنفاسه : « لاياسيدى .. ليس عندى هذا الكعك .. المحشو بالزبيب » .

وراح البائع يتحرك فى محله نافد الصبر، غاضبا غضبا شديدا رائعا . وتناول أول الامر كيسا من الورق فنفضه ليفتحه ، وبدأ يلقى فيه مما عنده قائلا : « هذا برتقال .. جميل جدا .. هذا تفاح .. رائع وهذه الموزة . . طيبة تماما » وامتلأ صوت الرجل رقة وتلطفا وتبدى فيه فهم ومشاركة مخلصة للعميل ولابن أخيه المريض، وقال له وهو يناوله الكيس: « خذ هذا للصبى الصغير فقد يكف عن البكاء .. خذ هذه الاشياء الطيبة ولاتدفع لى شيئا فأنا لاأريد مالا » ثم توقف لحظة وراح يكرر عليه : « أنا ليس عندى هذا الكعك .. المحشو بالزبيب » .

فقال الرجل : « انه يبكى غاضبا جدا ويصيح يطلب كعكا فيه زبيب .. فشكرا لك . لقد أحضرنا له التفاح والبرتقال .. وهذه الاشياء الاخرى . . » ووضع الرجل الكيس على المنضدة

مكملا حديثه :« ان الصبي المريض لايريد شيئا آخر الا الكعك المحشو بالزبيب .. أما البرتقال والتفاح .. فهذه كلها لاترضيه .. لايريد الا الكعك .. بعد اذنك .. سأذهب لاسأل فى محل آخر .. فقد يكون عندهم » .

قال صاحب المحل : حسنا ياصديقى .. اذهب .. واسأل فى محل آخر .. ولكنى أؤكد لك انه لن يكون عندهم .. فان أحدا لايوجد عنده هذا الذى تريد » .

وغادر العميل المحل فى شىء من الخجل ووقف البائع وراء منضدته ينظر ، لحظة طويلة ، محملقا فى صبيه ، ثم بدأ فجأة يحدثه متكلما بالارمينية ، لغته القديمة الخاصة :

ـ لقد جن العالم .. ففى روسيا ، على مسافة قريبة من بلدنا ومن شعبنا الضئيل الطيب تموت ملايين الناس والاطفال جوعا .. فهم هناك فى حال يرثى لها من الجوع والعرى مشردين بلا مأوى ينامون فيه . . يضرعون سائلين لقمة من الخبز الجاف وملجأ يستكنون فيه ولو ليلة واحدة من السلام والهدوء ..

أما نحن ، فماذا نفعل هنا ، فى ايتاكا ، وفى هذا البلد العظيم ، أمريكا . ماذا نفعل نحن ؟ اننا نرتدى أفضل الثياب ، ونقوم فى كل صباح فنضع فى أقدامنا الاحذية المريحة ، ونسير فى الطرقات آمنين لايتعرض لنا من يحمل سلاحا أو من يحرق بيوتنا أو يقتل أطفالنا أو آباءنا أو اخواتنا . نحن هنا اذا أردنا نستطيع أن نركب سياراتنا وأن نتنزه بها فى الريف الجميل ، ناكل أحسن الطعام ، واذا ماجاء الليل وذهبنا الى فراشنا . . نمنا مستريحين .. ولكن مع هذا ، مع هذا كله نحن غير راضين .. ومازلنا غير قانعين . ورفع الرجل صوته يعلن لابنه هذه الحقيقة التى أدهشته وقد امتلأ قلبه له بحب كبير قاس ، وقال :« تفاح .. برتقال .. حلوى .. موز .. بالله عليك ياصغيرى لاتفعل هذا . واذا كنت أنا قد فعلت ذلك ، فأنت ابنى . أى أفضل منى ، ولابد الا تفعل مافعلت أنا . كن سعيدا .. كن سعيدا .. أنا لم أكن كذلك ولكن أنت يجب أن تكون » . وأشار باصبعه الى الباب الخلفى للمحل المفضى الى داخل البيت فتحرك الصبى الصغير طائعا وغادر المحل وقد علت وجهه مسحة من الجد ودخل الى البيت .

وانتظر البائع لحظة يحاول أن يستجمع شتات نفسه ، ولما أحس أنه هدأ وأصبح قادرا على أن يكلم يوليسس ماكولى عميله الجديد فى راحة وهدوء ، التفت اليه محاولا أن يكون مرحا بل أن يبتسم ثم قال له : هيه ٠ ٠ ماذا تريد يا يوليسس ؟

ـ بوريدج ٠

ـ من أى نوع ؟

ـ هـ ٠ و ٠

ـ هنالك نوعان من هذا يا يوليسس ، النوع العادى والنوع السريع ٠ نوعان يايوليسس ٠٠ بطىء وسريع ٠٠ قديم وجديد ٠٠ ماذا تريد أمك يا يوليسس ٠٠

وفكر يوليسس فى الامر لحظة ثم قال : هـ ٠ و ٠

ـ القديم أم الجديد ؟

ولكن الصبى الصغير لايعرف شيئا عن هـذا ، فاختار البائع النوع له قائلا : « حسنا ٠٠ النوع الجديد أفضل ٠٠ ثمانية عشر سنتا يا يوليسس ٠ »

فمد يوليسس ذراعه للرجل وفتح له قبضته فأخذ منه ربع الدولار ورد له بقية النقود قائلا: ثمانية عشر سنتا وهذا هو الباقى ، شكرا يايوليسس ٠

ـ حاضر ٠٠ يا سيدى ٠٠

وأخذ يوليسس علبة الطعام الملفوفة وسار مغادرا المحـل ٠ وفى الطريق أحس أن هـذه الامور كلها صـعبة لا يستطيع فهمها ٠ ففى أول الامر هـذا المشمش على الشجرة ، ثم هـذا الكعك المحشو بالزبيب ، وهذه اللغة الغريبة التى يتحدث بها الرجل لابنه ٠٠ غير أن هذا كله مع ذلك جميـل رائع ٠ ورفع الصبى قدمه يرفس بها الارض كدأبه كلما أحس السرور والفرح ، ثم انطلق فجأة يجرى الى البيت وهو يحمل لأمه ما أعطـاه له البائع ٠

- ٢٦ -

لن تخلو الحيـاة من الالم

أعدت مسز ماكولى مكانا على مائدة المطبخ وراحت تنتظر مجيء ابنها هومير كى يتناول افطاره ، ولما دخـل هو المطبخ كانت قد أعدت أناء البوريدج ووضعته على المائدة . والقت الأم على ابنهـا نظرة سريعة ولكنها كانت كافية لان تعرف أنه ما زال مثقلا بتجربة الحلم الغريب التى مرت به فى الليلة الماضية . فعلى الرغم من أنه لا يعـرف أنه قد بـكى وهو نائم ، فان روحه تبـدو مثقلة مستكنة سكون النفس بعد حزن عميق ، ويبـدو على صـوته أنه قد أصبح أكثر لطفا وأبعد عمقا .

وقال هومير : أنا لا أريد أن أتأخر فى النوم هكذا .. لقـد أصبحت الساعة التاسعة والنصف تقريبا .. ولا أدرى ماذا حدث لجرس المنبه .

ـ ولكنك تشتغل كثيرا ويجب أيضا أن تستريح ٠

ـ أوه ليس العمل متعبا جدا ٠٠وعلى أية حال فغدا الأحد ٠٠

وبدأ هومير يتلو صلاة الصباح ولكنها على غير العادة بدت طويلة جدا ٠ فلما فرغ منها التقط ملعقته وشرع يأكل ،ولكنه توقف فجأة وراح يتفحص ملعقتـــه فى يده بنظرة غريبة شاردة ،وتطلع الى أمه المشغولة عنـد حوض المطبخ وقال : أمى ٠

فأجابته مسز ماكولى دون أن تدير ظهرها : نعم يا هومير ٠

ـ أنا لم أحدثك ليلة أمس عندما عدت من العمل لاننى لم أكن قادرا ، كما قلت مـــرة ، على أن أتكلم ٠ ولقد وجدت نفسى أبـكى فجأة وأنا فى الطريق بالامس ٠ وأنت تعرفين أننى أخجل من البكاء واننى لم أعتد أن أبكى لا عندما كنت صغيرا ولا عنـــدما كبرت وذهبت الى المدرسة !! أنت تعرفين أننى لا أبكى حتى عنـدما أكون منزعجا مضطربا ٠ بل يوليسس أيضا ٠٠ لا يبكى ٠٠ فما جدوى البـــكاء على أية حال ٠ غير أننى بالامس لم أستطع أن أمنع نفسى فبكيت ، ولكنى لا أتذكر أننى خجلت من نفسى ٠٠ لا لا أظن أننى أحسست بذلك ٠ الا أننى لم أســتطع أن أجىء الى البيت مبـــاشرة وأنا أبكى هكذا ٠٠ فركبت الى مصانع نبيذ ايتاكا ٠ ولما وجدت نفسى ما زلت أبـكى عبرت المدينة كلها الى المدرسـة العليا ٠ ولقد مررت فى طريقى الى هنـــا ببيت كان أصـــحابه يحتفلون ويمرحون فى أول المساء ٠٠ أما الآن فبيتهم مظلم حزين ٠٠ لقد حملت لهم برقيـة ٠٠٠ وتعرفين أنت أى نوع أقصد ٠٠ وفى الطريق وانا عائد رحت أدور فى الطرقات أتطلع فى كل شىء ٠٠ فى هذه المبانى وكل هـــذه الاماكن التى عرفتها طوال حياتى مليئة حبة باولئك الناس جميعا ٠ واحسست اذ ذاك أننى أرى ايتاكا حقا وأننى أعرف كل هؤلاء الناس فيها ، وأعرفكم هم قوم طيبون خيرون ، وشعرت بالاسف والحزن عليهم ،فصليت ضارعا أن يجنبوا الاحـــداث ٠٠ وبعـد ذلك خفت دموعى وكففت عن البكاء ٠ وقلت لنفسى اذ ذاك ان المرء لا يبـكى أبدا اذا ما كبر ، بل يبـــدو لى أنه لا يبكى الا وهو يبدأ حيـاة الكبار ،عندما يبدأ أن يفهم ويعرف ماحوله من أشياء ٠

وتوقف لحظة عن الحديث، وعندما بدأ يتكلم من جديد كان صوته قد أصبح أكثر غموضا وحزنا عما كان من قبل :

ان المرء لايتبين فى الدنيا الا الشر والحزن .

وانتظر أن تجيب أمه ولكنها لم تتكلم ، بل لم تنصرف عما فى يدها من عمل، فعاد يقول: أمى، لماذا ؟

فأجابته مسز ماكولى من غير أن تدير ظهرها :

ستعرف بنفسك ، فلن يستطيع أحد أن يخبرك . ولكل انسان طريقته الخاصة فى معرفة هذا ، فلئن رأى الدنيا مؤسفة محزنة ورأى هذا الأسى الذى فيها نبيلا مجيدا أو اعتبره عبثا تافها ، فانما هو وحده الذى يجعلها كذلك . ولئن رأى آلامها غنية مليئة بالجمال والروعة ، فليس هذا كله فى الاشياء من حوله ، بل فيه هو نفسه ، وهكذا : انما تكون الدنيا قبيحة أو مؤسفة مؤسية لان الانسان الذى يراها هو مثلها ! ان كل انسان مناهو العالم بأكمله، وفى يده وحده أن يصنعه كما يريد، وان يملأه بجنس من الناس يحبه، اذا كان قلبه يملؤه الحب ، والا يسكن فيه الا جنسا عليه أن يكرهه ويبغضه ، مادام هو نفسه لايحمل الا الكراهية والبغضاء .. ان العالم موجود هكذا يتوقع من كل ساكن فيه أن يغيره وأن يعيد ترتيبه كما يعد الفراش فى كل صباح أو ينظم البيت حول سكانه الدائمين ، وهم هم أبدا متغيرون دائما .

وخرجت الأم بما فى يدها من عمل الى شرفة البيت الخارجية ، وظل ابنها يتحدث اليها على الرغم من انه لم يعد يراها .

ـ ولكن لماذا بكيت يا أمى هكذا بالأمس .. اننى لم اعرف أبدا هذا الشعور من قبل، ولست أستطيع أن أفهمه .. لماذا لم أستطع أن أتكلم حتى بعد أن جفت دموعى .. نعم .. لماذا صمت هكذا ولم أجد ما أقوله .. لماذا لم أستطع أن أتحدث الى نفسى أو أن أكلمك انت ؟

وأجابته مسز ماكولى فى صوت واضح جدا فلم يخطىء كلمة واحدة من كلماتها :

ـ لقد بكيت من الشفقة لا على شخص يتألم بالذات ، بل على الأشياء جميعا ،

لقد بكيت شفقة بطبيعة الاشياء ذاتها . وما لم تعمر الشفقة قلب الانسان فلن يكون انساناً حقا ، فمنها وحدها يخرج البلسم الذى يشفى ويبرىء الجروح . ان الأخيار وحدهم هم الذين يبكون ، وان لم يبك الانسان لما فى هذه الدنيا من ألم فالطين الذى يسير عليه أفضل منه وأنقع . فان هذا الطين يطعم البذور والجذور والسوق والاوراق والزهور ، أما القلب الذى خلا من الشفقة فمجدب ممحل لن ينبت فيه شىء ، ولن تنمو فيه الا كبرياء تدفع صاحبها الى طريق من الجريمة والقتل ، قتل يعدو على ما فى الدنيا من أشياء خيرة جميلة ، بل قد يعدو حتى على حياة الناس .

وعادت مسز ماكولى الى حوض المطبخ وشغلت نفسها بعمل جديد! ولم يفت هوميير أن يدرك أنها تريد فقط ان تشغل نفسها ولو بعمل لا ضرورة له .

ولكنها واصلت حديثها له قائلة : لن تخلو الحياة من الألم ابدا ، وليس معنى هذا أن ييأس الانسان أو أن يفقد الأمل . فان الانسان الخير سيظل يحاول دائما ان يخلص الأشياء مما فيها من ألم ، أما الأحمق فلن يلحظ وجوده الا فى نفسه هو . ولكن الشرير هو الذى يدفع الألم فيها ويزيده عمقا وينشره حوله اينما ذهب . ومع ذلك فكلهم جميعا أبرياء ، الشرير والاحمق والخير ، فلم يقدموا العالم بارادتهم ولم يقدموا فرادى معزولين من العدم ، بل انما هم أبناء عوالم كثيرة ونتاج أجيال مختلفة عديدة . ان الشرير برىء لأنه لا يعرف أنه كذلك ، ولا بد علينا ان نظل نغفر له فى كل يوم ، وأن نظل نحبه دائما ، فان فى هذا الشرير شيئا من كل واحد منا ، وفى كل واحد مناشىء منه ، انه منا ونحن منه ، ولن يستطيع أحد ان ينفصل أو ينعزل عن الآخر . ان صلاة الفلاح الريفى هى صلاتى ، وجريمة القاتل جريمتى أنا . وأنت بالأمس بكيت لأنك قد بدأت تعرف هذا كله .

وصب هوميير ماكولى اللبن فى اناءه ، وبدأ يتناول افطاره ، وقد أحس فجأة انه لا ضير عليه ولا حرج اذا جلس لطعامه يأكل .

- ٢٧ -

كل هذه الاخطاء الرائعـــة

دخل يوليسس ماكولى ومعه خير أصدقائه ليـونيل كابوت العظيم، مطبخ بيت ماكولى، ووقفا معا ، لا تستطيع العين أن تخطىء ما بينهما من صداقة على رغم ما بين عمـريهمـا من فرق ست سنوات طوال ٠ وراحا يتحركان معا ويقفان معا كما يفعل خيـر الاصدقاء ،في بساطة ويسر دون حاجة الى أن يتبادلا الحديث أو أن يكلم الواحد منهما الآخر ٠

وقال ليونيل أخيرا : مسز ماكولى ، لقد جئت أستاذنك فى أن تسمحى ليـوليسس أن يذهب معى الى المـكتبة العـامة ، فعندى كتـاب لأختى ليليان ، على أن أعيده للمكتبة ٠

ـ لا مانع يا ليونيل ٠٠ ولكن لماذا تركت الاولاد الآخرين ٠٠ أوجى ٠٠ وآلف وشاج ٠٠

ـ هم الذين ٠ ٠٠ ـ وتوقف ليونيل مرتبكا لحظة ثم استأنف من جديد : « هم الذين طردونى ، فهم لا يحبوننى لأننى لا أفهم » ٠

وتوقف من جديد ينظر لأم صديقه ثم قال : أنا لست غبيا يا مسز ماكولى ، أليس كذلك ؟

ـ لا ياليونيل ٠٠ ابدا ٠٠ انك أفضل الاولاد الذين حولنا جميعا ٠٠ ولكنى لا أريدك أن تغضب من الاولاد الآخرين ٠٠ فهم ايضا أولاد طيبون ٠٠

ـ انى لست غاضبا منهم ٠٠ بل أنا أحبهم واحدا واحدا ٠٠ ولكنى فى كل مرة أخطىء خطأ بسيطا يطردوننى من اللعب ٠٠ بل قد يشتمونني يامسز ماكولى ٠٠ انهم يغضبون جدا من كل خطأ بسيط أقع فيه ويقولون لى « كفى ياليونيل » ٠ وعندما اسمعهم يقولون هذا اعرف أن الوقت حان لكى أتركهم ٠ انى أحيانا لا أبقى معهم أكثر من خمس دقائق ، بل قد يكون اول شىء افعله عندما أكون معهم خطأ لا يرضون عنه ، وعند ذاك يقولون لى : « كفى ياليونيل » دون أن اعرف ماذا فعلت أو كيف أخطأت،ودون أن يقولوا لى ماذا يريدوننى أن أفعل ٠ أنا لا أريد أن أعرف الا هذا ، ولكنهم لا يرضون أبدا أن يقولوا لى ٠ انهم يطردوننى كل يوم سببت من صحبتهم ، ولا يرضى أن يصاحبنى الا يوليسس فهو صديقى الوحيد ٠ ولكنى أعرف أن الآخرين سيأسفون لذلك فى يوم من الايام ٠ ففى وقت من الاوقات سيقدمون الى ويريدون منى أن أساعدهم ٠٠ ولن أتأخر أنا عن ذلك يا مسز ماكولى ٠٠ وعند ذاك سيأسفون هم لانهم كانوا يطردوننى دائما ٠٠ هل أستطيع أن أشرب شيئا من الماء ؟

ـ طبعا ياليونيل ، وملأت له مسز ماكولى كوبا من الماء ، فجرعه الصبى فى عطش وتلذذ محدثا ذلك الصوت الذى يصدر عن الاطفال دائما ، ومازال الماء بالنسبة لهم أفضل شراب فى العالم ٠

والتفت ليونيل الى صديقه يسأله : « ألا تريد أنت ايضا أن تشرب يا يوليسس ؟ »

وهز يوليسس رأسه موافقا،فملأت له مسز ماكولى قدحا وأعطته اياه ٠وانتظر ليونيل حتى شرب صديقه ثم قال : « سنذهب

نحن الآن اذن الى المكتبة العامة » وسار الصديقان معا خارجين من البيت ٠

وكان هومير ماكولى ما زال جالسا الى افطاره يرقب أخاه الصغير وهو يتناوله ، فلما خرج الصبيان التفت الى أمه يسألها : « هل كان ماركوس وهو صغير يشبه يوليسس ؟ »

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أقصد هل كان هكذا ٠٠ كيوليسس مهتما بكل شىء يقظا متطلعا دائما ٠ هل كان مثله هكذا لا يتكلم ولا يقول شيئا ولكنه يفهم ويجد فى كل شىء حوله ما يسره ويفرح به ، ويكون على استعداد دائما لان يحب أى انسان وأن يكون محبوبا من الناس جميعا ٠ أنه لا يعرف من الكلمات الا عددا قليلا جدا وما زال لا يستطيع الكتابة ، ولكن يكفى للمرء دائما أن ينظر اليه كى يفهم ماذا يريد أن يقول ولو لم ينطق بكلمة واحدة ٠٠ هل كان ماركوس مثله هكذا ؟

ـ على أية حال ٠٠ يوليسس وماركوس أخوه ، فلا بد أن يكون فى يوليسس شىء من ماركوس ٠٠ ولكنهما مع ذلك ليسا متشابهين تماما ٠

ـ ان يوليسس هذا سيصبح رجلا عظيما فى يوم ما ٠٠ أليس كذلك ياأماه ؟

فأجابته مسز ماكولى وهى تبتسم : لا ٠٠ لا أظن ذلك ٠٠ أو على الاقل لن يكون عظيما فى أعين الناس ، ولكنه بالطبع سيكون دائما عظيما ٠٠ لانه كذلك الآن ٠

ـ وماركوس يا أماه ٠٠ ألم يكن عظيما هو الآخر عندما كان صغيرا ؟

ـ أنتم جميعا تتشابهون فى أشياء كثيرة ٠٠ ولكنكم لا تتشابهون تماما ٠٠ فلم يكن ماركوس قلقا هكذا مثلك ، وأنا لا أقصد أنه لم يكن قلقا أبدا ، فقد كان قلقا بالطبع ولكن على طريقته الخاصة ٠ ولم يكن كيوليسس يحب أن يلقى الناس وأن يتفرج عليهم ، بل كان خجولا يفضل أن يظل وحده ، ويحب

القراءة وسماع الموسيقى أو الجلوس صامتا من حولنا ، أو ينطلق في نزهات طويلة على قدميه .

ـ ولكنني متأكد على أية حال أن يوليسس يحب ماركوس جدا .

ـ ان يوليسس يحب كل انسان في هذا العالم .

ـ ولكني متأكد أنه يحب ماركوس حبا خاصا ، بل اننى أعرف أيضا لماذا ؟ فانه يخيل الى أن ماركوس ما زال طفلا على الرغم من أنه في الجيش ، وأعتقد أن الطفل يبحث دائما في كل من يلقى من الناس عن طفل مثله ، فاذا ماوجده في شخص يافع فانه يحبه أكثر من أي أحد آخر . ولكم أتمنى أن أبلغ من الرجولة بقدر مافي يوليسس من طفولته ... انني أعجب به وأقدره أكثر من اعجابي وتقديري لاي شخص آخر من غير أسرتنا . هل قص عليك ماحدث له بالامس ؟

ـ لا ، انه لم ينطق بكلمة واحدة عن ذلك ، انما أوجى هو الذي جاء وقص الامر علينا .

ـ ولكن ماذا قال عندما عدت به الى البيت من مكتب التلغراف .

ـ لم يقل شيئا .. جلس يستمع للموسيقى ثم تناولنا العشاء ... وعندما كنت أضعه في الفراش غمغم « كريس الضخم » . ونام مباشرة دون أن يقول شيئا آخر . ولم أعرف أنا من كريس الضخم هذا حتى حكى لي أوجي .

ـ كريس الضخم ، هو الذي خلص يوليسس من الفخ ، وبعد ذلك دفع لكوفنجتون عشرين دولارا ثمنا لهذا الاختراع السخيف لانه كان قد تحطم تماما . ان الرجل يقول انه فخ ولكني لا أعتقد ذلك ، ولا أظن انه يستطيع أن يمسك به شيئا في هذه الدنيا الا يوليسس فحسب ، فأين هو هذا الحيوان الذي يترك نفسه ليقع في مثل هذا الشيء المعقد .. ولكن قولي لي .. من أقرب الناس شبها بيوليسس ؟

ـ أبوه ...

ـ هل عرفت أبى وهو صغير؟

ـ لا لم أعرفه .. فهو يكبرنى بسبع سنوات .ولكن يوليسس الآن يشبه أباك تماما فى تصرفاته طوال حياته ...

وملأ مسز ماكولى فجاة شعور من السعادة الغامرة يطغى على كل ماحدث وكل ماقد يحدث ،فتنهدت قائلة :

ـ لقد كنت سعيدة الحظ دائما، وانى أشكر الله على هذا . فان كل أطفالى ، الى جانب أنهم أطفال ، فيهم صفات الانسانية ، وكان من الممكن أن يكونوا مجرد أطفال فحسب ،فلا تكمل سعادتى ولا أكون حسنة الحظ حقا .بالامس بكيت أنت لانك انسان ، ولانك واحد من الملايين أمثالك فى هذا العالم . لقد بكيت لان تجربة الحياة ومافيها من مغامرة قد بدأت بالنسبة اليك ، وعلى الرغم من ان هذا العالم ملىء بما يصعب فهمه من الطيب والخبيث ، والجميل والقبيح ،والسمح ، والقاسى ،فانه ليس الا شيئا واحدا . انه عالم واحد يعيش فيه الناس...

وتوقفت لحظة تنظر لابنها ثم عادت تقول :

ـ ولقد بكيت بالامس أيضا وأنت نائم ! .

فقال هومير وقد ذهل لانه لم يشعر بذلك : حقا ؟

ـ نعم .. وقد أيقظ بكاؤك يوليسس فجاء وأيقظنى .. وعندما سمعتك عرفت أنه ليس أنت الذى يبكى ...

ـ ماذا تقصدين .. ؟

ـ اننى أعرف هذا النشيج ،فلقد سمعته من قبل . لم يكن هذا نشيجك ولا نشيج أى انسان آخر ، انما العالم كله هو الذى يبكى . لقد أدركت أخيرا مافى العالم من أسى، وسلكت الطريق وليس أمامك بالطبع الا العثرات. . كل الاخطاء الرائعة التى سترتكبها لامفر منها . أحب أن أجابهك أثناء افطارك هذا وفى ضحوة هذا النهار بما قد يجن أى واحد منا عن أن يقوله فى ظلمة الليل العذبة الساكنة .ان روحك مازالت نضرة من أثر هذا النوم وهذا الاسى ، وهذا شىء لامفر من أن أقوله لك . أريد أن أقول لك انه مهما كانت الاخطاء التى لابد أن ترتكبها فاياك أن تفزع منها

ولامن ارتكاب أخطاء كثيرة غيرها . ثق دائما أن قلبك على حق ، فهو قلب طيب ، وواصل سيرك ، لاتقف أبدا . واذا ماعثرت من خداع الناس وحيلهم أو من خطئك أنت ، فلاتتراجع أبدا بل قم سريعا وسر . ستمر عليك أوقات كثيرة تضحك فيها وستعرض لك فترات كثيرة تبكى فيها ، ولكنك ستظل دائما تبكى وتضحك فى الوقت نفسه ، ولن تكون لديك لحظة واحدة فى حياتك تستطيع فيها أن تكون وضيعا تافها . فهذا شىء هو أدنى منك ، لايليق بتوثب روحك ولايمكن أن يقف فى سبيل مراميك وأغراضك !! .

وابتسمت مسز ماكولى ووقفت الى جانب ابنها شاعرة بشىء من التحرج والارتباك ، ثم قالت : اننى آسفة أن أظل هكذا ليلا ونهارا أردد عليك أشياء أعرف تماما ان الانسان لايحب أن يقولها له أحد الا نفسه .. فهل تغفر لى .. ؟

ولم يستطع هومير أن يقول شيئا آخر الا « أوه .. أماه ! » وهو يترك مائدة الطعام - جاجلا على قدمه المريضة حتى النافذة . وراح يتطلع من هناك الى الارض الفراغ يرقب أوجست جوتليب ورفاقه وقد انصرفوا الى لعب الكرة .

ـ ماذا حدث لقدمك ؟

ـ أوه .. لاشىء .. قد انزلقت .. ـ ولم يدر هومير ظهره ولكنه واصل حديثه قائلا : « أماه .. أتعرفين .. اننى أعتقد أنك أروع انسان يمكن ان يعرفه المرء » !! وانطلق فجأة يضحك من شىء لاحظه فى اللعب وقال : « هذا أوجى يصيب المرمى من جديد . ولم يعد هذا اللقب لى أنا ... انى ذاهب الى مكتب التلغراف .. فقد قلت اننى سأعود ، اذ ربما يحتاجون الى .

واستدار منصرفا ولكنه توقف فجأة قائلا : « آه .. لقد كدت أنسى .. ان مستر جروجان .. انك تعرفينه ، عامل نوبة الليل ، قد أكل من الساندويتش الذى أرسلته لى بالامس مع بس . وقد كلفنى أن أشكرك .. ابلغك اذن شكر مستر جروجان !!

وغادر هومير البيت وسمعته أمه وهو يضرب اطارات عجلته أكثر من مرة ليتأكد انها منفوخة ، ثم رأته وهو يركبها دائرا حول البيت منجها الى مكتب التلغراف ، وأدارت هى بصرها الى المقعد

الذى كان يجلس عليه قرب المائدة ورأت هناك ماتيوماكولى . كان جالسا هناك كابنه هومير تمامايتفحص ملعقته ، وبعد لحظة رفع عينيه اليها قائلا: كاتى ـ..

ـ نعم ياماتيو ..

ـ كاتى .. ان ماركـــوس سيلحق بى ..

وساد الصمت لحظة ثم قالت كاتى : نعم .. أعرف ..

وعادت الى عملها ...

- ٢٨ -

فى المكتبة العـــامة

سار الصديقان العزيزان ليونيل ويوليسس متجهين ناحية المكتبة العامة ، فرايا على الناصية التالية امامهما موكب جنـــازة يخرج من كنيســـة ايتاكا البرسبتيرية ، وشاهدا حاملى النعش وهم يحملون النعش البسيط الى عربة قديمة على باب الكنيسة ، وقد سار خلفهم نفر قليـــل من المشيعين .

وقال ليونيل : تعال يا يوليسس .. هذه جنازة .. لقد مات أحد الناس ، وامسك بيده وجرى حتى أصبحا فى قلب المنظر كله .

وهمس ليونيل : « هذا هو النعش .. وفى قلبـه ميت . لو أعرف من الذى مات ! انظر الزهور ، فعندما يموت النـــاس يحملون لهم زهورا .. واولئك الذين يبكون .. اولئك لابد انهم كانوا يعرفونه » .

والتفت ليونيل الى رجل وجده لم ينخرط تماما فى البكاء ، ولم يفعل الا أن مسح أنفه ومس عينيه بمنديله ، فتجرأ يسأله : « من الذى مات ؟ »

ـ انه المسكين جونى مرى ويزر الاحدب .

فردد ليونيل على يوليسس : أنه المسكين جونى مرى ويزر الاحدب .

ـ قد مات وعمره سبعون سنة .

فكرر ليونيل على يوليسس : مات وعمره سبعون سنة .

واستمر الرجل يقول : لقد ظل يبيع الفشار ثلاثين سنة على ناصية تلاقى شارع مارى بوزا بشارع برودواى .

ـ كان يبيع الفشار على ناصية ... ولكن ليونيل توقف فجأة ونظر للرجل ثم قال له وهو يكاد يصرخ :

« أتقصد بائع الفشار ؟ »

ـ نعم .. جونى مرى ويزر .. قد استراح الراحة الكبرى .

فصاح ليونيل : اننى اعرفه .. لقد وهبنى شيئا من الفشار مرات كثيرة .. هل مات .. ؟

ـ نعم ، مات فى سلام وهو نائم ، ذهب الى خالقه .

فقال ليونيل وهو يكاد يبكى : اننى اعرف جونى مرى ويزر .. لم أكن أعرف أن اسمه جونى مرى ويزر ، ولكنى كنت أعرفه . والتفت الى يوليسس ورفع ذراعه حول صديقه وهو يكاد يبكى : انه جونى .. جونى مرى ويزر .. ذهب الى خالقه ... واحد من خير أصدقائى .. استراح الراحة الكبرى ..

وتحركت العربة مبتعدة ولم يمض الا قليل حتى لم يعد أمام الكنيسة أحد الا ليونيل ويوليسس . كان ليونيل يحس أن هناك شيئا من عدم اللياقة فى مغادرة المكان الذى عرف فيه أن الرجل الذى مات وضمه النعش كان رجلا يعرفه وان لم يكن يعرف أن اسمه جونى ويزر . ولكنه قدر أخيرا على أية حال أنه لا يستطيع أن يظل واقفا هكذا أمام الكنيسة حتى ولو كان هذا الذى مات قد وهبه من الفشار مرات كثيرة . فتحرك متفكرا فى الفشار يكاد يستشعر طعمه فى فمه ، وانحدر هو وصديقه يوليسيس ميمما صوب المكتبة العامة .

وبمجرد أن دخل الصبيان هذا المكان المهيب على تواضعه ضمها مجال من الصمت والسكون كاد يبعث فى نفسيهما شيئا من الخوف والفزع ، وأحسا كأنما الحيطان وهذا السقف وهذه المقاعد قد خرست جميعا ، وان الصمت ساد كل مافى البناء فأغرقه . وشاهدا أمامهما شيوخا يقرأون الجرائد وفلاسفة المدينة جالسين ، وصبية المدرسة العليا وبناتها يبحثون . ولكنهم جميعا فى سكون وصمت يجدون بحثا عن الحكمة ، وأصبحوا فى حمى الكتب يحاولون جاهدين أن يعرفوا . ولم يكف ليونيل بأن يهمس لصديقه فى حديثه اليه ، بل سار على أطراف أصابعه لامراعاة للقراء ، بل احتراما لكل هذه الكتب . وحذا يوليسس حذوه فسار على أطراف أصابعه ، وراحا معا يستكشفان المكتبة ، وقد وجد كل منهما فيها كنوزا مختلفة ، فشغل ليونيل بالكتب ويوليسس بالناس . وليس ليونيل بقارىء ، بل لم يحضر الى المكتبة ليستعير شيئا من كتبها !! انه لايحب الا أن يتفرج عليها وأن يرى كل هذه الآلاف منها . وأشار لصديقه الى صف من الكتب على الرفوف وقال هامسا : كل هذه .. وهذه . وهذه .. أنظر . . هذا واحد أحمر . . هذه جميعا .. وهذا آخر أخضر .. أنظر كل هذا ..

ورأت مسز جالاهر أمينة المكتبة العجوز ، الصبيين أخيرا فذهبت اليهما ، ولكنها لدهشتها لم تهمس بل تكلمت اليهما بصوتها العادى ، وكأنما ليسوا فى مكتبة عامة . وصدم ليونيل من هذا ورفع بعض القراء أعينهم عن صفحات كتبهم ولكنها سألت ليونيل :

ـ ما الذى تبحث عنه يابنى ؟

فأجاب ليونيل هامسا فى رقة : كتب ...

ـ أى كتب ؟

ـ كلها !

ـ كلها ؟ .. ماذا تعنى ، انك لاتستطيع أن تستعير الا أربعة كتب فى استعارة واحدة .

ـ أنا لاأريد أن أستعير منها شيئا .

ـ ماذا بالله اذن تريد منها ؟

ـ أريد أن أتفرج فحسب !

ـ تتفرج ٠٠ ؟! ان المكتبة العامة لم تفتح لهذا ٠٠ انك تستطيع أن تفتح الكتب وأن تتفرج على الصور التى فيها ٠ ٠ ولكن ماذا تريد من مجرد الفرجة على ظهورها ؟

ـ أنا أحب هذا ٠٠ أليس مسموحا ؟

ـ ليس هناك قانون يمنع هذا!

ونظرت الى يوليسس وسألته: ومن هذا ؟

ـ هذا يوليسس ٠٠ انه لايعرف القراءة ٠٠

ـ وأنت ؟ ٠٠ هل تقرأ ؟

ـ لا ٠٠ أنا أيضا لاأعرف ٠٠ ولهذا نحن أصدقاء ٠٠ هو الوحيد الذى لايعرف القراءة بين من أعرف جميعا ٠

ونظرت أمينة المكتبة العجوز الى الصديقين ومر بذهنها مايكاد يكون نطقا بلعنة خفيفة ، فهذا أمر جديد تماما لم يمر بها مثله من قبل طوال خبرتها الطويلة بالمكتبة العامة ، ولكنها قالت :

ـ من يدرى ٠٠ قد يكون من الافضل أنك لاتستطيع القراءة ٠٠ وقد ظللت أنا أقرأ طوال ستين عاما مضت ، ولاأرى الآن جدوى هذا ٠٠ اذهب ٠٠ اذهب يابنى ، تفرج على الكتب كما تريد !!

ـ فليكن ٠٠ ياسيدتى ٠٠

وتحرك الصديقان منطلقين فى عوالم أوسع من المغامرة والغموض، وعاد ليونيل يشير ليوليسس الى مجموعة أخرى من الكتب: « وهذه ٠٠ يايوليسس التى هناك ٠٠ أنظر ٠٠ هذه كلها كتب » ٠٠ وتوقف لحظة مفكرا ثم قال مشيرا الى رفوف خمسة مليئة بمجموعة كبيرة منها : اننى أتعجب ماذا يقولون فى كل هذه الكتب ٠٠ انظر ٠٠ كل هذه ٠٠ ماذا ياترى فيها ؟ »

واكتشف أخيرا كتابا يبدو من الخارج جميلا جدا ، قد تغطى بجلدة خضراء كالعشب النضر : وهذا يايوليسس ٠ ٠ أليس جميلا ؟ »

وفى شىء من التوجس والخيفة مد ليونيل يده مذهولا لما يفعل ، وشد الكتاب من الرف وحمله فى يده برهة ثم فتحه قائلا :

« يوليسس .. أنظر .. كتاب .. ها هـو .. أنظر . انهم يقولون شيئا .. هنا » ومد أصبعه مشيرا الى هذا الشيء فى الكتاب وعاد يقول : « هذه ألف .. هنا .. هنا ألف .. وهذه .. لابد أن يكون حرفا آخر ولكنى لا أعرف اسمه . ان كل حرف يايوليسس هو غير الآخر .. وكل كلمة هنا مختلفة عن الاخرى »

وتنهد ليونيل ناظرا الى الكتب واستمر يقول : « ما أظن أننى سأتعلم القراءة أبدا .. ولكنى مع ذلك أحب جدا أن أعرف ماذا يقولون هنا .. أنظر .. صورة .. صورة بنت .. أتراها ؟ .. أليست جميلة .. » وتوقف يقلب صفحات كثيرة من الكتاب : « أترى ؟ حروفا أخرى وكلمات جديدة .. هكذا حتى آخر الكتاب . هذه هى المكتبة العامة يايوليسس .. والكتب هنا فى كل مكان ! »

وراح ليونيل يتأمل حروف الكتاب فى شيء من الاحترام والرهبة ، ثم راح يغمغم لنفسه وكأنما يحاول أن يقرأ ، ولكنه سرعان ما شعر بأن التجربة لاتقنعه ، فهز رأسه أسفا وقال : انك لا تستطيع يايوليسس أن تعرف ماذا يقول الكتاب حتى تقراه .. وأنا لا أستطيع أن أقرأ .

وأغلق الكتاب فى بطء وأعاده الى مكانه ، وتسلل الصديقان على أطراف أصابعهما وغادرا المكتبة . وفى الخارج وقف يوليسس يرفس الارض بقدمه ، فقد كان مسرورا يحس أنه عرف شيئا جديدا .

- ٢٩ -

فى نادى المحاضرات

ترجل هومير من فوق دراجته أمام نادى ايتاكا للمحاضرات ووقف أمام البنـــاء الابيض الذى يبدو فى عمارته مزاجا من كنـــائس نيوانجلند وبيوت المهاجرين الاول أيام الاستعمار . ولما كانت الساعة قد شـــارفت الثالثة والنصف عصرا وقرب موعد البـــدء فى محاضرة السبت من هذا الاسبوع فقد رأى هومير سيدات المدينة من الاعضاء يدخلن فى مرح وجلبة باب البناء . وكن جميعا سيدات فى متوسط العمر ، أغلبهن أمهات سمينات قد تهيـــأن للمحاضرة وتشـــابهن فى منظرهن حتى اختلطن وأصـــبح من الصعب التمييز بينهن . وأخرج الساعى برقية من قبعته وراح يتأملهـــا ويقرأ العنوان عليها :

« روزالى سيمس بيبودى ، نادى ايتاكا للمحاضرات ، ايتاكا ، كاليفورنيا ، يسلم اليها شخصيا . »

وعندما دخل الساعى البهو كانت رئيسة النادى ، وهى سيدة فى أوائل العقد الخامس ، لطيفة ممتلئة ، قد قامت تقدم المحاضرة التى لم تكن قد ظهرت بعد ، ودقت الرئيسة على المنضدة بمقبض صغير لكسر الجوز، فبدأ الحاضرون يصمتون ، الا هومير ماكولى بما اضطر أن يحدثه من حركة وجلبة بحثا عن روزالى سيمس بيبودى . والتفتت اليه سيدة من السمينات اللاتى قد يزدن على مائة وستين رطلا ، وأشارت اليه وهى تبتسم فى لطف كى يقف ولا يحدث هذه الحركة .

فهمس هومير : « معى برقية لروزالى سيمس بيبودى .. تسلم اليها شخصيا »

فصححت له السيدة الاسم : روزالى سيمس بيبتى .. انها فعلا تتوقع برقية .. فانتظر هناحتى تظهر وسلمها اليها .

ـ ومتى يكون هذا ؟

ـ الآن .. حالا .. اجلس هنا وانتظر ، حتى تظهر روزالى سيمس بيبتى ، وعند ذلك تقدم الى المسرح وناد بصوت واضح « برقية باسم روزالى سيمس بيبتى .. بيبتى .. يابنى .. لابيبودى .. »

ـ حسنا ياسيدتى ..

وجلس الساعى على أقرب مقعد وانفلتت السيدة مبتعدة على أطراف أصابعها وقد ابتسمت فخورة بما أدت من أمر خطير .

وسرعان مابدأت رئيسة النادى تقول :

« سيداتى .. أعضاء نادى ايتاكا للمحاضرات .. لقد ادخر لكم النادى مفاجأة عظيمة .. فمحاضرتنا اليوم هى روزالى سيمس بيبتى .. وتوقفت الرئيسة بعد اعلان الاسم كى تسمح للتصفيق المتوقع أن ينطلق ، فلما توقف واصلت حديثها قائلة : ولست بحاجة أن أقول لكم من هى روزالى سيمس بيبتى .. فشهرتها العالمية كواحدة من أعظم السيدات فى عصرنا هذا مقررة معروفة . اننا جميعا نعرف هذا الاسم ، ونعرف عن شهرته وذيوع صيته .. ولكنى أتساءل .. أنعرف حقا سبب هذه الشهرة ؟ .. واستمرت تجيب بنفسها عن السؤال : « لا أظن ذلك » ..

وتوقفت لحظة تنظر الى صديقاتها من سيدات ايتاكا بين الحاضرين ، ثم بدأت تقص أسطورة الشخصية العظيمة ، وكأنما تحكى ملحمة لاتقل عظمة عن الاوديسة ذاتها : « قصة روزالى سيمس ببيتى قصة مثيرة للنساء خاصة . فلقد عاشت سيمس ببيتى ، وهذا هو الاسم الذى تحب أن تعرف به ، حياة فاضت بالمخاطرة والمغامرة والخطر والجمال . وعلى الرغم من ذلك فهى مازالت لاتعدو أن تكون فتاة من فتيات بريطانيا الانيقات الجريئات .. الا أنها فى الآن ذاته .. فتاة أشد من الصلب ، وأقوى من معظم الرجال . بل فى الحقيقة ، يندر بين الرجال من عاش حياة فيها من المخاطرة والمغامرة مافى حياة سيمس ببيتى » .

وتسللت الى صوت الرئيسة نغمة من الاسى وهى تواصل أسطورة البطلة النسائية العظيمة : « أما نحن ، أولئك اللاتى نسكن فى البيوت تشتغلن أمهات أو تنشئن الاطفال ، فان حياة كحياة سيمس ببيتى ليست بالنسبة لنا الا كحلم .. هو حلمنا ، نحن جميعا .. ذلك الحلم الذى ساور كل واحدة منا وقد سكنت فى بيتها تلد الاطفال وتدير المنزل . ان حياتها هى هذه الحياة الرائعة الجميلة التى كانت تود كل واحدة منا أن تعيشها لو أنها حرأت على ذلك . الا أن ارادة القدر شاءت ألا يكتب لنا مثل هذه المغامرات ، وألا يكون فى هذا العالم الا سيمس ببيتى واحدة .. واحدة فحسب » .

وتوقفت من جديد تتطلع فى وجوه صديقاتها القدامى من الحاضرين ثم قالت :

« ماذا اذن هذا الذى فعلته سيمس ببيتى وجعلها هكذا وحيدة بين النساء ؟ ان سلسلة مغامراتها مذهلة مدهشة ، ولن تستطيع واحدة منكن أن تصدق وأنا أقرؤها عليكم أنه من الممكن لاية امرأة أن تحقق كل هذا وأن تظل على الرغم من ذلك تعيش بيننا . ولكن ها هى ذى ما زالت حية ، بل ستتحدث الينا بنفسها . ان سيمس ببيتى ستتحدث الينا اليوم فى لغة بسيطة صريحة قد تصدم البعض منا . ولكن لتسمحوا لى أولا أن أستعرض هذه المغامرات باختصار ، فلو أننى أردت سردها بالتفصيل لما كفى هذا النهار كله بل لما كفى الليل أيضا ، فما خلا يوم من أيام حياة سيمس ببيتى من المغامرات والمخاطرات . انها

تخلق المغامرات حيث سارت ، بل لنا أن نتأكد أنها لن تغادر مدينتنا هذه ، ايتاكا ، المجهولة الصغيرة حتى تكون قد اكتشفت فيها أشياء مازلنا نحن أنفسنا لانعرفها . ولكن فلنعد الآن الى مغامراتها الماضية .

من عام ١٩١٥ حتى عام ١٩١٧ قادت سيمس بيبتى عربة الاسعاف فى جبهة القتال أثناء الحرب الماضية . وخلال عام ١٩١٧ و ١٩١٨ خرجت فى رحلة حول العالم مع فتاة أخرى على ظهر سفن البضاعة ومراكب الحيوانات ، سائرة على قدميها أو ممتطية أى شىء ، نازلة فى أماكن غريبة كثيرة قد تكون أحيانا مجرد أكواخ المواطنين فى البلاد التى زارتها ، وبلغ عددها سبعة وعشرين بلدا مختلفة . وعندما كانت فى الصين قبضت عليها جيوش الجنوب وهى تحاول أن تعبر النهر فى مركب شراعى بين كانتون وهانكو » .

وتوقفت لحظة حتى يتسرب للنفوس أثر هذه الكلمات السحرية ثم كررتها هامسة :

« نعم كانتون وهانكو . ولكن سيمس بيبتى هربت من أسرها مخترقة بقاربها شلالات نهر سيان فى ابان موسم المطر ، وفى وقت لايجرؤ فيه قارب آخر على القيام بمثل هذه الرحلة .

وفى عام ١٩١٩ عبرت شمال أفريقيا من مراكش الى الحبشة ، وفى عام ١٩٢٠ استخدمها قلم المخابرات السرية فى سوريا ، فالتقت وهى فى دمشق بالملك فيصل الذى ساعدها على القيام برحلة للاستكشاف فى (الكفرة) العاصمة السرية المقدسة لشيعة السنوسيين المتعصبين ، هناك بعيدا فى قلب الصحراء الليبية ، وفى بقعة لم تطأها أقدام البيض من قبل . وقطعت سيمس بيبتى ألف ميل على ظهور الجمال متنكرة فى ثياب امرأة مصرية ، وليس فى صحبتها الا نفر من أهل البلاد الخشنين الذين لا يعرفون الانجليزية » .

وبعد أن ألقت رئيسة النادى بهذه الملاحظة رفعت عينيها متطلعة الى صديقتين من صديقاتها الحميمات ، ولحظها هومير فتعجب من معنى هذه النظرة متسائلا فى نفسه: متى تفرغ من الحديث عن روزالى سيمس بيبتى ، هذه الشخصية الغريبة الخارقة .

وواصلت الخطيبة حديثها :

«وأبحرت سيمس بيبتى طوال أربعة عشر يوما هابطة فى البحر الاحمر على ظهر قارب ذى شراع واحد مع بحارة من الاعراب حتى وصلت الى ميناء جيزان المحرم ، وقد تنكرت هذه المرة فى ثياب امرأة عربية.

وفى عام ١٩٢٥ تسلقت جبال أطلس . وفى عام ١٩٢٦ سجلت ما يعد رقما قياسيا فى السير على الاقدام قاطعة مائة وألف ميل خلال بلاد الحبشة » .

وعلقت الرئيسة على هذه الحقيقة فى استهجان كبير لنفسها ولصديقاتها من ايتاكا قائلة :

« فهل نستطيع نحن أن نسير دون ضيق أو ملل ولو مسافة قصيرة كالتى بين جونشوك وحدائق رودنج ؟ »

ثم تنهدت متأسفة ولم تعرف ماذا تجيب عن سؤالها فقالت :

« مع ان هذا قد يكون مفيدا لنا »

وعادت بعد ذلك الى تقديم المحضرة متطلعة فى أوراقها تبحث عن وقفت : « ولا أواصل حديثى أقول .. فى عام ٢٨ جابت سيمس بيبتى بلاد البلقان كمراسلة صحفية لجريدة لندنية متنكرة من بلد الى بلد فى ثياب نسائه . »

وتململ هومير ماكولى ضجرا نافد الصبر متلهفا على ان يعود الى حمله فى مكتب التلغراف ، وسائل نفسه متعجبا : ولكن لم هذا التنكر المتواصل ؟.

ولكن الرئيسة واصلت تقديمها : « وفى عام ١٩٣٠ قامت سيمس بيبتى برحلة مثيرة خلال تركيا ، والتقت هناك بمصطفى كمال أتاتورك . وكانت سيمس بيبتى حينذاك متنكرة فى ثياب فتاة تركية من بنات الجبال . وقطعت ما يزيد على تسعة آلاف ميل على ظهر الحصان متنقلة خلال الشرق الاوسط كله . وعندما بلغت أذربيجان تاهت عن كثب القلاقل التى دارت بين الجيش الشيوعى الاحمر وفلاحى القوقاز . وفى عام ١٩٣١ قامت برحلة الى أمريكا الجنوبية مخترقة غابات البرازيل لا يصاحبها الا نفر من أهل البلاد! ومن الغريب أن واحدا منهم ، كما فهمت من سيمس بيبتى نفسها — كان اسمه ماكس . »

وشارفت رئيسة النادى ان تبلغ خاتمة حديثها فتنهدت قائلة

« ولكن مغامرات سيمس بيبتى لا نهاية لها ، وأنتم انما تريدون ان تروها هى وان تستمعوا اليها لا الى أنا · »

وضحكت الرئيسة الرائعة لهذا النادى الرائع ، ضحكة مكتومة من تواضعها هذا اللطيف ، فجاوبتها صديقاتها بين الحاضرات تشاركنها فى قهقهة مرحة · ولما ساد الحاضرات صمت كاف ، قالت الرئيسة فى صوت حازم مسرحى :

« سيداتى · لى الشرف الكبير أن أقدم لكن بصفتى رئيسة نادى ايتاكا للمحاضرات ·· روزالى سيمس بيبتى ! »

وتعالى التصفيق هذه المرة فى صوت مدو وتحركت رئيسة النادى الى طرف المسرح كى تحيى الضيفة الممتازة ، ولكنها كانت للأسف لم تظهر بعد · فانتهزت الحاضرات فرصة هذا التأخر وزدن فى ترحيبهن وتصفيقهن ، ومضت دقيقتان كاملتان تقريبا من التصفيق اضطرت فيهما بعض النساء الى التشكى من تألم أيديهن ، حتى طلعت عليهن أخيرا المرأة العظيمة !!

وتوقع هومير ماكولى أن يرى امرأة لم ير مثلها من قبل فى حياته ! وعلى الرغم من أنه لم يكن يستطيع أن يتخيل على أية صورة سيطلع عليه هذا المخلوق ، الا أنه كان متأكدا ان منظرها لابد أن يكون مثيرا مسليا على أية حال · وكان منظرها هكذا فعلا ، فقد كانت روزالى سيمس بيبتى باختصار ، امرأة عجوزا متسلطة ، طويلة الوجه ، لا أثر للانوثة فى وجهها الذابل ، طويلة ، معروقة ، صفراء بادية العظام ، تثير الضحك والاشمئزاز · وبالرغم من أن الوقت حان كى يسلم هومير برقيته فانه سأل نفسه عندما هب واقفا : هل هو قام لكى يوصل البرقية اليها ؟ أم هو قام دهشة لمنظرها ! وتعجب من نفسه : لم لم يندفع جاريا الى المسرح كما أمر من قبل !

واندفعت نحوه السيدة اللطيفة التى ألقت اليه بتعليماتها وراحت تدفعه قبل أن يشعر بوجودها الى الممر فى البهو ، هامسة فى صوت من الارتفاع بحيث لا يخطئه أحد : الآن ··· تقدم الآن يابنى ·· وسلم البرقية ·

وتظاهرت السيدة العظيمة وهى واقفة على المسرح بأنها لم تشعر بهذه الحركة ، وبدأت تقول : « سيداتى أعضاء نادى ايتاكا للمحاضرات · » ورن صوتها منفرا قبيحا كمنظرها تماما ، فتقدم هومير الى المسرح مسرعا وأعلن فى صوت واضح عال : برقية لروزالى سيمس بيبتى !

وقطعت المرأة العظيمة حديثها والتفتت الى الساعى فى دهشة مصطنعة ، وكأنما كان ظهوره مفاجأة كاملة لها :

ـ هآنذا يابنى ·· أنا سيمس بيبتى ·

وأعادت النظر فى الحاضرين قائلة : « معذرة ياسيداتى » ، ثم انحنت توقع له بتسلم البرقية وأخذتها من الصبى وأعطته عشرة سنتات وهى تقول : خذ هذا لك يابنى ·

وألم هومير هذا · الا أن الموقف كان كله مربكا مضحكا ، فلم يهتم أن يرفض ، وأخذ القطعة الفضية الصغيرة وأسرع على أشد الخجل والتحرج ، هابطا من المسرح مندفعا الى الخارج ، وسمعها تبدأ حديثها :

« تصادف فى عام ١٩٣٩ ، قبل نشوب هذه الحرب مباشرة ، أن كنت فى بافاريا فى مهمة سرية ، وكنت متنكرة فى ثياب بائعة لبن الزاسية · »

وفى الطريق رأى هومير على الرصيف هنرى وليامسون الذى فقد ساقيه فى تصادم قطار عندما كان شابا صغيرا · وكان الرجل قد لجأ الآن وبعد ثلاثين سنة من الحادثة الى الجلوس هكذا على الرصيف ، وقد وضع فى حجره قبعة مليئة بالاقلام الرصاصية · ولم يكن هومير يعرف اسم الرجل ، ولكنه يذكر انه رآه هكذا طوال حياته ، وانه لسبب مالم يحدث أبدا ان اشترى منه قلما أو ألقى له فى قبعته احسانا · وكانت السنتات العشرة التى أعطتها له سيمس بيبتى شيئا يريد أن يتخلص منه ، فلما رأى الرجل توقف وأسقطها فى قبعته وعاد مسرعا الى دراجته!

ولكنه ماكاد يبتعد قليلا حتى وجد بينه وبين نفسه أن مافعله لم يكن صوابا ، فدار بعجلته وعاد مسرعا حتى صار أمام الرجل الكسيح الجالس على الرصيف منذ ثلاثين سنة ، وألقى دراجته ثم سار اليه فأسقط فى قبعته هذه المرة ربع دولار من ماله الخاص ·

- ٣٠ -

فنـدق بيثل

وبعد نصف ساعة كان هومير يترجل من جديد أمام فندق بيثل على شارع العين ويدخل صاعدا فى الدرج الطويل . ولم يجد هومير فى البهو الواسع مكتبا يستعلم منه ، ولم يكن هناك الا منضدة طويلة فى أحد الاركان قد وضع فوقها زر جرس صغير وعلق على الحائط من فوقه اعلان كتب عليه « دق الجرس » . وراح الساعى يتلفت حوله لحظة ناظرا الى الابواب الكثيرة المغلقة فى هذا الفندق الصغير ، ثم راح يتأمل البرقية التى يحملها باسم « دوللى هوثورن » وتسلل الى سمعه من احدى الغرف صوت الحاكى يدور وأصوات رجلين وامرأتين يتكلمون ويضحكون . وبعد برهة خرج من احدى الغرف رجل فى نحو الاربعين من عمره ، ووقف عند الباب يتحدث مع امرأة شابة لم يظهر منها لهومير الا رأسها فحسب ، ثم أغلقت الباب فى عجل . . ورأى هومير الرجل يندفع نازلا فى الدرج بسرعة ، وقرر أخيرا أن يدق الجرس ، ففتح من جديد الباب الذى أغلق وصاحت الفتاة فى شىء أشبه بالتهلل والفرح : « سأحضر حالا

وبعد قليل خرجت اليه الفتاة ، فدهش هومير اذ رآها جميلة وفتية جدا لاتكاد تتميز عن بس أو مارى ٠

ـ معى برقية لدولى هوثورن ٠

ـ لقد خرجت الآن منذ لحظة ٠٠ هل أستطيع أن أوقع لك بدلا عنها ؟

ـ نعم ، ياسيدتى ٠

ووقعت المرأة ثم راحت تنظر نظرات غريبة الساعى ، وقالت له فجأة : « هل تستطيع أن تنتظر لحظة ؟ »

ومضت تجرى فى الدور الطويل حتى وصلت الى غرفة أخرى واختفت فيها ٠ وبينما هى فى الداخل صعد رجل فى السلم ، وجاء فوقف الى جوار هومير عند المنضدة ، وتلاقت نظراتهما أكثر من مرة ٠ ولما عادت الفتاة مسرعة كما ذهبت ، رأت الرجل ، فنادت على هومير وصحبته معها الى الغرفة التى خرجت منها أول الامر ، وهناك اشتم هومير للغرفة رائحة غريبة لم يعرفها أبدا من قبل ، بعثت فيه تقززا ٠ وناولته المرأة خطابا وهى تنظر فى عينيه مباشرة وقالت :

ـ أتستطيع أن ترسل لى هذا الخطاب ؟ انه هام جدا ، فهو مرسل لاختى ٠٠ هل تستطيع أن تأخذه الى مكتب البريد وأن ترسله بالبريد الجوى ، مسجلا ، خاصا مستعجلا ٠٠ ان أختى فى حاجة الى نقود ٠٠ والخطاب فيه نقود وليس عندى الآن طوابع ٠

وتوقفت المرأة عن الحديث حتى يستطيع هومير أن يدرك أهمية الامر بالنسبة لها ، ثم قالت : « أتستطيع أن تفعل ذلك لى ؟ »

ولسبب لايدريه عاود الساعى هذا الشعور بالمرض الغريب المفاجىء الذى أحسه عندما كان فى بيت المرأة المكسيكية التى قتل ابنها فى الحرب ٠

ـ نعم ياسيدتى ٠٠ سآخذ الخطاب مباشرة الى مكتب البريد ، وسأرسله بالبريد الجوى مسجلا خاصا ، مستعجلا ٠ ٠ سأذهب الى هناك مباشرة ٠

ـ خذ هذا الدولار اذن ، ولكن ضع الخطاب فى قبعتك ولا تدع أحدا يراه ٠٠ ولا تحدث أحدا عنه ٠٠

ـ حسنا ، ياسيدتى ٠٠ لن أقول لاحد ٠ سأذهب به الآن الى مكتب البريد ثم أعود لك بعـــدذلك ببقية نقودك ٠٠

ووضع هومير الخطاب ن قبعتهواستعد للخروج ولكنها قالتله:

ـ لا ٠٠ لا تعد ٠٠ وأسرع ٠٠ هيا الآن ٠٠ وتذكر هذا ٠٠ لاتحدث أحدا عنه ٠

ـ لن أتكلم ٠

وخرج هومير مغادرا الغرفة ،وما كاد يصل الى الدرج حتى كانت الفتاة لحقت بالرجـل الذى تركههومير عند المنضـــدة الطويلة ٠ فلما بلغ العتبة الاولى من الدرج التقى وجها لوجه بامرأة ضخمة أنيقة فى حوالى الخمسين أو الخامسة والخمســين من عمرها ٠ وتوقفت المرأة عندما رأت الساعى وقالت له مبتسمة :

ـ أمعك برقية لى ٠٠ ؟ دوللى هوثورن ؟

ـ نعم ياســـيدتى ٠٠ قد تركتها فوق ٠

ـ أوه ٠٠ انك لظريف ٠٠ ! ٠٠ أنت ســـاع جديد ، أليس كذلك ؟ ٠٠ اننى أعرف السعاةجميعا فى الشركتين ٠٠ وسترن يونيون ٠٠ والبوستال ، وهمجميعاطيبون٠٠ظرفاء معى٠٠وأنا كذلك أحبهم ٠ ٠

وفتحت دوللى هوثورن حقيبتها الغالية المحلاة بالجواهر وأخرجت حوالى عشرين بطاقة من بطاقات الزيارة وناولتها لهومير قائلة : « خذ هذه ٠٠ »

ـ ماهذا ٠٠ ماذا أفعل بها ؟

ـ انك تذهب بالبرقيات الى أماكن كثيرة ٠ ٠ كالبارات وما شابهها ٠ ٠ ولست أريد منكالا أن تترك هذه البطاقات هناك فى مكان ما ٠٠ على البار ٠٠ أوفى أى مكان آخروأنت خارج٠٠ اتركها الى جوار المسافرين ٠ ٠من الجنود والبحـــارة الذين قد يحتاجون الى غرفة يقضون فيهاالليل ٠ أليس علينا ، وهـــذه الحرب دائرة ، أن ندخل السرورعلى قلوب أولادنا مادامـــوا الى جوارنا ٠٠ ؟ ٠٠ اننى أعرفخيرامن أى أحـــد آخر وحدة أولئـــك الجنـــود الذين لايعرفون ماذاسيحدث لهم غدا ولاكيف يطلع عليهم النهار أحياء أو أمواتا ٠٠

ـ حسنا ياسيدتى ٠٠

ونزل هومير فى الدرج خارجاالى الطريق ، على حين صـــغدت دوللى موثورن الى تلك الغرف فىفندق بيتل ٠

- ٣١ -

الرجـــل الآلى

سار ليونيل ويوليسس بعدأن فرغا من مغامراتهما فى المكتبة العامة يستكشفان ايتاكا ،وألفيانفسيهما معغروب الشمس واقفين فى مقدمة جماعة صـــغيرة منالمتسكعين والمارة أمامنافذة متجر من المتاجر الصغيرة ، يتفرجان على ذلك الرجل المعروض فيها . وبالرغم من أن الرجل كان بشرافانه كان يتحرك كالآلة تماما، ويبدو وكأنه صنع من الشمع لامن اللحم البشرى. وكان الرجل فى الحقيقة ذا منظر بعيـــد عنالبشرية وكأنه جثة لم تدفن ، وضعت منتصـــبة ولاتزال قادرةعلى الحركة .

ولم يكن يوليسس قد رأىفىسنواته الاربع التى أمضاها فى هذا العالمشيئا عجيبا أكثرغرابةمن هذا الرجل ومن عينيه اللتين لا يشع منهما ضوء وشفتيه اللتين تبدوان أنهما أغلقتا ولن تنفتحا أبدا .

كان الرجل يعمل ويتحركبينلوحتين منهمكا فى الاعلان عنمقو

للدكتور برادفورد ٠ وعلى احدى اللوحتين وضعت الرسالة التالية: « الرجل الآلى ٠ النصف آلة والنصف انسان ٠٠ ميت أكثر منه حيا ٠٠ لك ٥٠ دولارا لو جعلته يبتسم ، و ٥٠٠ دولار لو جعلته يضحك» ٠أما على اللوحة الاخرى فقد كان الرجل الآلى يضع بطاقات صغيرة يتناولها بطريقة آلية بحتة من المنضدة الصغيرة الموضوعة بين اللوحتين٠ وعلى كل بطاقة من هذه البطاقات طبعت رسالة مختلفة تستحث الناس أن يشتروا الدواء المسجل الذى اخترعه الدكتور برادفورد حتى يصبحوا أكثر حياة ونشاطا٠ وكان الرجل الآلى اذا ما وضع البطاقة على اللوحة راح يشير الى كل كلمة من كلماتها بمؤشر فى يده حتى يفرغ من البطاقات العشر جميعا ، وعند ذلك ينتزعها كلها ويعيدها الى المنضدة ليبدأ العمل من جديد ٠٠

وقال ليونيل لصديقه : « انه رجل يا يوليسس ٠٠ انى أرى ذلك تماما ٠٠ ليس آلة أبدا ٠٠أنظر اليه ٠٠ أنظر الى عينيه ٠٠ أليس حيا ؟ »

وكان الرجل الآلى قد وضع على اللوحة بطاقة كتب عليها : « لماذا تبقى فى الحياة نصف ميت٠٠ تمتع بالحياة ٠ تناول مقوى الدكتور برادفورد لتشعر أنك رجل جديد »

وقال ليونيل : وهذه بطاقة أخرى ٠٠ مكتوب عليها شىء ٠

ولكنه أحس فجأة بالتعب والكلال والرغبة فى العودة الى المنزل ، فقال لصديقه : هيا يا يوليسس ٠٠ نرجع ٠٠ لقد رأيناه يضع البطاقات كلها ثلاث مرات ٠٠هيا نرجع الى البيت٠٠ فقد كاد يدركنا المساء ٠٠وأخذ بيد صديقه ولكن يوليسس سحبها بعيدا من جديد ٠

فعاد ليونيل يقول : هيا يا يوليسس ٠ ٠ انى جعت ولابد أن أعود للبيت ٠

ولكن يوليسس لم يردأن يتحرك بل بدا وكأنه لم يسمع كلمة واحدة مما قال ليونيل، فاضطر ليونيل الى أن يتحداه أخيرا قائلا : « أنا ذاهب يا يوليسس » ٠٠ وانتظر أن يعود صديقه معه ولكن الصبى لم يتحرك مطلقا ، فبدأ ليونيل يتحرك عائدا الى البيت وقد دهش وتألم لخيانة يوليسس فى صداقته ، ولكنه ظل

بالرغم من ذلك يتوقف كل ثلاث خطوات أو أربع متوقعا أن يلحق به صديقه ٠غير أن يوليسس كان واضح الرغبة فى البقاء والنظر الى الرجل الآلى ، فاكمل ليونيل رحلته وحيدا الى البيت وقد جرحه يوليسس جرحا عميقا ،فراح يقول لنفسه : «هذا الذى كنت أحسبه خير صديق لى فى هذا العالم »٠

وقف يوليسس وسط ذلك النفر القليل ينظر الى الرجل الآلى حتى لم يعد أمام المحل الاهو ورجل هرم آخر٠وظل الرجل الآلى يلتقط البطاقات ويضعها على اللوحة مشيرا الى كل كلمة من كلماتها ، حتى انصرف الرجل الهرم ولم يعد على الرصيف الا يوليسس واقفا يرقب ذلك الكائن الغريب ٠ وتقدم الليل وأضيئت أنوار الطريق وخلص يوليسس من تلك النشوة التى أثارها الرجل الآلى فى نفسه وكأنما كان قد نومه منظره تنويما مغناطيسيا ٠ فلما استيقظ راح يتلفت حوله فرأى النهار قد فرغ وانصرف الناس جميعا ، وأحس أنه لم يعد حوله غير شىء لا يستطيع أن يسميه ٠٠ هو الموت ٠

وتلفت خلفه من جديد فوقع نظره فجأة على الرجل الآلى ، وأحس كأنه ينظر اليه هو وحده، فامتلأ قلبه برعب بشع عاجل وانطلق فجأة يجرى ٠ وأحس يوليسس أن أولئك الافراد القلائل الذين التقى بهم فى الطريق هم موتى كالرجل الآلى ، وأصبح منظرهم فجأة بشعا قبيحا لا محببا جميلا كما تعود أن يراهم ٠

وظل يوليسس يجرى ويجرى حتى أنهكت قواه ، فتوقف يجذب أنفاسه بصعوبة ويكاد يبكى متلفتا حوله ، مستشعرا برعب دائم صامت من الاشياء جميعا ٠٠٠ هو الرعب الذى يتمثل فى الرجل الآلى ٠٠ هو الموت!! ولم يكن يوليسس قد عانى من قبل أى لون من ألوان الخوف ، فلما اعتراه هذا الشعور بالرعب كان من الصعب عليه جدا أن يعرف ماذا يفعل ، ففقد سكينته كلها وبددها خوفه من أن يلحق به هذا الرعب، فعاد يجرى من جديد قائلا لنفسه وقد أوشكت الدموع تتساقط من عينيه : بابا ٠٠ ماما ٠٠ ماركوس ٠٠ بس ٠٠ هومير ٠٠ بابا ٠٠ ماما ٠٠ ماركوس ٠٠ بس ٠٠ هومير !!

ولا شك أن الحياة كانت من قبل جميلة رائعة مليئة بما يحب أن يراه ويراه مرات عديدة ، أما الآن فأنها لم تعد الا شيئا مفزعا مرعبا عليه أن يهرب منه وأن يتجنبه لو يستطيع ان يعرف الى أين يذهب وأين يتجه . أنه يريد لو يلقى بأسرع ما يستطيع فردا من أفراد أسرته ، ولكنه يسير فى هذا الاتجاه خطوات ويعود فيسير فى الاتجاه الآخر، قد شله الرعب، مستشعرا فى كل ما حوله بكارثة فظيعة خارقة لن يستطيع أن يخلصه منها الا لقاء أبيه أو أمه أو أخته أو أحد أخويه . ولم يستطع يوليسس أن يعثر على واحد من هؤلاء جميعا، ولكنه رأى فى آخر الطريق أوجست جوتليب رئيس عصابة أولاد الجيران . كان بائع الجرائد واقفا فى ناصية الطريق المهجور يصيح بأعلى صوته مرددا الاسطر الأولى ، وكان المكان من حوله قد ملأه قوم حريصون على أن يعرفوا أخبار اليوم كلها . وكان يجد دائما فى الصراخ بأسطر الاخبار الاولى شيئا سخيفا مضحكا ، فهى لا تعدو أن تكون أبدا أخبارا عن جرائم قتل من هذا النوع أو ذاك ، كما أنه لم يكن يرى أن من حسن الذوق أن يسير فى شوارع ايتاكا رافعا صوته هكذا فى أوجه الناس العابرين . ولهذا كان الصبى يستشعر السرور كلما اكتشف أن الطرقات قد خلت وهجرها الناس، فيندفع دون وعى بما يفعل ، رافعا عقيرته، وهو مالا يفعله أبدا ، بأخبار النهار السيئة ، صائحا وسط شوارع ايتاكا الخالية ، وكأنما ينعم شاكرا بتلك الفرصة التى أتاحها له سكان المدينة . فلماذا عسى يفعل المرء بأخبار كل نهار .. ؟ ألا يستطيع أن يفعل الا أن يبيع الجرائد وأن يكتسب هذه البنسات الضئيلة ؟ ألا يستطيع أن يفعل غير ذلك ؟ أليس من المضحك اذن أن يصيح المرء معلنا أخطاء كل يوم وكأنها أنباء مفرحة ؟ أليس من المخجل حقا أن يظل الناس هكذا لا يدركون ولا يهتمون بطبيعة هذه الاخبار المتكررة كل يوم ؟ ان بائع الصحف الصغير يرى نفسه أحيانا حتى فى أحلامه وهو نائم ، رافعا صوته مناديا بأخبار العالم ، ولكنه يستشعر دائما اذ ذاك شعورا صادرا من أعماق تجربته بالاستهزاء والاحتقار لهذه الاخبار ولطبيعتها .

وطالما رأى نفسه فى أحلامه يصيح من مكان عال دائما وقد شغل الناس من تحته بما ألفوه من جريمة وأخطار ، فما يكادون يسمعون صوته مدويا حتى يقف كل واحد منهم فى طريقه ويتطلعون

جميعا اليه ،وعند ذلك يصرخ فيهم صائحا : « ارجعوا الآن .. عودوا الى بيوتكم .. كفى قتلا .. اذهبوا فازرعوا الشجر » .. نعم كان أوجست جوتليب يحب دائما فكرة زراعة الشجر .

رأى يوليسس اذن أوجست جوتليب على ناصية الطريق، فتبدد شيء كثير من الفزع الذى ملأ قلبه، وبدأ يشعر من جديد انه لن يضطر الى الانتظار سنوات وسنوات طويلة قبل أن يجد الحب والخير فى العالم مرة أخرى .

وحاول الصبى أن يصرخ مناديا أوجست ولكن صوته احتبس، فراح يجرى بكل ما فيه من قوة حتى وصل اليه وألقى نفسه عليه محتضنا اياه بشدة مفاجئة كادت توقع أوجى على الارض .

ـ يوليسس !.. ماذا جرى؟ .. لم تبكى ؟

فرفع يوليسس وجهه متطلعا فى وجه بائع الصحف الصغير ولكنه كان لا يستطيع النطق ، فقال بائع الصحف ..!

ـ انك خائف .. يا يوليسس .. لا تخش شيئا .. ليس هنا ما تخافه .. يوليسس .. لا تبك .. لا تخش شيئا .

وظل الصبى ينشج، فعاد يقول له : كفى .. كفى .. لا تبك .

وظل أوجى ينتظر أن يكف يوليسس عن البكاء وحاول يوليسس جاهدا ألا يبكى ،فبدأ النشيج يسمع على فترات متقطعة وكأنما أصابه الفواق .

وقال له أوجى أخيرا : تعال .. معى .. نذهب الى هومير ..

وما كاد يوليسس يسمع اسم أخيه حتى تبسم وندت عنه نشجة أخرى ، وكرر وراءه وكأنما هو غير مصدق : هومير ؟

ـ نعم .. أخوك .. هيا بنا ..

ـ نرى هومير ؟ !

ـ طبعا .. ان مكتب التلغراف على الناصية هنا .

وسار أوجست جوتليب ويوليسس ماكولى حتى الناصية التالية الى مكتب التلغراف، فوجدا هومير جالسا على مكتب التوزيع .فلما رأى يوليسس أخاه تحول وجهه تحولا رائعا وتبدد الرعب كله من عينيه ، فلقد أحس أنه وصل أخيرا الى البيت .

ورأى هومير أخاه فقـــام الى الصبى ورفعه فى يديه ملتفتا الى أوجى يسأله : ماذا حدث ٠ ٠٠ماالذى أبقى يوليسس فى المدينة حتى الآن ؟

ـ أظن انه قد تاه ٠٠ فقدوجدته يبكى ٠٠

ـ يبكى ؟! ٠٠واحتضن هومير أخاه فخرجت منه نشجة أخرى، فقال هومير : كفى يابوليسس ٠٠لاتبك٠٠ سأعود بك على دراجتى الى البيت ٠٠ كفى بكاء ٠٠ !

وراح توماس سبانجلر مدير المكتب يرقب الصبية الثلاثة ،على حين توقف وليام جروجان العامل الهرم عن العمل، وظل هو الآخر برقبهم متبادلين النظرات مرات عديدة ٠ وأنزل هومير أخاه الى الارض وعرف ان الصبى قد اطمأن تماما اذ رآه يتجه الى مكتب التوزيع ليتأمل ماعليـــه من أشـــياء ،فيوليسس دائما بخـــير مادام اهتمامه قد استثير وعاوده حرصه على التطلع الى الاشياء ٠ ووضع هومير ذراعه حول أوجست وقال:

ـ شكرا ياأوجى ٠٠ لاأدرى ماذا كان يمكن أن يحدث ان لم يقابلك !

ووقف ســـبانجلر واتجه الى الصبية ثم قال : هللو أوجى ٠٠ أعطنى الجريدة ٠

ـ هاهى ياسيدى٠٠وهم أوجى أن يؤدى حركاته المألوفة فى طى الورقة واعداد الصفقة ، ولـكن سبانجلر أوقفه ليدرك الجـريدة قبله ، وأخذها منـــه متطلعا فى أسطرها الاولى ثم ألقاها فى سلة المهملات ٠

ـ هيه ٠٠ وكيف حال العمل ياأوجى ٠٠

ـ انه جيد ٠٠ يامستر سبانجلر ٠٠ لقد جمعت اليوم حتى الآن خمسة وخمسين سنتا ٠٠ولكن ذلك لانى لم أبدأ العمل الا فى الواحدة بعد الظهر ،وسأنتظر حتى يتجمع لى خمسة وسبعون ثم أعود الى البيت ٠٠٠

ـ ولكن لماذا ٠٠ لماذا الخمسة والسبعون سنتا بالذات ٠٠

ـ لاأدرى ٠٠ غير اننى أتصور أنه يجدر بى فى يوم السبت ان أجمع هذا المبلغ ٠ والبلد الآن يكاد يكون خاليا تماما ، ولكننى

أعتقد أنى سأستطيع بيع بقية الصحف فى ظرف ساعة أو ساعتين، فبعد قليل يبدأ الناس العودة بعد عشائهم .. ويتجمعون فى زحام السينما .

ـ فليذهب زحام السينما الى الشيطان .. أعطنى أنت بقية الصحف وعد الى البيت .. خذ هذا هو ربح دولار !!

وبالرغم من أن بائع الصحف قد أحس بالتقدير والاعتراف بجميل هذه المكرمة من مدير المكتب فانه وجد فيها شيئا لايستطيع أن يرضى عنه بسهولة . أليس على المرء أن يبيع الصحف واحدة واحدة لاناس متعددين .. أليس عليه أن يقف فى ناصية الطريق وأن يصيح بالاخبار حتى يجعل الناس يرغبون فى قراءتها . ولكنه مع ذلك متعب يريد أن يعود للبيت ليتعشى .. ومستر سبانجلر هذا ، انسان لم يعرف مثله من قبل . ولقد تكون رغبته فى شراء هذه الصحف كلها دفعة واحدة والقائها جميعا فى سلة المهملات هى أفضل خبر فى هذا النهار بطوله . ولكن لماذا يتحمل مستر سبانجلر وحده ثمنها دون بقية أولئك النكرات فى الطريق . ! أوه : قد لايكونون نكرات .. ولكن لماذا يتحمل وحده ثمنها دونهم جميعا أيا كانوا ؟!!

وأحس بائع الصحف ان عليه أن يحتج وأن يرفض هذه الصفقة فقال :

ـ ولكنى لاأريد أن آخذ هذه الخمسة والعشرين سنتا منك أنت يامستر سبانجلر ...

ـ لاتفكر فى هذا .. أعطنى هذه الصحف وعد الى البيت .

ـ ليكن ياسيدى . . ولكنى ارجو أن تتيح لى فرصة فى يوم ما كى أعوضك عن ربح الدولار هذا ..

ـ أوه .. طبعا .. طبعا .. ـ وألقى الصحف فى سلة المهملات .

وحول أوجى نظره الى يوليسس الواقف عند مكتب التوزيع وقال لمستر سبانجلر : هل عرفت أن يوليسس قد تاه ؟

فقال سبانجلر : نعم . . ولكنه ليس ضالا الآن .. ـ ورفع صوته مناديا : « يوليسس » ... فالتفت الصبى اليه ، وظل سبانجلر لحظة لايعرف ماذا يقول له ، فسأله أخيرا : « كيف حالك ؟ » وتردد

الصبى هو الآخر لايجدمايجيبه به ثم قال : « بخير » . وأحس كل منهما أن فى نفس الآخر شيئا غير ذلك قد قصد أن يقوله .

وعلق هومير مجيبا عن يوليسس « انه بخير » مستشعرا ان فى كلماته شيئا من الحظ ، وانها ليست ما يجب عليه أن يقول . وكرر أوجى مرتبكا نفس هاتين الكلمتين وكأنه قد خرج عليهم بشىء جديد رائع .

كانوا جميعا يستشعرون شيئا من التحرج ، ولكنهم مع ذلك فى غمرة من السعادة والسرور وعلى الأخص سبانجلر . أما وليم جروجان فقد راح ينصت لهم وهم يتبادلون كلماتهم هذه ، ثم أخرج زجاجته وأدار غطاءها وجرع منها جرعة كبيرة .

وهم أوجى مستديرا يريد العودة الى البيت ، فاستوقفه هومير قائلا : « أوجى ، انتظر لحظة .. انى سآخذك على دراجتى الى البيت .. هل تسمح لى يامستر سبانجلر ؟ فأنا ذاهب الى مصانع نبيذ ايتاكا أحضر برقياتهم من هناك ، والمصنع فى الطريق الى البيت ، فاذا سمحت لى فانى سأحمل أوجى ويوليسس الى البيت أولا ثم أذهب الى المصنع .

ـ طبعا . . . طبعا ... وعاد سبانجلر الى مكتبه وأخرج البيضة المسلوقة التى يؤمن أنها تجلب له الحظ أو على الاقل تبعد عنه الشرور والمصائب الكبيرة .

وقال أوجى لهومير : لا يا هومير ... ليس هناك ما يدعو أن تحملنى الى البيت ... ان حمل اثنين على الدراجة ليس بالشىء الهين ... وأنا أستطيع أن أعود بسرعة ماشيا .

ـ لا .. لا .. سأحملك ، ان البيت على بعد ثلاثة أميال تقريبا ، وليس هذا بالشىء الهين .. ثم انى لن أجد صعوبة فى حملكما معا على الدراجة ، فستجلس أنت أمامى ونضع يوليسس فى المقدمة .. هيا بنا ...

وخرج الصبية الثلاثة الى الدراجة وانطلق هومير بحمله الثقيل ، ولاسيما أن قدمه تؤلمه .. ووصل براكبيه سالمين الى البيت . وأوقف هومير دراجته أولا عند بيت أوجى الى جوار سوق آرا ، وهناك رأوا آرا نفسه واقفا أمام باب محله وقد أمسك

يد ابنه الصغير بيده وهما يتطلعان معا الى السماء . وعند نهاية الطريق الى جوار الارض الفراغ شاهدوا مسز ماكولى واقفة فى فناء بيتها تحت الشجرة الكبيرة تجمع غسيلها من الحبال وسمعوا غناء مارى وبيانو بس يتسلل خافتا من غرفة الجلوس فى المنزل .

فلما وصلوا الى البيت نزل أوجى من الدراجة داخلا بيته ، على حين وقف هومير لحظة فى الطريق ممسكا بدراجته رافعا نظره الى السماء متطلعا الى بيت أسرة ماكولى أمامه . وبعد قليل عاد أوجى خارجا من البيت وذهب الى مستر آرا يسأله :

ـ كيف حال العمل اليوم يا مستر آرا ؟

ـ أشكرك ياأوجى .. أنا راض بما كسبت .

فقال له أوجى : معى الآن خمسة وسبعون سنتا أريد أن أصرفها .. وأن أشترى بها لغدالشىء الكثير .

ـ حسنا ياأوجى ..

والتفت البائع الى السماء قبل أن يدخلامحله ، وأشار الى السحب ثم قال لابنه : « أنظر ياجون!.. لقد جاء الليل .. وبعد قليل نذهب الى فراشنا وننام .. ننام طول الليل .. فاذا ماطلع الصباح قمنا مرة أخرى .. فى يوم جديد » ..

ودخل الرجل وابنه وابن جاره الى المحل ، على حين كان يوليسس يرقب أمه وهو جالس على مقدم الدراجة ، وبعد قليل اعتلاها هومير ومضيا راكبين الى البيت .

وفى الطريق استدار هومير متطلعا الى وجه أخيه قائلا : ماما ..

ـ طبعا .. هذه هى ماما .. فى الفناء تحت الشجرة .. أتراها ؟

ولما اقتربا من المرأة الواقفة فى الفناء تحت الشجرة ، امتلأ وجه الاخ الاصغر بابتسامة مضيئة ، وان ظهرت على وجه الام آثار حزن عميق ، كما بدا الحزن فى وجه الاخ الاكبر الممسك بمقدم الدراجة وهو يكاد يحتضن أخاه الصغير ... واخترق هومير بدراجته الارض الفراغ الى فناء البيت حتى الشجرة الكبيرة ، فنزل من فوق دراجته وأنزل أخاه ، وعلى الارض وقف يوليسس يتطلع

الى أمه ،وقد ذهب عنه الى الابدذلك الرعب الذى أشـــاعه فى قلبه الرجل الآلى ٠

وقال هومير : لقد تاه يوليسس يا ماما ٠٠ ووجـــده اوجى فصحبه الى فى مكتب التلغراف ٠وجئت الآن أعيـده الى البيت فقط ، فلن أســـتطيع أن أبقى، لـكنى ســـادخل لاحيى بس ومارى قبل أن أعود ٠

ونفذ هومير داخلا الى البيت ، ولكنه وقف فى الظلمة فى غرفة الطعام ينصت لاخته وفتاة أخيهحتى فرغت أنشودتهما ، فدخل عليهما غرفة الجلوس قائلا :هللو٠

فاستدارت الفتـاتان وحيتـهمارى : « هللو ياهومير ٠٠ » ثم انطلقت فجاة تقول له فى سرعةوسعادة عظيمة : « لقد وصلنى اليوم خطاب من ماركوس » ٠

ـ حقـا ٠٠ يامارى ؟! وكيفحاله ؟

ـ بخير ، ولكنه يقول انهم سيرحلون قريبا دون أن يعرفوا الى أين ، ويطلب منا ألا تقلقخواطرنا عليهاذا تأخرت رسائله قليلا٠

وقالت بس : لقد كتب لنا جميعا ٠٠ لـماما ٠٠ ولى ٠٠ وحتى ليوليسس ٠

ـ « صحيح » ؟ وانتظر هومير أن تعلن له وصول خطاب له هو أيضا ، خائفا ألا يكون قد أرسل اليه ، وسألها أخيرا فى خفوت: وهل أرسل لى خطابا ؟

ـ أوه طبعـا ٠٠ خطابك أنتأضخمها جميعـا ٠ ٠ كنت أظن أنك ستعرف أنه مادام قد كتبلنا جميعـا فلا بد أن يكتب لك أنت أيضا ٠٠

ورفعت من المنضدة خطابا ناولته لهومير،فراحينظر اليهطويلا دون أنيتكلم ،فسألته أخته أخيرا :

ـ لماذا لاتفتحه وتقرؤه ؟ ٠٠اقراه علينا ٠٠

ـ لايابس ٠٠ أنا مضطر لانأذهب الآن ، وسـآخذ الخطاب معى الى المكتب لاقراه بالليـل ،عندما يكون لدى وقت كاف ٠

فقالت بس : لقد قضينا نحن النهار نبحث عن عمل ٠٠ ولكننا لم نجد شيئا ٠٠

فأضافت مارى : ولكننا على أية حال وجدنا الكثير من المتعة والتسلية فى مجرد الدخول على الناس وسؤالهم عن عمل ٠

فأجابها هومير : اننى سعيد على أية حال لأنكما لم تجدا عملا، سواء كان هذا قد سركما أم لا ٠ ويجب ألا تفكرا فى هذا أبدا ، فما أكسبه أنا يكفى لحاجاتنا جميعا ٠٠ ولابيك يامارى وظيفة طيبة فى مصانع ايتاكا ٠٠ ولستما فى حاجة الى البحث عن عمل ٠

ـ لا ٠٠ ياهومير ٠٠ نحن فعلا فى حاجة الى أن نبحث عن عمل، ولا شك أننا سنحصل عليه يوما من الايام ٠٠ بل لقد طلبوا الينا العودة فعلا فى مكانين ٠٠

فقال هومير وقد بدأ يظهر فى صوته الغضب : اقول لاتبحثا عن عمل ٠٠ فلست يابس ٠٠٠ ولا أنت يا مارى فى حاجة الى هذا ، واذا كان هناك مايعمل ٠٠ فالرجال هنا قادرون على القيام به ٠ ٠ ٠ ان مكان البنات هو البيت ، وليس عليهن الا أن يرعين الرجال ٠٠ يلعبن على البيانو ويغنين ويحاولن أن يظهرن جميلات ليراهن المرء كذلك اذا ماعاد الى البيت ٠٠ هذا هو كل ماعليهن أن يعملنه ٠٠

وصمت لحظة ثم استأنف حديثه فى حنان ملتفتا الى مارى ٠٠ فاذا ماعاد ماركوس يامارى استأجرتما منزلا صغيرا لكما وكونتما أسرة على نحو ماتريدان ٠٠ وأنت يا بس سيجىء اليوم الذى تلقين فيه شابا تحبينه ٠٠٠ هذا هو العمل الذى يجب أن تفكرا فيه ٠ فليس معنى أن العالم قد نشبت فيه الحرب أن يجن الناس جميعا ٠٠ الزمى البيت ، مكانك الطبيعى وساعدى ماما ٠٠ وأنت يامارى التفتى الى مساعدة أبيك ٠

وكان فى صوته شىء من السيادة والسلطة ، فشعرت أخته بالفخر به ، فما رأته من قبل مهتما بشىء كما تراه الآن ٠

ـ لاتنسيا هذا أبدا ٠٠ والآن ٠٠ أعزفا لى أنشودة أخرى قبل أن أذهب ٠

فسألته بس : ماذا تريد أن تسمع ؟

ـ أى أنشودة ٠٠

فبدأت بس تعزف وسرعان ماشاركتها مارى فى الغناء ، على حين ظل الساعى فى ظلمة غرفة الجلوس يسمع ، ثم انسحب منصرفا فى هدوء قبل أن تفرغ الانشودة . وعندما صار فى الفناء رأى يوليسس عند بيت الدجاج ينظر متأملا فى بيضة .

ونادى هومير : « أماه » فلما التفتت أمه اليه قال لها : فلنعقد العزم على الذهاب كلنا غدا الى الكنيسة .. كلنا معا .. ونأخذ معنا مارى .

ـ ماذا تقصد ياهومير ؟ .. نحن نذهب الى الكنيسة تقريبا كل أحد .. ومارى دائما معنا ..

فقال هومير فى عجلة : نعم .. نعم .. أعرف ذلك .. ولكن لنعقد العزم على ذلك غدا .. وعلى أن تكون مارى معنا .. والتفت الى أخيه يسأله : ماهذا الذى فى يدك يا يوليسس ؟

فأجابه يوليسس وكأنما ينطق باسم الرب : بيضة .

واعتلى هومير دراجته وسلك طريقه راكبا الى مصانع ايتاكا للنبيذ .

- ٣٢ -

مستندا الى الاذرع الخالدة

بينما كان هومير يشق طريقه الى مصانع النبيذ ، كان قطار أمريكى سريع يتحرك فى مكان بعيد تختلف فيه الساعة الزمنية عنها فى ايتاكا ٠ وكان القطار يطوى أرضا أمريكية ويخترق ليلا أمريكيا حاملا شبانا أمريكيين بينهم ماركوس وصديقه توبى ، وقد ارتدوا جميعا ملابس الجنود وأعدوا ودربوا للقتال ٠ ولكنك اذا ما نظرت فى عيونهم ولمست أرواحهم العالية واستمعت الى أصوات الضحك والصياح والغناء الصادرة منهم عرفت أنهم لا يمثلون جيشا فحسب بل يمثلون أمة باكملها ، أمة كبيرة عظيمة ٠ انهم وان كانوا قد تعلموا أن ينتظموا فى الصف ، متحركين فى أوقات محددة متخلين عن كل رغباتهم الشخصية فى سبيل وحداتهم العسكرية ، فان هذا كله لم يجعلهم مجرد آلات ، بل ما زالوا أناسا طيبين تعتمل فى نفوسهم - على الاقل - رغبات الناس ومقاصدهم العاديه ٠ انهم

حقا مصدرضجة وضوضاء كبيرة،وقد لايبدو عليهم أنهم لا يدركون أهميتهم وقيمتهم ، ولكنهم على أية حال لم يفقدوا أبدا شعورهم بكرامتهم ... ولئن كان للمرء أن يتأكد أن هذه الضجة انما تنبع من خوف داخلي عميق ، فأنهم مع ذلك مازالوا جسورين لا يتهيبون شيئا . لقد تقبلوا هذه الضرورة التى أوجبت عليهم أن يطردوا الخوف من نفوسهم دون أن يكونوا بحاجة الى التمسك بأسباب زائفة أو تعلات وأقاويل مزوقة ، بل لقد رضوا قابلين أن يلقوا الموت اذا ما واجههم .انهم جميعا أولاد أمريكا مازال معظمهم صبية صغارا وان كان بينهم من جاوز الاربعين : مازال معظمهم صبية صغارا جاءوا من المدن الكبيرة أو القرى الصغيرة ، من المزارع أو المكاتب ، من أسر غنية أو فقيرة ، انتزع بعضهم من عوالم واسعة كبيرة ،وبعضهم الآخر من دنيا محدودة مغلقة ،مخلفين وراءهم أحلاما وأمانى رائعة أو تاركين وراء ظهورهم أحلام حياة هادئة وادعة ، بينهم الانمى الذكى والعبى البطىء الفهم،وبينهم الثائر المتقلب والساكن الثابت . ووسط هذا التهليل والضحك ،وفورة الانفعال والاضطراب والتلهف ، وبين هذا المزيج الرائع من الجهل العميق والحكمة البعيدة ، كان ماركوس ماكولى يتحدث هو وصديقه توبى جورج فى صوت هادىء خافت .

وقال توبى : ها نحن اذن فى طريقنا .

ـ نعم ...

ـ أتعرف يامار كوس ؟..اننى أعد نفسى محظوظا ، فلولا هذه الحرب لما التقيت بك ولما عرفت ما عرفته عن أسرتك .

فأحس ماركوس بشىء من الارتباك ولكنه قال : شكرا ... هذا هو شعورى أيضا نحوك .

وتوقف لحظه عن الحديث ثم اتجه الى صديقه بذلك السؤال الذى لابد أن يتردد مرارا على بال كل رجل يحس أنه معرض لخطر مجهول لايعرفه :

ـ أريدك أن تقول لى الحق ،هل ستنزعج حقا ، لو حدث أن قتلت ؟

ولم يستطع الآخر أن يجيب السؤال مباشرة ولكنه استطاع أخيرا أن يحمل نفسه على أن يقول: طبعا ... اننى أستطيع أن أخدعك

وأن أتظاهر بأن هذا لن يهمنى أو يزعجنى ... ولكن لاشك أنى أخشى ذلك وأخافه .. ألا تحس ذلك أنت ؟

ـ نعم ... انى أخشى ذلك جدا ... ولكنى كنت أريد فقط أن أعرف .

وانتظر لحظة ثم استأنف حديثه يسأله : فيم تفكر؟ وماهذا الذى تريد أن تعود اليه ؟

ولم يكن توبى حقا يعرف ماالذى يريد أن يعود اليه، فأجابه قائلا : لا أدرى .. أظن أننى أريد أن أعود .. أن أعود .. الى أى شىء كيفما كان ... انى لست مثلك ، فلا أسرة لى ، وليس هناك من أعود اليه ،ولكن أيا كان هذا الذى ألقاه عندما أعود فأنا راض به : ليست لى فتاة كفتاتك مارى تنتظرنى ، ولكن بالرغم من ذلك أعرف أنى أود العـــودة .. لو استطعت ...

ـ طبعا ...

وساد بينهما الصمت من جديد حتى قطعه ماركوس قائلا :

ـ كيف اتفق أنك أحببت الغناء ؟

ـ وكيف لى أن أعوف أنا هذا ... أنا أحب أن أغنى ، وهـذا كل ما هناك ...

وظلا لحظة يستمعان لصوت القطار وللضجة فى داخله ثم سأله توبى : فيم تفكر ؟

ومضى بعض الوقت قبـل أن يجيبه ماركوس ، وقال أخيرا :

ـ أفكر ... فى أبى وأمى ،وفى أختى بس وأخوتى هومير ويوليسس . أفكر فى مارى وفى أبيها مستر أرينـــا ، وفى كل جيرتنا بما فيها الارض الفراغ والاولاد والبيـوت وســـوق آرا ومستر آرا نفسه ! أفـكر فى عربات القـطار التى تعودت أن أرقبها تمر وفى مدرسة الاحد والكنيسة وحديقة المحكمة والمكتبة العامة ومدرسى القدامى ... وكل أولئك الاولاد الذين عرفتهم فى حياتى ... وفى أولئـك الذين ماتوا منهم ... ماتوا ... لافى هذه الحرب ... بل ماتوا موتا طبيعيا .

ـ ماركوس .. قد يبدو ماأقول مضحكا.. وقد لاتستطيع أن تفهمنى .. ولكن أحس كأن ايتاكا هى وطنى !!

وتوقف لحظة ثم قال : لو اننا خرجنا سالمين .. لو ان هذا كله قد انتهى فى خير ، فهل ترضى ان تصحبنى معك الى ايتاكا .. ؟ هل ترضى ان ترينى الاماكن التى عرفتها وان تحدثنى عنها ، وان تقص على ماحدث فى هذا المكان او فى ذاك ؟

ـ طبعا .. طبعا .. انى ريد ان افعل هذا .. بل اريد ايضا ان تلقى اسرتى .. اننا قوم فقراء .. وكنا كذلك دائما .. ولكن ابى كان رجلا عظيما .. انه لم يكن ابدا رجلا ناجحا ، فهو لم يكسب فى حياته من النقود الا مايكاد يكفى حاجتنا .

ـ ماتيو ماكولى ؟

ـ نعم .. ابى .. ماتيو ماكولى . كان يعمل فى حقول العنب ، وفى مصانع الطعام المحفوظ ومعاصر النبيذ .. كان يقوم بهذا العمل العادى اليومى ، فلو رايته فى الطريق لما احسست انه يتميز بشىء عن اى انسان آخر . كان فى مظهره كبقية الناس جميعا وكان يعمل كأى واحد منهم ، ولكنه بالرغم من ذلك كان رجلا عظيما . انه ابى وانا اعرف انه كان عظيما ، لم يكن يهتم بشىء الا بسرته .. بزوجته واطفاله .. واذكر انه راح يقتصد شهرا بعد شهر ويوفر النقود حتى استطاع ان يشترى بالتقسيط قيثارة .. نعم قيثارة .. ولست اعرف ان احدا مازال فى وقتنا هذا يريد العزف على قيثارة ، ولكن هذا كان مارادته امى وما راح ابى يقتصد من اجله ويسدد ثمنه بالفائدة حتى اشتراها لها .. وظل خمس سنوات يدفع ثمنها .. لقد كانت اغلى قيثارة يمكن للمرء ان يشتريها . ولقد دخل فى اذهاننا ونحن صغار انه لابد ان يكون فى كل بيت قيثارة لمجرد انه اصبح لدينا واحدة .. وبعد ذلك اشترى ابى بيانو لاختى بس ، ولكن هذا لم يكلفه مبلغا كبيرا .. وانا لم اكن اتصور وانا صغير ان ابى وحيد فى عظمته هذه . بل كنت اعتقد ان كل انسان هو عظيم كذلك مثله .. حتى خرجت الى الدنيا وعرفت بعضا من ولئك الآخرين .. انهم اناس طيبون .. لا عيب فيهم .. ولكنى لا اظن انهم عظماء ، او من يدرى فقد يكونون كذلك ، وانا لا اعرفهم جيدا ، فلا شك ان من الواجب ان تعرف الناس حقا قبل ان تلمس اذا كانوا عظماء او لا . فمن الناس من هم عظماء حقا دون ان يتصور احد ذلك .

ـ كم كنت ود لو اننى عرفت احدا كأبيك ، وست اقصد

بذلك طبعا ان يكون ابى انا ،بل ان يكون موجودا استطيع ان اعرفه وان القاه . ويخيل الى على اية حال اننى كنت محظوظا بان لم اعرف بى ، فما زلت استطيع ، مادمت لم اعرفه ،ان اعتقد انه كان عظيما .. كأبيك تماما .

ـ من يدرى .. ربما كان كذلك .

ـ ربما .. هذا ما ارجوه .اتعرف اننى لم ادرك ان للاطفال آباء وامهات حتى ذهبت الى المدرسة وسمعت الاولاد يتحدثون عنهم .. وضحك توبى مرتبكا ثم قال . ولم استطع اذ ذاك ان افهم ذلك ، فقد كنت اتصور ان كل رجل انما قد جاء الى الدنيا وحده ، مثلى ، وحيدا بنفسه . واظن اننى عندما عرفت هذا تالمت زمانا طويلا ،فقد جعلنى احس اننى وحيد.. اقصد .. جعلنى احس اكثر بالوحدة ، ومن يدرى فقد يكون هذا هو السبب الذى دفعنى ان احب الغناء ، فان المرء اذا غنى لا يعود يشعر بوحدته .

وتبدى فى صوته خجل وتحرج وهو يقول لصديقه : حدثنى عن بس ، كيف هى ؟

وادرك ماركوس تحرج صديقه وهو يسأله هذا السؤال ولم يكن يريد له ان يحس بذلك فقال :

ـ لاضير من هذا ياتوبى ..انك تستطيع ان تسألنى عن اختى .. بل اننى اريد ان تلقاها واعتقد انها ستحبك .

ـ انا ؟

ـ نعم .. اننى احس انها ستعجب بك جدا . واريد ان اصحبك معى اذا عدنا الى البيت لتبقى معنا هناك ، فاذا ماعجب احدكم بالآخر .. نعم.. لاشك ان بس الآن على اية حال فى سن الزواج .. وبالرغم من انها اختى .. فانى اظن اننى استطيع ان اقول هذا .. انا متاكد .. وهذا هو المهم ..انها ستعجب بك جدا .

وبدات كلمات ماركوس تتعاقب فى سرعة ، فقد كان يحس انه بالرغم من استحالة الكلام فى مثل هذا الموضوع فان عليه ان يحاول على اية حال . ولذلك راح يحاول ان ينطق الكلمات وان ينقل مايريده من معنى بأسرع مايمكن حتى لايطول تحرجه

واضطرابه . وقال لصديقه اخيرا : «تزوجها .. وعيشا في ايتاكا ، فهي بلدة جميلة وستستطيع ان تكون سعيدا هناك . وسوف اعطيك الآن صورتها كي تحتفظ بها . »

وناوله صورة لأخته بس وهو يقول : ضعها مع بطاقة شخصيتك كما اضع أنا صورة مارى .

واخذ توبى صورة اخت صديقه وراح يتأملها وقتا طويلا، على حين راح ماركوس يتأمله هو، ثم قال أخيرا : ان بس حقا جميلة .. ولست أدرى هل من الممكن أن يحب المرء فتاة لم يلقها أو لا ، ولكنى أحس الآن أننى أحب بس فعلا .. أنا أحس مرض الحب حقا .. وأقول لك الحق ،لقد كنت مترددا قبل الآن أخشى أن أفاتحك فى أمر بس . ولكننى قلت لنفسى : « ما دمنا هكذا فى طريق لا يستطيع أحد أن يتنبأ بعاقبته ، فقد لا يزعجك أن أكلمك فى هذا » . وكنت احس دائما ، ولا حيلة لى فى هذا ، أننى لا أملك من الحقوق ما للآخرين .. انك تفهم ما أعنى .. شاب مثلى أعطاه الملجأ اسمه ولم يأخذه عن أب أو أم .. شخص لا يعرف ماذا كانت جنسيتهما .. بل ما هى جنسيته هو . لقد سمعت بعض الناس يقول اننى اسبانى وفرنسى ، وبعضهم يقول لا ، اننى ايطالى ويونانى .. وآخرون غيرهم يقولون اننى انجليزى وايرلندى .. نعم .. يكاد كل واحد منهم ينسبنى الى جنسية تخالف ما ينسبنى اليه الآخر ..

قال ماركوس :

ـ ولكن لماذا ؟! .. انك امريكى .. هذا كل ما هناك .. وكل انسان يستطيع أن يرى هذا بوضوح ..

قال توبى :

ـ نعم .. نعم .. صحيح .. اعتقد اننى امريكى فعلا .. ولكنى ما زلت أريد حقا أن أعرف أى أمريكى .. أنا .

قال ماركوس :

ـ أنك الامريكى الذى اسمه توبى جورج .. وأعتقد أن فى هذا الكفاية لأى انسان . اسمع .. احتفظ بالصورة .. فاننا سنعود الى ايتاكا لتكون أنت أسرة وأنشىء أناأخرى ، وسنتزاور

بين الحين والآخر لنستمع للموسيقى أو نغنى .. وهكذا نقضى حياتنا .

قال توبى :

ـ ماركوس .. أتعرف أننى أصدقك .. اننى أحلف بالله أنى أصدقك ! ولست أظن أبدا أنك تقول لى هذا لمجرد أننا قد تعارفنا وأصبحنا أصدقاء فى طريقنا هذا .. لا .. انى أصدقك وليس هناك ما أتمناه فى الدنيا أكثر من أن أعود معك ، انى أريد أن أعيش هناك وأن أحقق كل هذا الذى تحدثنى عنه .

وتوقف لحظة يفكر متصورا ماقد يعوقه عن أن يحقق هذا ، ثم قال : واذا لم ترض عنى بس .. أو أحببت شخصا آخر .. أو وجدتها قد تزوجت عندما أعود .. فاننى على أية حال لن أعيش الا فى ايتاكا ، فلست أدرى لماذا ، ولكنى أحس أن ايتاكا قد أصبحت وطنى أنا الآخر . انى أحس لأول مرة فى حياتى انى أنتمى الى مكان ما .. وأن أسرة ماكولى ـ اذا لم يزعجك هذا ـ انما هى أسرتى .. فلو أننى خيرت لما اخترت أسرة أخرى . اننى أرجو من الله أن ترضى بى بس وألا تحب أحدا قبلى .. فانا أعرف تماما .. اننى .. الآن .. أحبها .. وخفت صوته وهدأ ، ولكن ماركوس بالرغم من ضجة القطار وما امتلأ به من صوت قد استطاع أن يسمعه وهو يقول : بالرغم من أن بس لا تعرف هذا ، فانها قد أصبحت فتاتى أنا ، ومنذ الآن لن أتنفس الا لكى أبقى ، لأعود الى ايتاكا واليها هى .. ستكون ايتاكا وطنى الذى أعيش وأريد أن أموت فيه .. لو استطعت !!

قال ماركوس :

ـ اننا سنعود .. وسنجتمع فى ايتاكا ، أنا ومارى وأنت وبس ومعنا أمى وهومير ويوليسس .. ليس الا أن تنتظر وسترى .

وصمت الصديقان فيما بينهما وقتا طويلا ، ثم قدم عليهما الآخرون فى القطار يحيونهما ، وما لبثا أن اشتركا معهم فى الصياح بل راحا يغنيان معهم أغنية قد ابتدعوها بأنفسهم عن نساء الطريق وما يصنع بهن . وفجأة ، وفى وسط الأغنية وكأن

ما يقوله انما هو أمر مناسب تماما ، قال توبى لصديقه : أتصلى ؟ فاجابه ماركوس سريعا : نعم دائما .. دائما .

ـ لقد كانوا يجبروننا ونحن فى الملجا على الصلاة ، فكنا نصلى أردنا ذلك أو لم نرد .

ـ قال ماركوس :

ـ ما أظن العرض سيئا على أية حال .. ولكن الصلاة هى آخر ما يجبر عليه المرء ، والصلاة المغتصبة ليست بصلاة ...

قال توبى :

ـ نعم .. أنا معك .. ولهذا تركت الصلاة منذ غادرت الملجا ، ولا أظن أنى صليت منذ كنت فى الثالثة عشرة .. ولكنى أريد أن أعاود الصلاة من جديد من الآن .. واسمع .. هذه صلاتى ..

وانتظر لحظة ثم بدأ يصلى دون أن يغمض عينيه أو يحنى رأسه أو يطوى ذراعه ، ولكن ما قاله كان ، ولا شك فى هذا ، صلاة حقا .. قال :

« اللهم لا أريد منك الا أن تردنى لايتاكا .. اذا كان ذلك مستطاعا .. فلتجر مشيئتك كما تريد على ، ولكن ردنى لايتاكا .. عد بى الى وطنى .. واحم الناس جميعا .. وجنبهم الالم . هب للضالين البيت ورد غربة المسافر .. وعد بى أنا الى ايتاكا »

وانهى صلاته ثم عاد يغنى من جديد كلمات الانشودة الفاجرة ، ولكنه توقف فجأة صائحا : آمين .

قال ماركوس :

ـ هذه صلاة صالحة .. أرجو أن تجاب .

وأحس اليتيم انه ترك من صلاته شيئا يريد أن يطلبه ، فاستأنفها قائلا : اللهم احفظ تلك المدينة وانعم على بالسير فى طرقاتها . وارع هنالك أسرة ماكولى .. جميعا ، احفظ لى بس ودعها تعرف أننى أحبها .. واحفظ لنا ماركوس ومارى . وارع أمه وأخويه هومير ويوليسس . واحم لنا البيت والارض الفراغ الى جواره . واشمل القيثارة والبيانو والاناشيد بخيرك . وأحط برعايتك قضبان القطارات حتى أستطيع أن أرقبها عندما أعود . دع العالم

يبقى كما هو ، وامنحنى فرصة العودة الى هناك ٠٠ الى ايتاكا٠٠ حيث أريد أن أكون ٠٠ ردنى الى ايتاكا ٠٠ اذا كان ذلك مستطاعا فهذا كل ما أريد » ٠

ثم صاح من جديد : «آمين» ٠

وكان الجنود قد اندفعوا ينشدون أنشودة جديدة صاغوها بأنفسهم أيضا ، ولكن الانشودة فى هذه المرة تتحدث عن فناء الاشياء جميعا وخاصة حب النساء ،معجبين جميعا بما فى الاغنية من حكمة مستهترة متهكمة ٠

وشارك توبى وماركوس فى الغناء ولكن توبى توقف فجأة يسأل صديقه : وأنت يامار كوس ماذا تطلب فى صلاتك ؟ فتوقف ماركوس هو الآخر عن الغناء مجيبا : نفس ماتصلى له أنت ٠٠ عين هذه الاشياء جميعا ٠ وعاد الصديقان من جديد يشاركان فى الاغنية ذات الحكمة المستهترة المتهكمة !

وانتهت الاغنية وساد القطار جميعه الصمت ، ولم يدر أحد سببا لذلك ، ولكنهم نزلت عليهم جميعا لحظة سكنوا فيها ومسهم جد عميق ٠ وتقدم أخيرا جندى اسمه جوهيجنز الى ناحية ماركوس وتوبى قائلا :

ـ ماهذا ؟ ٠٠ لماذا صمتنا هكذا جميعا ؟ ٠٠ ألا تغنى لنا ياتوبى؟ وأنت يامار كوس لم لا تلعب على الاكورديون ؟

ـ وماذا تريد أن تسمع ياجو ٠٠ ؟

ـ أوه ٠٠ أى شىء ٠٠ لا أدرى ٠٠ لقد غنينا كل أغانينا القذرة ، وقد يكون من الاولى بنا الآن أن نغنى واحدة من تلك الاغانى القديمة ٠٠ أنت تعرف ماذا أقصد ٠٠ أغنية جميلة طيبة ٠٠ لم لا نغنى شيئا من أغانى الكنيسة ٠٠ شيئا من هذا الذى كنا نغنيه جميعا ونحن صغار ؟

فقال ماركوس : نعم ٠٠ لم لا ٠٠ ماذا تريد يا جو من أغانى الكنيسة ؟

ـ أريد ٠٠ اسمعوا ٠٠ لاتضحكوا على ٠٠ أريد أن أسمع « مستندا » أتعرفها ٠ ٠ مستندا الى الاذرع الخالدة » ٠

فالتفت ماركوس لتوبى يسأله : أتعرف كلمات هذه الاغنية يا توبى ٠٠ أنا أعرفها وسأساعدك ان كنت لاتعرفها ٠٠

ـ لا أعرفها ؟! .. كيف ؟ ..أظن أننى غنيتها كل أحد فى عشر سنوات طوال ..

ـ اذن .. هيا .. نغنيها لجو ..

والتفت ماركوس لجو يقول له: واذا كنت تريد ياجو أن تشترك فى الغناء فلا تتردد .. فليس من المهم أن تحسن الغناء .. ليس عليك الا أن تشاركنا ..

ـ أوه .. طبعا .. سأغنى ..

وبدأ ماركوس يعزف النغم القديم وسرعان ما شاركه توبى بالغناء :

« ماأجمل الصحبة والفرح الآلهى »
« مستندا .. مستندا الى الاذرع الحالدة »
« ماأنعم البركة ، وماأشمل ماأحس من سلام »
« مستندا .. مستندا الى الاذرع الحالدة »

وارتفع صوت جو عاليا الموسيقية فيه ولكنه مع ذلك محبب جذاب ، يغنى مع توبى ، على حين راح جميع من فى القطار يستمعون اليهما ، ولم يمض الاقليل حتى تجمعوا جميعا حول الثلاثة : ماركوس وتوبى وجو مقتربين ما استطاعوا من كلمات الانشودة القديمة الرائعة ونغماتها ، واستمر جو وتوبى يغنيان :

« مستندا ، مستندا ، آمنا محفوظا من كل شر »
« مستندا ... مستندا الى الاذرع الحالدة »

وعند ذاك كان كل من اجتمع حول المغنين قد اشترك معهما فى الغناء .

- ٣٣ -

خطاب ماركوس لأخيه هومير

كان ذلك الاحد من أطول أيام حياة هومير ماكولى وأملئها بالاحداث • فقد بدأ يرى الاشياء الصغيرة كلها تكتسى برداء جديد من الاهمية ويبدو لها معنى واضح يستطيع أن يفهمه وأن يدركه ، وأصبحت ليلة الامس بما فيها من رقاد مضطرب ملىء بالاسى جزءا دائما من يقظته وصحوه • لقد حاول جاهدا بالامس أن يبعد رسول الموت عن ايتاكا وأهلها ، ولكن هذا الذى كان حلما بالامس لم يعد كذلك الآن •

انه ما زال يحمل خطاب ماركوس معه لم يفتحه بعد ولم يقراه •

ودخل هومير مكتب التلغراف يعرج متعبا يتلهف على أن يستريح ، ولكنه راح أولا ينظر الى القائمة التى يسجلون فيها الطلبات فلم يجد شيئا عليه أن يتسلمه ، فاتجه الى حيث يعلقون البرقيات الجديدة فلم يجد شيئا أيضا • لقد انتهى

العمل وحق له أن يستريح . فذهب الى العامل الهرم وقال له:

ـ أتشاركنى الليلة يا مستر جروجان فى فطيرتين طازجتين .. من فطائر التفاح وجوز الهند بالقشدة ؟

وكان عامل البرق الهرم اذ ذاك نصف سكران . ولكنه قال له : أناصفك الثمن يا بنى .. ولكنى لن آكل من الفطائر .. وشكرا لك على اية حال ..

ـ ولكن اذا كنت لن تأكل من الفطائر ، فلن آكل أنا أيضا، لقد كنت أظنك جائعا ،فأنا لا أحس أبدا رغبة فى الطعام،ولكن هذه هى أول لحظة أستطيع فيها أن أستريح طول هذا النهار ، وانى لأتعجب حقا انى لست جائعا ، فقد كنت اظن ان المرء بعد هذا العمل كله طيلة النهار لابد أن يجوع .. ولكنى لا أحس شيئا من هذا أبدا بالرغم من أنى لم آكل الا صحنا من الشيلى (١) فى السادسة !!

ـ وكيف حال ساقك الآن ؟

ـ بخير .. لقد نسيتها تماما .. فانا على اية حال أتحرك بسهولة .

وراح هومير ينظر لعامل التلغراف الهرم فى تمعن وتطلع ثم قال له فى صوت هادىء : انت سكران يا مستر جروجان ؟

القى هومير سؤاله فى جد واخلاص فلم يجرح الرجل او يتألم بل قال له : نعم .. يابنى .

وذهب الى مقعده فجلس هناك لحظة ثم رفع عينيه ينظر الى الصبى الواقف امامه على الناحية الاخرى من المنضدة وقال :

ـ عندما اسكر أشعر بتحسن كبير .

واخرج زجاجته وشرب منها جرعة كبيرة ثم استأنف حديثه : وانا لا أقول لك يا بنى اياك أن تمس الخمر .. لن اقول لك كما يقول بعض الحمقى .. انظر ماذا فعلت الخمر بى .. واتعظ .. لن اقول لك هذا .. فلن يكون الاسخفا كبيرا. لقد خرجت

---

(١) صحن مكسيكى وطنى من خضروات مطبوخة مع اللحم وابرز عنصر فيها هو الفلفل الاحمر واللوبيا الناشفة .

الى الدنيا الآن ورايت اشياء كثيرة .. لم تكن قد رايتها من قبل .. فدعنى اقول لك الآن شيئا . تمهل جدا وتأن فى كل ما يتعلق بالناس ، فاذا رايت فيهم ماتوقن أنه خطأ فلا تثق كثيرا بيقينك ، كن حريصا جدا اذا ما تعلق الامر بالناس .. وانى لارجو ان تغفر لى اذا كنت مضطرا ان اكلمك ، فانت رجل احترمه ولا يزعجنى ابدا ان اقول لك انه من الخطأ جدا بل من الحمق ان ينتقد المرء الناس وماهم عليه !! اننى لاأعرف شيئا البتة عنك .. لا من انت ، ولا من اين جئت .. ولا كيف اصبحت على ما انت عليه الآن ، ولكنى مع هذا سعيد شاكر لهذا كله . فان المرء كلما اقترب من خاتمة عمره ازداد عرفانه وشكره لاولئك الافراد الطيبين الذين سيموت هو ويتركهم وراءه للحياة . اننى لو لم اكن سكرانا لما قلت لك شيئا من هذا ، وهذا وحده دليل طيب لك كى تعرف ان من الخطأ ان يكون المرء احكاما عن اولئك الناس الذين يفعلون ما يعتقد الآخرون جميعا انه خطأ !! لقد كان من الضرورى ، بل من المهم أن اقول اك هذا وان تسمعه انت ، افليس من الخير اذن انى كنت سكرانا واننى قلت لك ما قلت .. أتفهمنى .؟!

ـ لا اظن ذلك يا مستر جروجان .

ـ اننى أريد ان اقول لك شيئا قد يحرجك ويربكك ، ولم اكن استطيع ان اقوله لك لو لم اكن سكرانا .. اريد ان اقول لك ان تحمد نفسك وان تعرف لها قدرها شاكرا .. نعم .. نفسك انت ، فانا اريدك ان تفهم ان المرء بما هو عليه انما هو شىء يحق له ان يفرح به . بل ان من الواجب عليه ان يسعد به وان يحمد الله عليه . فانه اذا كان خيرا ، فليس هذا لنفسه فحسب ، بل انما هو كذلك لى انا ايضا ، ولكل اخوانه جميعا ، وليس يخصه من هذا حقا الاحماية هذا الخير ونشره حولى انا وكل الناس . وانت يابنى لك فى نفسك خير كبير عليك ان تشكر الله عليه ، فلن يلقاك أحدا لا وهو يحمد الله مرحبا به ، مدركا ما فيك اول ما يلقاك .

ولسبب لا يدريه هومير تذكر فتاة فندق بيتل وطريقتها فى الحديث اليه ، ولكن الرجل الهرم استمر يتحدث اليه على حين راح هو يواصل تذكره للفتاة .

ـ ان الناس جميعا سيعرفون لاول وهلة أنك لن تخدعهم أو تسىء اليهم ، سيعرفون انك لن تحتقرهم ولن تنكرهم وان كان العالم كله قد احتقرهم وانكرهم ، وانك لن تعجز عن أن تتبين فيهم ما لم يقدر بقية الناس على تمييزه وتقديره . ان من الضرورى أن تعرف انت ذلك والا تخجل او ترتبك امامه ، انك يا بنى رجل عظيم على الرغم من سنواتك الاربع عشرة . ولست أدرى أنا ، بل لايدرى أحد ماالذى جعلك هكذا عظيما ، ولكن عظمتك مع هذا حق لا باطل فيه ، فاعرف أنها كذلك وتواضع أمامها ،لاتغتر بها بل احرص عليها واحمها .. اتفهمنى ؟

وأحس الساعى الصغير بحرج شديد ووجد صعوبة كبيرة فى أن يقول :

ـ أظن ذلك يا مستر جروجان .

فواصل العامل الهرم حديثه قائلا :

ـ انى اذن أشكرك ، لقد ظللت أرقبك صاحيا وسكرانا منذ جئت تعمل هنا ، واستطعت دائما فى صحوى أو سكرى أن أعرفك وأن أميز ما فيك . لقد عملت من قبل فى مدن متناثرة فى أجزاء العالم كله ، وكنت حريصا وأنا فى شبابى أن أرى الكثير من مدن العالم ،واستطعت فعلا أن أحقق هذا ، وأينما ذهبت كنت أبحث طوال حياتى عنك ،بل لقد وجدت جوانب منك فى أماكن كثيرة غير متوقعة ولا مطروقة ، وفى أفراد مجهولين لا يعرفهم أحد ، بل اننى وجدت شيئا منك فى كل انسان لقيته ، ولكنى لم أجد فى واحد منهم كفايتى مما أبحث عنه .. والآن وأنا فى ايتاكا وفى طريقى عائدا الى حيث أستقر ، ها أنذا أجدك أنت أفضل وأعظم من كل من وجدت من قبل .. فلو أنك تستطيع أن تفهمنى .. لاستطعت أيضا أن تقبل شكرى .. ما هذا الذى تحمله فى يدك .. خطاب ؟ لقد انتهيت من كلامى .. فهيا أنت يابنى فاقرأ خطابك .

ـ انه خطاب من أخى ماركوس ولم تتح لى فرصة قراءته من قبل .

ـ هيا افتحه اذن .. واقرأه بصوت عال . . أسمعنى خطاب أخيك ...

ـ أتحب أن تسمعه يا مسترجروجان ؟

ـ نعم ، لو سمحت ، فانى راغب فى ذلك كثيرا ٠

وأخذ العامل الهرم جرعةجديدة من شرابه ٠

ومزق هوميير مظروف خطابأخيه واستخرج الخطاب ونشره وبدا يقرأ بصوت عال وفى بطء شديد :

«عزيزى هوميير ٠قبل أى شىء آخر أريد ان أقـــول لك ان كل مالى فى البيت هو ملك لك أنت الآن لكى تعطيه بدورك ليوليسس اذا لم تعد بحاجة اليه ٠٠ كل ما لى من كتب وفونوغراف وأسطوانات وملابس حينما تستطيع أن ترتديها ، ودراجتى وميكرســـكوبى وعدة الصيد ومجموعة الصخورالتى جمعتها من بيدرا ٠٠ وكل شىء آخر أمتلكه هناك فى بيتنا، اننى أعطيها جميعـــا لك أنت لا لبس ، فقد أصبحت أنتالا نرجل بيت ماكولى فى ايتـــاكا ٠ وأنت تعرف طبعا اننى أعطيتأمى أجرى عن العمل أثناء العام الماضى فى مصانع الطعام المحفوظ للمساعدة فى البيت ، ولكن هذا المبلغ لا يكاد يكون كافيا ٠وانى أتوقع أن تفكر أمى وبس سريعا فى الخروج للعمـــل ٠ ولست أستطيع أن أطلب منك ألا تسمح لهما بذلك ولكننى أرجو ألا ترضى أنت من تلقاء نفسك بالســـماح لهما ، نعم انى أعتقـــد أنك لن ترضى عن ذلك كما كنت لا أرضى أنا ٠ ان أمى طبعا ســـتريد أن تعمل وكذلك بس ، ولكن هـــذا نفسه أدعى لان لا تسمح لهمـــا بذلك ٠ ولســـــت أدرى كيف تستطيع أن تجمع شمل أسرتناوأن تذهب الى المدرسة فى الوقت نفسه ، ولكننى أعتقد أنك ستجد حلا لهذا ٠ ان ما يدفعه لى الجيش يرسل لأمى ماعدا بعض دولارات قليلة لا أستغنى عنها أنا ، ولكنى أعرف تماما أن هذا المبلغ لن يكون كافيا ، وليس من السهل على أن أنتظر منك هذا كله ، على حين لم أذهب أنا للعمل الا عنـــدما بلغت التاسعة عشرة ، ولكننى ،على نحو ما أومن أنك ســـتحقق ما لم أستطع أنا تحقيقه ٠

اننى أفتقدك طبعا وأفكر فيك دائما ، وأريد أن أقول لك انى سعيد ، واننى ـ وان كنت لا أومن بالحروب بل أعتقد أنها حماقة حتى لو كانت ضرورة ـ فانى أحس شيئا من الفخر لأنى أخدم وطنى ، الذى هو كما أراه ايتاكاوكل أفراد أسرة ماكولى ٠ انى لا أستطيع أن أتصور عدوى الذى أحاربه انسانا فلست أستطيع أن أرى كيف أتخذ من أى انسان عدوا لى ٠٠ ولكن أيا كان هـــذا

العدو وأيا كان لونه ومدى خطئه فيما يعتقده ، فانى أعتبره صديقى لا عدوى لانه لا يكاد يختلف عنى أنا . ولست أعتقد أننى أحاربه هو بل أحارب فيه نفس هـــذا الذى أريد أن أحطمه فى نفسى أنا أيضا . ولا تظن أنى أتصور نفسى بطلا ، فليست لى القدرة على تلبس مثل هذه المشاعر ، بل اننى لا أحس حتى بمشاعر الوطنية ، فقد أحببت دائما وطنى بناسه ومدنه ، وعشقت دائما بيتى وأسرتى . ولقد كنت أفضل الأكون فى الجيش وأرجو ألا تكون حالة حـــرب ، ولكن مادمت قد وجدت نفسى فى الجيش ووجدت هذه الحرب قائمة فقـد عزمت منذ أمد على أن أكون أفضـــل جندى أستطيع أن أكونه . اننى لا أعرف ماذا ينتظرنى ولكن أيا كان هذا فانى أنتظره مسـتعداله فى خشوع وتواضع . ولابد أن أقول لك اننى خائف جدا ، ولكنى واثق تماما أنه اذا ما حان الوقت فسأؤدى ماهو متوقع منى ، بل قد أجاوزه ، ولكنى على أية حال ، وهذا ماأريدك أن تعرفه ، لن أكون مطيعا فى هذا كله الا لما يمليه على ضميرى وصـــوت فؤادى . ان معى الآن اخوة من كل أنحاء أمريكا ، وآلافا متعددة من مدن كايتاكا ، ويجب على أن أقول لك فى صراحة دون تغطية أننى قد أقتل فى هذه الحرب ، ولاشك طبعا انى لاأحب التفكير فى هـــذا ، فليس أحب الى فى العالم من العودة الى ايتاكا وقضاء سنوات طويلة معـــك ومع أمى وأختى وأخى . . انى أريد العودة من أجل مارى ، وماأريده لنفسى من بيت وأسرة . . ولـكن من المتوقع جدا أن نسافر قريبا الى جبهة القتال ، ولايعرف أحد أين يكون هذا ، ولكن من المفهوم بيننا جميعا أننا سنرحل قريبا . ولهذا قد يكون هذا الخطاب آخر خطاب لك ، الى حين ، فأنا أرجو الا يكون آخر خطاباتى جميعا . على أنه اذا كان كذلك فاعمـــل على الا يتفرق شملنا ، وألا تتصور أبدا انى قد ذهبـت الى الابد ولاتدع الآخرين يشعرون بذلك . لقد اتخذت لنفسى هنا صديقا اسـمه جورج توبى ، وهو يتيم لقيط ، ومن العجيب أن يصبح هو من بين الآخرين جميعا صديقا لى . وقد حدثته عن ايتاكا وعن أسرتنا ، وأنوى فى يوم من الايام أن أصحبه معى الى هناك . . .

وأنا أرجو منك ألا تحزن عندما تقرأ هذا الخطاب ، فاننى سعيد اذ كنت أنا الذى أرسل للحرب من أفراد أسرة ماكولى وليس أنت ، والا كان هذا خطأ يدعو للحزن حقا .

انى أسـتطيع الآن أن أكتب لك مالم أكن أقدر على أن أحدثك

به . أستطيع ان أقول انك أفضل أبناء أسرة ماكولى ،وان عليك أن تظل كذلك وألا تدع شيئا يعوقك أو يوقفك . انك الآن فى الرابعة عشرة، ولكنك ستعيش ويجب أن تعيش حتى تبلغ العشرين والثلاثين والاربعين والخمسين والستين ،يجب أن تعيش سنى حياتك كلها الى الابد ، بل اننى مطمئن أنك ستفعل .وسأظل أنا أرقبك دائما، فأنت هو هذا الذى نخوض الحرب من أجله .. نعم..أنت ، أخى. كيف كنت أستطيع ان أقول لك مثل هذه الاشياء لو أننا كنا الآن معا ؟ فلو كنت الى جانبك الآن لألقيت نفسك على ولرحت تصارعنى وأنت تتهمنى بأنى أحمق!! ولكن،مع ذلك، فان كل ماقلته أنا حق صحيح تماما . سأكتب لك الآن اسمك هنا حتى تراه وحتى أذكرك من أنت : هومير ماكولى ، نعم ، هذا هو أنت . اننى افتقدك جدا ياهومير ،ولا أكاد أستطيع ان أنتظر حتى أراك مرة أخرى.فاذا ماحدث هذا والتقينا من جديد ، فسأتركك تعاركنى، وأدعك تلقينى أرضا على ظهرى فى غرفة الجلوس أمام أمى وأمام بس ويوليسسس . بل حتى أمام مارى أيضا .. سأدعك تفعل هذا لانى سأكون سعيدا جدا المجرد أن أراك مرة أخرى.ليباركك الله ، والى اللقاء ..

أخوك ماركوس

كان الساعى الصغير قد جلس أثناء قراءته للخطاب وراح ينطق الكلمات فى بطء شديد مبتلعا ريقه بين حين وآخر ، مستشعرا، مرات عديدة عين هذا المرض الذى فاجأه عندما كان فى بيت الام المكسيكية ، وعندما بكى فى تلك الليلة التى جاب فيها ايتاكا على دراجته بعد العمل . فلما فرغ من قراءة الخطاب هب واقفا ،وقد ارتعشت يداه وراح يعض على شفتيه وينظر متطلعا الى الرجل الهرم الذى لم يكن يقل فى انفعاله وتأثره بالخطاب عن هومير نفسه.

وقال هومير فى خفوت : لو قتل أخى فى هذه الحرب الحمقاء .. فسأبصق على العالم كله . . .سأكرهه .. ولن أكون طيبا بعد ذلك ..سأكون شرا من فيه، وأسوأ من عاش على هذه الارض .وتوقف فجأة وقد صعدت الدموع الى عينيه ثم أسرع الى صندوقه وراء ذراع التيار فخلع رداء العمل وارتدى ملابسه العادية ، ثم خرج من المكتب يجرى من غير أن ينظم هندامه .

وظل عامل البرق الهرم جالسا بعد ذلك وقتا طويلا ، وساد المكان صمت وسكون عميق ،فهز الرجل نفسه أخيرا وجرع ماتبقى فى زجاجته ثم قام واقفا ينظر حوله فى المكتب .

- ٣٤ -

اليك قبلة

تسير حياة الناس فى ايتاكا بل فى العالم كله على نحو قد يتوهمه المرء أول الامر سخيفا لامعنى له ، فاذا مامرت الايام والليالى وتراكمت الشهور والسنون ، أدركنا ماكان فى هذا النحو القديم من جمال ، وتوارت معالم القبح التى كانت فيه مرتدية ثيابا من نعمة الحنان والحب ، وأحسسنا ان قوى الخشونة والغلظة قد لطفت واستحالت الى قوى جديدة أكبر وأعظم من التحبب والوداعة . وعند ذاك لانكاد نميز لون الشر، فقد ضاع وتبدد فى ضياء الخير المنير ، وامتزجا معا فى لون جديد يفوق جماله ماكان للخير وحده من ضياء .

وظل صندوق البرق يدق مرة بعد أخرى فيجلس مسترجروجان الى آلته الكاتبة يدق رسائل الحب والامل وأخبار الالم والموت آتية من العالم كله الى أطفاله جميعا . : « عائد الى البيت » ، « ميلاد سعيد » ، « تأسف وزارة الدفاع أن تبلغكم أن أبنكم ... »،

« قابلني في محطه باسفيـــك الجنوب » ، « اليك قبلة »، « أنا بخير » ، « فليبارك الله » ... وهومير دائما يوصل هذه البرقيات جميعا ...

وفي غرفه الجلوس في بيت ماكولي شـدت أوتار القيثـارة وسمع بشير الغناء ... أما الجنود فقد ظلوا يتحركون سائرين على الارض وفوق المـاء أو في الهواء عابرين أماكن جديدة ، تمر بهم الايام والليالي الى نوم جـديد ولحظات جديدة غريبة قد ملأتها أصوات خارقة ومشاكل لم يسمع بها أحد، وأخطار بالغة في القسوة لايكاد يصدقها انسان . ومع هذا كله .. تتغير وجوه الاحياء جميعا على نحو خفي غير ملحوظ ... نعم وجوههم جميعا ... ماركوس ، توبي ، هومير ، سبانجلر ، جروجان ، مسز ماكولي ، يوليسس ، ديانا ، أوجي ، ليونيل ، بس ، مارى ، وفتاة فندق بيثل ... وروزالي سيمس ، ومستر آرا وابنـه جون ، وكريس الضـخم ... ومس هيكس ... بل حتى الرجل الآلي .

وظل قطار البضاعة الذي يحمل الزنجي في عربته الاخيرة سائرا يطوى الارض ، والسنجـاب الصغير يطل من حجره ، واكتسى المشمش على شجرة هندرسـون بلون باسم جميل من ضوء الشمس وحمرة خدود الصبية الذين جاءوا يسرقونه ، وغادرت الدجاجة الراقدة كنهـا ، وخرجت وراءها جماعة الكتاكيت الصغـار ، ويوليسس ... مازال كما هو دائما يرقب ويتفرج ، والعرج في ساق هومير قد شفى ... وجاء على ايتاكا أحد عيد الفصح ومضى بعد العيد أحد آخر فثالث ورابع، وتعاقبت على ايتاكا الآحاد حتى جاء هذا الاحد الذي جلست فيه أسرة ماكولي كلها تصحبهم مارى أرينا في أولى كنائس ايتاكا انبرسـبتيرية . وكان مجلس يوليسس على الممر وقد تصادف، وكأنما هي معجزة دينية ، أن جلس أمامه مباشرة رجـل أصلع الرأس . وبدا ليوليسس أن الرأس موضوع رائع للفرجة، وأن شكله الذي يكاد يشبه البيضة يستحق الدراسة والنظر . كانت هنالك في الرأس الاصلع بضع شعيرات نمت منعزلة وحيدة في بطولة وجسارة ، وانقشع الرأس عن معجزة من التخطيط بتجعيدة طويلة تمر في وسطه كما يمر خط الاستواء بالارض . ان الرأس بدا ليوليسس شيئا رائعا فاتنا حقا .

وكان القس المبجل قد بدأ مع الحضور في الكنيسة حوارا ثنائيا دينيا عن الحياة المباركة ، فقرأ القس أولا آية من الانجيل وأجابه الحضور في صوت قوى وحنون .

وتغنى الاب بالآية : (متى - الاصحاح الخامس - آية ١) :

« ولما رأى الجموع صعد الى الجبل . فلما جلس تقدم اليه تلاميذه . »

« ففتح فاه »

فاجاب الحضور : وعلمهم قائلا:

« طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السموات » .

« طوبى للحزانى . لانهم يتعزون »

« طوبى للودعاء . لانهم يرثون الارض » .

« طوبى للجياع والعطاش الى البر . لانهم يشبعون »

« طوبى للرحماء . لانهم يرحمون »

« طوبى لأتقياء القلب . لانهم يعاينون الله »

« طوبى لصانعى السلام . لانهم أبناء الله يدعون »

« افرحوا وتهللوا : أنتم ملح الارض . أنتم نور العالم »

« فليضيء نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات» .

كان الحضور يجيبون القس بآيات الانجيل ويوليسس منهمك فى فحصه للرأس الاصلع ، وعلى حين فجأة حطت على موضوع درسه ذبابة زينته وبدأت تجوب الرأس مستكشفة، فانتعشت روح الصبى الصغير التى كاد أن يشملها النوم . وراح يوليسس يرقب الذبابة برهة ثم مد يده يحاول أن يمسك بها ، ولكن مسز ماكولى قبضت بلطف على يده وظلت ممسكة بها . فاستمر يوليسس يحملق فى الذبابة على الرأس الاصلع وهو لا يفكر فى شىء بالذات ، وسرعان ما استغرقه حلم من أحلام اليقظة حمله بعيدا عن كل شىء . رأى يوليسس جلد الرأس الناعم كأنه صحراء واسعة، وشاهد فى التجعيد الذى يمر بوسطه نهيرا صغيرا وفى سبع الشعيرات نخلات طويلة ، وفى تلك الذبابة أسدا هصورا . ولكنه حلم بنفسه أيضا وقد ارتدى ملابس الاحد، ووقف على ضفة النهير يرقب الاسد على الناحية الاخرى، على حين التفت الاسد بدوره وراح ينظر اليه ، وكانت قراءة آيات الانجيل مستمرة متصلة .

وتبين يوليسس عن بعد أعرابيا فى ثياب فضفاضة رقد نائما على الرمل والى جواره ماندولين أو شيء آخر ، ولكنه آلة موسيقية على أية حال ، ثم ابريق صغير فيه ماء . ورأى الاسد يقترب فى سلام ووداعة أشبه ما تكون بوداعة الرجل النائم ، وانحنى على راس الرجل يشمه دون ان يقصد به أى ضرر .

وانتهت القراءة من الانجيل ، وبدأ أرغن الكنيسة يتنفس فى عظمة وروعة ، وشرعت الجوقة والحضور جميعا يغنون « صخرة العصور » .

وتلاشت رؤى الصحراء من عينى الحالم الصغير وبدا فى مكانها محيط واسع ، ورأى يوليسس نفسه يتشبث بصخرة قد علت بضع أقدام على سطح الماء المنعزل الذى غمره كله الا راسه ويديه . وراح يتلفت حوله عن مفر او منقذ ولكنه لم ير شيئا غير الماء ، الا انه ظل مع ذلك صابرا لم يفقد الامل أو الايمان . واخيرا راى يوليسس من بعيد الرجل العظيم ، كريس الضخم سائرا على الماء متجها اليه حتى وصل عنده ومد يده دون أن ينطق بكلمة ، فرفعه من الماء الى سطح المحيط . ولكن يوليسس ، بعد لحظة وقع من جديد وتناثر الماء حوله ، فمد كريس الضخم مرة أخرى يده واستخرجه . ولما أعاده واقفا على قدميه امسك بيده وسارا معا على الماء . ولاحت عن بعد أبراج مدينة بيضاء امتدت حولها الارض وازدهر النبات وأخذ الرجل والصبى يسيران ميممين صوب المدينة البعيدة .

وانتهت الاغنية ، واحس يوليسس ان أحدا يهزه فجاة ، فصحا من حلمه مفزوعا ليرى ليونيل يهزه وقد امسك طبقا يجمع فيه الحسنات للكنيسة . وعندما عثر اخيرا على الخمسة السنتات التى معه وضعها فى الطبق وانتقل من بعده الى أمه .

وانحنى ليونيل على يوليسس يهمس اليه فى خشوع ورهبة غامضة : يوليسس ؟ هل خلصت نفسك ؟

ـ ماذا ؟

ـ اقرأ هذا ..

وناول صديقه نشرة دينية مطبوعة . فبدا يوليسس يتفحصها ولكنه لم يستطع أن يقرأ ما عليها من حروف كبيرة كتبت بها

الكلمات التالية : « هل خلصت نفسك ؟ ان الوقت لم يضع بعد » .

واتجه ليونيل الى الناحية الاخرى من الممر حيث يجلس رجل عجوز وكرر عليه نفس السؤال : هل خلصت نفسك ؟

فالتفت الرجل الى الصبى بقسوة وهمس له نافد الصبر : سر فى طريقك ايها الغلام .

ولكن ليونيل لم يمش ، بل قدم للرجل واحدة من نشراته ، وكانه من الشهداء القديسين . فثار الرجل الهرم وضرب النشرة فاوقعها من يد ليونيل ، فافزع الصبى وزاد فى شعوره بانه احد الشهداء العظام .

وهمست زوجة الرجل الهرم : ماذا حدث ياعزيزى ..

ـ هذا الغلام .. يسألنى .. هل خلصت نفسى ؟ .. وبعد ذلك يناولنى هذه ..! وانحنى الرجل فالتقط النشرة من على الارض وناولها لزوجته قائلا : ناولنى هذه .. هذه النشرة » . وبدأ الرجل يقرأ فى شىء من الثورة والحنق ماعليها من كلمات : هل خلصت نفسك ؟ ان الوقت لم يضع بعد .

وربتت الزوجة على يد الرجل الهرم قائلة : هون عليك ، لاشىء فى هذا .. فمن اين يعرف الصبى انك كنت مبشرا فى الصين ثلاثين عاما ؟

وواصل الصبية عملهم الدينى فى جمع الحسنات على حين كان الارغن يدق فى رقة وعذوبة ، وارتفع فى الكنيسة صوت رفيع عال يغنى . كان ليونيل وأوجى وشاج ومعهم عدد آخر من صبيان ايتاكا قد وقفوا فى آخر الممر الرئيسى وقد حمل كل منهم طبقا يجمعون فيه الحسنات . وظل الصبية فى مكانهم حتى فرغت الموسيقى فانحدروا فى جد يسيرون فى الممر وقد علاهم صمت عجيب ومضحك ، متجهين مباشرة الى اسفل المحراب ، وهناك وضعوا اطباقهم واحدا فوق الآخر ثم عادوا الى اماكنهم فى جوار اهليهم .

ـ ٣٥ ـ

ضحك الاسد

وقف أوجى جوتليب ، بعـدان فرغ من زيارة الكنيسة ومن طعام الاحد ، وسط فناء بيتهم الخلفى يرفع شبكة من شـباك التنس القـديمة آملا أن يخرج منها شـيئا ذا نفع . ومر به نشيطا أنوك هوبر ، وهو صبى فى عمره تقريبا ، ووقف الى جانبه بخفة وراح يرقبه فى خفة كذلك . وكان الصـبى يمتلك كرة باسبول قديمة قد ذهب غطاؤها ولكنه ظل مع ذلك يضربها بعنف على ارض الرصيف حتى تقفز الكرة عالية جدا ، ثم يلقفهـا ليعود يضربها من جديد مرة بعد اخـرى ـ كان انوك هوبر أكثر صبية أيتاكا عصبية وقلقا واسرعهم حركة واقلهم صبرا واعلاهم صوتا فى الحديث .

ـ ماذا تفعل يا أوجى ؟

ـ شبكة .

ـ شبكة ماذا ؟ للسمك ؟

ـ لا .. للحيوانات .

ولكن حتى هذا الحـديث القصير كان قد أمل أنوك هوبر فقال : أوه .. هيا بنا .. هيا نلعب باسـبول .. أو نذهب الى خزان جوجنهيم لنتسلقه .

ـ لابد أن أعد هذه الشبكة ..

فصاح أنوك نافد الصبر : تعدها لماذا ؟

ـ لصيد الحيوانات .

ـ أين هى هذه الحيوانات التى تراها حولنا .. تعال .. هيا بنا نذهب الى بحيرة مالقة لنستحم ..

ـ هذه الشبكة ستصطاد الحيوانات لا شك فى ذلك ..

ـ انك لن تستطيع أن تصيد برغوثا بشبكة التنس هذه .. هيا .. هيا بنا نلعب .. أو تعال نتسلل الى سينما الجوهرة لنرى فلم طرزان ..

ـ اننى سأصطاد بها فى أول الامر كلبا كى أجربها .. فاذا ما صلحت .. تعال اذن وتفرج ..

ـ هذه شبكة تنس قديمة ولن تستطيع أن تصطاد بها شيئا .. تعال نذهب الى حديقة المحكمة أو الى سجن المدينة نحادث المساجين ..

ـ لابد أن أعد شبكتى أولا .. وسأجربها اليوم .. فاذا وجدتها نفعت فغدا اذن .. غدا ..!

ـ ماذا غدا ..؟! هل ترى هنا حولنا حيوانات..؟ ماذا.. بقرة ؟ كلب أو كلبين .. بضعة أرانب ... دجاج ... ماذا تصطاد بها ؟

ـ شبكتى هذه قوية .. انها تصلح حتى لدب ..

ـ كفى هراء .. وهيا بنا .. ما هذا الذى تتخيل أن تمسكه بهذه الشبكة القديمة ..؟ تقول انها تصلح لدب ؟ انك لن تستطيع أن تمسك بها ولو دبا محشوا بالقش .. هيا.. هيا بنا نذهب الى حى الصينيين لنسير فى شارع الصين ..

فتوقف أوجست جوتليب لحظة عما فى يده من عمل ليفكر فى حى الصينيين ومن فيه من صينيين ، ثم رفع نظره الى أنوك هوبر قائلا : أخائف أنت من الصينيين ..؟

فأجابه أنوك مخلصا : خائف .. لا .. أنا لا أخاف شيئا أبدا ، فهم حتى وان كانوا خطرين ، فلن يستطيعوا أن يلحقوا بى أبدا .. أنا سريع جدا .. اذا ما أطلقت ساقى ..

ـ أعتقد أن الاسد نفسه لايستطيع أن يلحق بك .

ـ لا .. انا سريع جدا .. فاين يذهب الى جانبى الاسد .. او اى شىء آخر . الدببةاو النمور أو الصينيون ، انني أسرع منهم .. هيا .. الآن .. هيا بنا لنعبر سكة حديد جنوب الباسفيك وهناك نلاعب فرقة كوزموس .

ـ اعتقد أن صيدك انت فى الشبكة أصعب من صيد الاسد!

ـ ليس هناك شبكة فى العالم من السرعة بحيث تستطيع أن تصطادنى .. تعال .. تعال الآن نذهب الى اراضى الملاعب المسواة لنتسابق ميلا فى المجرى .. وساعطيك مقدما مائة ياردة امامى ..

قال اوجى :

ـ ان اباك نفسه لا يستطيع أن يلحق بك ..

ـ يلحق بى !.. لا .. انه لايستطيع أن يقترب منى .. ولوجرى ورائى لاعماه ترابى ..

وعند ذاك قدم عليهما ليونيل قائلا : ماذا تفعل يا أوجى ؟

ـ شبكة..لصيد الحيوانات.

فقال انوك : انه لن يستطيع أن يمسك برغوثا بهذه الشبكة يا ليونيل .. هيا .. تعال معى الى الارض الفراغ ترسل لى الكرة لاصدها .. ثم ارسلها انا لك بعدذلك.. ماذاتقول فى هذا؟

قال ليونيل : انا ؟

قال انوك : نعم ، يا ليونيل .. هيا.. ارسلها لى بقوة.. وانا سارسلها لك سهلة جدا .. هيا .. هيا .. لقد كاد العصر ينقضى .

قال اوجى : اتفقنا يا انوك .. لكن تذكر ما قلت .. انك سترسلها لى سهلة هينة .. فانا لا احسن صد الكرة واحيانا تضبع منى فتضربنى فى وجهى. . وقد أصابت مرة عينى واصابت انفى مرتين ..

قال انوك : لا تخش شيئا .. سارميها سهلة جدا .. هيا .. هيا بنا ..

وعبر انوك هوبر وليونيل كانوت الطريق الى الارض الفراغ

وعاد أوجى الى عمله من جديد. وفرغ اخيرا من حياكة اجزاء شبكة التنس القديمة كلها حتى اصبحت لديه قطعة كبيرة مربعة تقريبا . فراح يشدها من أطرافها ثم ثبت كل ركن من أركانها فى عصا غرزها فى الارض وبدأ يتفرج على ما صنعت يداه .

وجاء شاج مانوجيان من ناحية سور الفناء الخلفى وسأل أوجى : ما هذا ؟

فقال أوجى : شبكة لصيد الحيوانات.. اتريد أن تساعدنى فى تجربتها ..؟

ـ نعم .. طبعا .. ولكن كيف تجربها ..؟

ـ هذا ما سأقوله لك .. انى سأمسك الشبكة واختفى وراء محل آرا .. وأنت تنادى انوك .. فهو هنا يلعب بالكرة مع ليونيل ، وانوك كما تعرف اسرع واصعب فى صيده من اى اسد ، فاذا استطاعت هذه الشبكة ان تمسك به فلا شك انها ستمسك بأى شىء آخر بعدذلك .. اتفقنا .. لقد اختفيت . . أنا مستعد . . هيا فلتناد انوك .. قل له انك تريد أن تطلب منه شيئا ..

ـ ليكن .

وتطلع شاج الى انوك فى الارض الفراغ ثم رفع صوته عاليا ينادى : انوك .. انوك ..

فالتفت انوك هوبر صارخا وقد ارتفع بصوته أضعافا على صوت شاج : ماذا تريد يا شاج ..

ـ تعال هنا .. اريد ان اسألك شيئا ..

ـ ماذا تريد منى ؟

ـ ساخبرك اذا ما جئت ..

ـ حسنا .

وبدأ يجرى ناحية شاج ، وجاء وراءه ليونيل لا يعرف اذا كان يحسن به ان يجرى أو أن يسير ..

وهمس اوجى : هذا ما يجب.. تعال الآن واختف هنا ياشاج .. امسك طرف الشبكة ، فاذا ما جاء قفزنا عليه انا

وأنت وهو يدور عندناصيةالمحلواصطدناه !! هل فهمت ؟

وصاح انوك وهو يجرى مسرعا : هيا بنا نذهب الى بحيرة ملقـة لنستحم .. لقد ضاع العصر ولم نفعل شيئا .. ماذا ننتظر هنا ؟

واستدار أنوك سريعا عند ناصية المحل فقفز عليه أوجى وشاج ونشرا الشبكة فوقه . ولا شك أن أوجى كان محقا فيما توقع ، فقد راح أنوك هوبر يتحرك كحيوان مفترس متـوحش أشـبه مايكون بالاسد . وبذل الصائدان جهدهما كله الا أن الشبكة لم تكن قوية الى حد الكفاية ،فسرعان ماخرج أنوكهوبر واقفامنتصبا لم يصبه شيء مسرورا جدا بنتيجة التجربة .

وضرب الكرة على الرصيف ثم قال : أوجى .. هيا بنا .. ان هذه الشبكة لن تصـطاد برغوثا .. هيا .. ماذا تنتظر ؟ ..

فقال أوجى وهو يلقى شبكته في الفناء : لا مانع .. هيـا بنا الى حديقة المحكمة نكلم المساجين .. وانحدر أوجى وأنوك وشاج في الطريق ووراءهم غير بعيـدليونيل ، متجهين جميعا الى حديقة المحكمـة ، ولم يمض قليل حتى كان أنوك هوبر قد سبقهم جميعا ناصية بأكملها فتوقف يصـيح فيهم : هيا .. أسرعوا .. ماهذا البطء ؟

وهبط طائر أمامه من الشجرة فصوب كرته اليه ولكنه أخطاه .

- ٣٦ -

الاشجـــار والكروم

خرج توماس سبانجلر وديانا ستيد فى عربة قديمة مكشوفة يتنزهان عصر يوم الاحـــد حول كنجزبرج .

وفى الطريق أشار توماس الى صف من الاشجار يحيط بالكروم وقال : هذه أشجار التين .. والكروم من ورائها عنب موسكاتى .. وانظرى هناك .. تلك أشجار الزيتون .. وهـــذا رمان .. والكروم هنـــاك من عنب ملقة .. وبعد ذلك تكعيبة من أشجار الخوخ .. وذاك مشمش .. هذا الوادى أجمل وديان العالم .. أنظرى هذه .. شجرة جوز ، وهذه شجرة برسيمون لاترينها كثيرا ! ان كل ماهو جميل رائع ينمو فى هذا الوادى .

فقالت المرأة الشابة : أوه .. ياحبيبى .. انك تحب الاشجار .. اليس كذلك .. ؟

ـ أنا أحب كل شىء .. ولكن لاتســـألينى الآن .. اذا كنت أحبك .. فأنا أفعل .. أنا أحبك وأحب العالم أجمع وكل مافيه !

ورفع صوته وقال وهو يكاد يصيح : لقد رأيت نهر الحياة النقى صافيا كالبللور ، ورأيت فى المجرى وعلى الضفتين شجرة الحياة قد حملت ألوانا من الفاكهة وجعلت أوراقها بلسما للشعوب !

وانحنى سبانجلر على الفتاة فقبلها عند منتهى عينها .

ـ حبيبى .. أنت سعيد ؟

ـ طبعا .. طبعا .. انى لا أهتم كثيرا بمسألة السعادة هذه .. ولكن أيا كانت فلا شك عندى أنها شىء مثل الذى أنا فيه .. أنظرى .. أشجار زيتون أخرى !!

ولف ذراعه حولها وقال : انى لا أستطيع الانتظار لأعرف ماذا يكون .. وأظن أننى أفضل أن أكون فتاة صغيرة ، وانى لأحب أن تتحرك حولى ابنة صغيرة تشبهك تماما .. وأحب أن أسمع صوت مثل هذه الفتاة .. !!

وأضاف توماس فى رقة : « أتعرفين .. لقد كنت أحسبك من قبل حمقاء .. » وقبلها على فمها ثم قال : أما الآن .. فلا شك أن من يستطيع أن يفعل هذا فهو ليس بالأحمق .. وها أنت قد استطعت .

ـ أوه ياحبيبى .. كم أردت ذلك .. وأنا لست خائفة أبدا .. لست خائفة على الاطلاق !

وسارت العربة الصغيرة فى موازاة نهر الكنجز مقتربة من الحدائق التى يخرج اليها الناس للنزهة ، وهناك فى عصر هذا اليوم تجمعت جماعات كبيرة من الايطاليين .. ثم من اليونانيين ثم من الكرواتيين والصرب ثم من الارمن ثم من الامريكيين وكلهم يغنون ويرقصون . وكانت كل جماعة منهم تتغنى بموسيقاها وترقص رقصها الوطنى ، فراح سبانجلر يوقف عربته دقائق عند كل جماعة يستمع الى الموسيقى ويتفرج على الرقص مستكشفا فى كل منها ما يجب أن يعلق عليه وأن يحدثها به .

ـ أنظرى .. أولئك يونان .. انى أعرف هذا من الموسيقى فقد كنت أعرف قديما أسرة من اليونانيين ؟ هل ترين هذه الفتاة التى ترقص ؟ هكذا كانوا يرقصون فى وطنهم القديم » .

وسارت العربة قليلا ثم وقفت من جديد .

ـ وهؤلاء من الارمن فانى لا أعرف هذا من القسس والاطفال

الذين معهم .. فهم يؤمنون بهذا .. بالله وكثرة النسل . انهم يشبهون اليونانيين شيئا ماوفيهم بعد ذلك من الناس جميعا شيء آخر .. أترين هذا الرجل الهرم وهو يرقص .. ؟ استمعي الى الموسيقى ..

وسارت العربة لتقف مرة اخرى عند جماعة جديدة .

ـ واظن هؤلاء من الكروات والصرب .. وقد يكون بينهم آخرون من تلك المنطقة .. فهم جميعا سواء .. ولف ذراعه حول الفتاة وقال لها في سرعة : « انى أريدها أن تكون فتاة صربية صغيرة .. ولم لا تكون فيها شيء من اليونان ايضا .. أو من الارمن .. أو الطليان أو الروس . بل انني أريد ايضا أن يكون فيها شيء من الالمان والاسبان والفرنسيين كذلك .. نعم .. قليل من كل مكان ..»

وعادت العربة تسير لتقف من جديد : وهؤلاء .. أتعرفينهم؟. ايطاليون . لقد يكون كوربيت هنا في مكان ما مع زوجته وأولاده .. أتسمعين غناءهم لأنشودة الحب ؟.

وسارت العربة حتى الجماعة الاخيرة من المتنزهين ، فبدوا وكأنهم أروع الجماعات جميعا ولكنهم لاشك أكثرهم حمية وانطلاقا . كانت موسيقاهم هي الجاز والسوينج والبوجي ـ ووجي ، ورقصهم غاية في العنف والشدة . وصاح سبانجلر :

ـ امريكيون !.. انظري اليهم .. امريكيون .. من اليونان والصرب والبولنديين والروس والارمن والالمان والاسبان والبرتغاليين .. من الايطاليين والحبش واليهود والفرنسيين . من الانجليز والاسكتلنديين والايرلنديين .. انظري .. استمعي لهم ..

وظلا ينظران ويسمعان لحظة ثم استأنفت العربة سيرها مبتعدة ..

- ٣٧ -

ايتاكا .. وطنى .. ايتاكا

كان ذلك فى العصر عندماوصل قطار « سانتافيه » للركاب قادما من سان فرنسيسكو وتوقف فى محطةايتاكا لينزل منه تسعة ركاب كان بينهم جنديان شابان . وقبل أن يعاود القطار تحركه من جديد نزلمنه جندى ثالث يعرج قليلا بقدمه اليسرى وسار مبتعدا يتحركفى بطء .

ونظر الجندى الاول لصديقهوقال : هذه هى اذن ايتاكا .. ياصديقى .. لقدعدنا الىبيتنا.

فقال الجندى الثانى :

ـ يا الهى .. انظر اليها ..نعم دعنىاشبع منها .. الله .. الله .. بيتى .. ايتاكا . اننى لا أعرف شعورك أنت الآن .. ولكن انظر .. هذا ما احس به . وانحنى الجندى علىركبتيه وقبل الحجر على أرض رصيف المحطة قائلا : قبلة لك منى ياايتاكا .. وقبل الارض وهو يقول : وقبلة خرى ..واخرى .. وراح يقبلها من جديد .

فقال الجندى الاول :

ـ هيا بنا .. ياهنرى .. فم،ان الناس ينظرون الينا .. اتريد أن يقولوا ان الجند مجانين ..

ـ لا .. انا لا احب ان يقولوا ذلك .. ولكن ماذا افعل .. انى لا استطيع ان منع نفسى .. يا الهى .. وطنى .. ايتاكا .. وقام واقفا واخذ ذراع صديقه قائلا : « هيا بنا ياداني . . . فلنذهب » .

قال دانى : انك تقول ان اهلك سيدهشون عندما يرونك ؟ ! انتظر . . لترى ماذا يفعل اهلى أنا .. انى متأكد من انهم لن يستطيعوا ان يصدقوا عيونهم من دهشتهم !!

وسار الشابان معا حتى الناصية التالية من الطريق فى نفس الشارع الذى يقطنه مستر آرا وفيه محله . وتوقفا فجاة ، وراحا يعدوان ، أحدهما الى شرفة منزل قريب .. والآخر الى شرفة المنزل المجاور . وحرج آلف رايف من وراء احد البيوت ووقف على الخضرة المزروعة بين البيتين يتفرج . وعندما فتح الباب فى هذا البيت فتح الباب فى البيت الآخر ، وفى نفس الوقت احتضنت المرأة التى فتحت اباب فى كل من البيتين الصبى الواقف امامها . ولم يلبث ان انضم اليهما رجال وبنات وبنون ، وراحوا جميعا يقبلون الجنديين . ولكن آلف اكتشف ان هناك خطا ما ، وراح يصيح باعلى صوته :

ـ ليس هو .. ليس هو .. انه دانى بوث ابن الجيران .. لقد عاد .. انه يسكن فى بيت الجيران . ودخل البيت خطأ . لقد كنا نحسبه لنا .. انه ابن مسز بوث .. وهذا اخونا نحن بقبل مسز بوث .. ليس هو .. ليس هو .. بالمى ..

وقالت مسز رايف لدانى بوث : أوه .. هللو دانى .. لقد حسبناك هنرى ..

ـ لا بأس يامسز رايف .. اننى ذاهب لقبل امى هناك .. وارجو ان تأتوا جميعا ايضا .

وعلى الشرفة فى المنزل الآخر كان هنرى رايف يقول : هللو .. مسز بوث .. لا تأتون الى بيتنا .. جميعا .. اننى مسرور جدا

برؤيتكم يامسز بوث . وقبلهامرة اخرى قائلا : هذا دانى يقبل امى على شرفتنا ..

وتكاثر الناس على العشب الاخضر بين البيتين رائحين غادين فى ارتباك وبهجة محببة، على حين ظل آلف رايف يصيح مرة بعد اخرى : ليس هو ..ليس هو .. لقد دخل البيت خطأ .. انه يسكن بيت الجيران.. هيه .. هنرى .. ماماهنا .. هذه مسز بوث .. دخلت خطأ .. ياهنرى !..

- ٣٨ -

ان الحب خالد وأما الكراهية فتموت كل لحظة.

كان هومير ماكولى واخته بس واخوه يوليسس وصديقتهم مارى أرينا قد خرجوا جميعا يتريضون فى ايتاكا عصر يوم الاحد ، فمروا فى سيرهم بصف من الناس واقفين أمام دار السينما وتبينوا ليونيل بينهم . فتوقف هومير وقال : هللوليونيل هل ستدخل السينما ؟

قال ليونيل : ليس معى نقود .

فقال هومير : لماذا تقف اذن فى الصف ؟

ـ قال ليونيل : كنت مع أوجى وشاج وانوك فى حديقة المحكمة نكلم المساجين ولكنهم طردونى ولم أعرف أين أذهب . ولما رأيت أولئك الناس واقفين جئت أنا الآخر ووقفت معهم ..

قال هومير : وكم بقى لك هنا فى الصف ؟

قال ليونيل : حوالى ساعة فيما أظن ...

قال هومير : ... ولكن هل تريد أن ترى الفيلم ؟ وأخرج من جيبه بعض نقود ، ولكن ليونيل أجابه :

ـ لا أدرى ... ليس هنـاك مكان أذهب اليه ولكنى لا أحب السينما كثيرا .

قال هومير : حسنا أذن ...لم لا تأتى معنا ... اننا نتفرج على نوافذ المحلات ... وسنسير قليلا ثم نعود الى البيت ، فتعال معنا ياليونيل ...

ورفع الحبل الذى يصطف خلفه الناس فخرج ليونيل من تحتـه مغادرا الصف وهو يقول :

ـ شكرا ...أنا كنت فعلا قد تعبت من الوقوف على هذا النحو .

وبينما هم سائرون وقف يوليسس فجأة وراح يشد ذراع أخيه هومير مرات عديدة مشـيرا الى أرض الرصيف ،وهناك على الارض كان أمام الصبى بنس معدنى ملقى على وجهه المرسوم عليه صـورة لنكولن .

فقال هومير : انه بنس ..خذه يايوليسس .. فهو يجلب الحظ خذه واحتفظ به دائما .

فالتقط يوليسس القطعة المعدنية وراح يتطلع فى وجوه من حوله متبسما مسرورا بحظه السعيد .ومروا فى سيرهم بمكتب التلغراف القائم على الناحيـة الاخرى من الطريق فتوقف هومير ليلقى نظرة على ما يجرى فى المكتب قائلا لهم: هنا أعمل ... منذ شهور ستة تقريبا . وقطع حديثه لحظة يفكر ثم عاد يقول وكأنما يكلم نفسه: وكأنها مائة سنة ..

ونظر الى داخل المكتب قائلا :أظن أن هذا هو مستر جروجان، اننى لم أكن أعرف أنه يعمل اليوم ثم التفت للآخرين يقول لهم : انتظرونى هنا لحظة ... سأعود حالا ...

وعبر الطريق مسرعا ودخل المكتب فرأى مستر جروجان أمام صندوق البرق والاسـلاك تدق ولكن العامل الهرم لا يتلقى شيئا من البرقية المرسلة .فجرى هومير الى الرجل قائلا : مستر جروجان .. مستر جروجان ، ولكن الرجـل الهرم لم يجبه ولم يستيقظ .

فعاد الساعى مسرعا يعبر الطريق الى الآخرين الذين ينتظرونه

وقال لهم : ان مستر جروجان ليس بخير ... ولا بد ان اعود لاهتم به ،فعودوا أنتم الى البيت وسألحق بكم بعد قليل .

فقالت بس : حسنا ياهومير .

ولكن ليونيل سأله وهو لايكاد يعرف عمن يتكلم :

ـ ماذا جرى له يا هومير ؟

فقال هومير : لابد أن اعود بسرعة ... سيروا أنتم الآن ، لا ياليونيل ... لم يجر شيء ... سوى انه رجل هرم .

وعاد هومير مسرعا الى المكتب وراح يهز مستر جروجان مرات عديدة ، ثم جرى الى اناء الماء فملأ كوبا ورقيا ونثر الماء على وجه الرجل الهرم ، وفتح مستر جروجان عينيه ، فقال هومير :

ـ هذا هو أنا .. يا مستر جروجان ... انني لم أكن أعرف أنك ستقدم اليوم للعمل والا كنت جئت كما افعل دائما في الاحاد التي تعمل فيها . انى ذاهب بسرعة لاحضر لك القهوة ..

فهز الرجل الهرم رأسه ومديده ليمسك بمفتاح صندوق البرق ، وقطع التيار عن العامل في الناحية الاخرى من الخط ، ثم أخرج برقية بيضاء ووضعها في الآلة الكاتبة وبدا يدق الرسالة .

وخرج هومير عاديا من المكتب متجها الى محل كوربيت على ناصية الطريق وطلب كوب القهوة .

فقال له بيت الواقف على البار : انتظر دقيقة او اثنتين ياهومير . فهو يصنع الآن قهوة طازجة ..

سأل هومير :

ـ أو ليس عنده قهوة جاهزة ولو شيئا قليلا .. ؟

فأجاب بيت :

ـ لقد فرغت كلها .. وها هو يصنع الآن ابريقا جديدا .

فقال هومير : أنها لأمر هام جدا ، وسأذهب للمكتب الآن واعود بعد لحظة فقد يكون اعدها ..

وعندما عاد وجد الاسلاك تدق حاملة البرقية والرجل الهرم لا يكتب عنها شيئا على الآلة الكاتبة ، فراح هومير يهزه قائلا : مستر جروجان .. انهم يرسلون برقية .. وانت لاتتلقاها منهم .. أوقفهم يا مستر جروجان .. قل لهم أن ينتظروا

لحظة .. انهم يعدون قهوة طازجة فى محل كوربيت وسأحضر لك كوبا هنا بعد دقيقة .. أوقفهم يا مستر جروجان .. انك لا تتلقى شيئا من البرقية ..

وخرج هومير عاديا من المكتب .

ونظر عامل البرق الهرم الى البرقية التى كان يدقها على الآلة الكاتبة وعاود قراءة ماكتبه منها :

« مسز كات ماكولى

٢٢٢٦ طريق سانتا كلارا

ايتاكا ، كاليفورنيا

تأسف وزارة الدفاع ان تخبركم أن ابنكم ماركوس .... »

وحاول عامل البرق الهرم أن ينهض من مقعده ولكن الازمة عاودته من جديد ، فقبض بيده على قلبه وسقط بعد لحظة على وجهه فوق الآلة الكاتبة .

ودخل هومير المكتب وكوب القهوة يهتز فى يده ومضى الى الرجل العجوز فوضع الكوب الى جانبه على المنضدة ، وعند ذاك كان صندوق البرق قد توقف عن الدق وساد المكتب سكون عميق .

ـ مستر جروجان .. ماذا جرى ؟

ودفع الرجل الى الخلف بعيدا عن الآلة الكاتبة كى ينظر الى وجهه ، فوقع بصره على البرقية الناقصة فى الآلة . وعرف هومير البرقية ، ولكنه رفض أن يصدقها ، وظل واقفا كأنه قد شل ممسكا بالرجل الهرم :

ـ مستر جروجان !

ودخل فيليكس الساعى فى يوم الاحد الى المكتب وراح يحملق فى هومير وفى الرجل الهرم ويسأل :

ـ ماذا حدث يا هومير ؟.. ماذا جرى للرجل الهرم ؟

قال هومير : لقد مات .

فقال فيليكس : ماذا .. أجننت ..؟

ورن صوت هومير فيما يشبه الغضب وهو يقول :

ـ لا .. لقد مات .

فقال فيليكس : سأدعو مستر سبانجلر على التليفون ..

وراح يدير قرص التليفون ثم انتظر قليلا واعاد السماعة الى مكانها قائلا : انه ليس في البيت .. ماذا نفعل ؟

وعبر فيليكس الى الآلة الكاتبة لينظر هذا الذى يحملق فيه هومير هناك ، فلما قرأ البرقية قال له :

ـ ان البرقية لم تنته بعد ياهومير .. وربما كان اخوك قد جرح أو فقد فحسب ..

فنظر هومير الى مستر جروجان ثم قال : لا .. لقد سمع هو بقية البرقية .. انه لم يكتبها ولكنه سمعها ..

ـ قد لا يكون يا هومير .. سأضرب الآن مرة اخرى لمستر سبانجلر فقد يكون عاد الى البيت ..

وتلفت هومير حوله فى المكتب ، وفجأة ، بصق على الارض فى حنق واحتقار فظيع ، ثم جلس ينظر محملقا امامه وليس فى عينيه أثر لدموع .

وكان توماس سبانجلر قد فكر أن يتجه بعربته الى مكتب التلغراف بعد أن فرغ من نزهته فى الريف حول المدينة ، فلما وصل الى باب المكتب نفخ النفير فخرج فيليكس اليه مسرعا .

ـ مستر سبانجلر .. لقد كنت أحاول ان اتصل بك بالتليفون .. لقد حدث هنا حادث .. انه مستر جروجان .. هومير يقول انه مات ..

فقال سبانجلر لديانا ستيد : عودى انت الى البيت .. وساعود انا متأخرا فلا تنتظرينى للعشاء .. وقد يكون من الأفضل ان تذهبى الى اهلك وتمضى الليلة هناك ..

وقبلها ، ثم خرج من العربة وهى تقول له : حسنا .. يا عزيزى ..

وأسرع سبانجلر داخلا المكتب وتطلع فى مستر جروجان ثم فى هومير والتفت الى الساعى الآخر قائلا :

ـ فيليكس .. اتصل بالدكتور نلسون .. رقم ١١٣٣ .. وقل له أن يأتى هنا حالا ..

وذهب سبانجلر فرفع الرجل من المقعد وحمله الى اريكة فى آخر المكتب ، ثم عاد الى هومير ينظر اليه وقال له : لا تحزن

التى كان يريدها لنفسه .. فكفى هذا الآن .. ولا تحزن هكذا كثيرا ..

ودق صندوق البرق ، فذهب سبانجلر يجيب النداء ، فلما جلس على مقعد مستر جروجان رأى البرقية التى لم تتم . وظل ينظر فيها لحظة ثم عبر بعينيه الى حيث يقف هومير ، وعاد الى الآلة يبرق للعامل الآخر على منتهى الخط يسأله عن البرقية الناقصة . ورد عليه العامل فراح يدق البرقية كاملة ثم أبرق اليه طالبا أن يؤجل ارسال أى برقيات أخرى الى حين . وقام الرجل الى مكتبه فجلس هناك يحملق فى الفراغ .

وسقطت يده فى كسل وتراخ على البيضة التى حفظها لتجلب له الحظ ووجد نفسه دون أن يشعر يدق البيضة على المكتب فى غير ما انتباه حتى تكسرت قشرتها ، وعند ذاك بدأ فى بطء يفرغ القشرة كلها ، وفى ذهول يائس أكل البيضة . ولما اكتشف فجأة قشرها على المنضدة دفعه بيده الى سلة المهملات وقال :

ـ فيليكس .. ادع هارى بيرك عامل البرق وقل له أن يأتى الى هنا مباشرة ، واذا ما جاء الطبيب فقل له أن يهتم هو بالامر كله وقل له اننى سأتصل به بعد ذلك .

وتحرك هومير ماكولى أخيرا الى الآلة الكاتبة ، فنزع البرقية الناقصة ، وأخذ صورتها فحفظها كالمعتاد وطوى الاصل ووضعه فى مظروف ثم دسه فى جيب معطفه ، ونهض سبانجلر ذاهبا الى حيث يقف هومير فلف ذراعه حوله وقال :

ـ هيا بنا ياهومير .. نتمشى معا قليلا .

وتركا مكتب التلغراف معا وسارا ناصيتين لايتبادلان كلمة واحدة ، حتى بدأ هومير أخيرا يتكلم فى هدوء يكاد يكون فيه حنو ورقة :

ـ ماذا تظن على المرء أن يفعل ؟ اننى لا أعرف من أكره ، بل لقد حاولت أن أعرف اذا كنت أكره أحدا فلم أجد .. اننى ببساطة لاأعرف . وهل تقول لى ماذا على المرء أن يفعل فى هذه الحالة ؟ ماذا أستطيع ان أفعل أنا فيما حدث هذا ؟ ماذا أقول . . ؟ وكيف يستطيع المرء أن يظل حيا ؟ ومن يحب ؟

هوميرورد هو عليهم تحيتهم واحداواحدا بالاسم . واقترب المساء ومالت الشمس للغروب وشاعت الحمرة فى السماء وبدأ الظلام يشمل المدينة ، واستأنف هومير حديثه :

ـ « من هو هذا الذى يكرهه المرء ؟ اننى لاأعرف أحدا أستطيع ان أكرهه .. لقد صدمنى بايفيلد وأوقعنى وأنا أجرى فى السباق ، ولكننى لم أكرهه ، فهذه هى طبيعته هو . ولكنى لاأفهم هذا الذى حدث ولاأعرف من الذى فعله .. ولست أستطيع ، ولو جهدت ، أن أدركه . أنا لاأريدان أعرف الا ماذا حدث لاخى .. هذا هو كل ماأريد ان أعرفه .. لم يحدث لى شىء كهذا من قبل ، حقا لقد مات أبى ولكن هذا كان شيئا آخر .. لقد مات أبى بعد ان عاش حياة طويلة طيبة واستطاع فيها أن يكون عائلة . ولاشك اننا حزنا عندما مات ، ولكنا لم نحنق .. وأنا الآن أحس اننى حانق غاضب .. ولكنى لاأدرى على من .. أو ممن .. من هو العدو ؟ أتعرفه يامستر سبانجلر ؟ »

ومر بعض الوقت قبل أن يستطيع مدير المكتب أن يجيب ساعيه ، ثم قال : أنا أعرف على الاقل ان عدونا ليس هو الناس . فلو كانوا هم العدو لكنت اذن عدو نفسى . ان أولاد العالم أجمع كرجل واحد ، فلو كره الواحد منهم الآخر فهم اذن يكرهون أنفسهم هم . بل ان الانسان لايستطيع أبدا أن يكره الاخرين .. انما هى نفسه دائما التى يكره . واذا ماحدث هذا للمرء .. اذا ماكره نفسه فليس أمامه الاشىء واحد فحسب .. هو أن يرحل .. أن يغادر جسده وأن يترك العالم وأن يبتعد عن الناس . ولكن أخاك لم يكن يريد أن يرحل ، بل كان يريد أن يبقى .. وسيبقى مادام قد أراد ..

سأل هومير : كيف ؟ . . . كيف يبقى ؟

قال سبانجلر : أنا لاأدرى كيف . . ولكنى أومن أنه سيبقى .. لعله سيبقى فيك . . وفى أخيك الصغير يوليسس .. أو لعله سيبقى فى هذا الحب الذى تحفظه له .

قال هومير :

حيلة لى فى هـــذا ـ كما يريديوليسس تماما أن يراه.. أريد أن أراه يسير ويقف .. أريد أن أشمه وان أحدثه وان أسـمع صوته . . ورنة ضحكه . أريدأن أعاركه .. كما كنا نفعل .. ولكن .. أين أجده الآن ؟ اننى مهما نظرت حولى فلن أجده . لقد تغير العالم كله الآن ، وتغـير الناس جميعا .. وقطع عنهم شيء طيب كان فيهم . وايتاكا نفسها .. تغير فيها الآن كل شيء لان أخى لم يعد ينضر اليها مرة أخرى !!

ووصلا فى سيرهما الى حديقة المحكمة فاخترقاها مارين بسجن المدينة حتى انتهيا الى أرض الملاعب .

وقال سبانجلر : أنا لن أحاول أن أواسيك فأنا أعرف تماما انى لاأستطيع . ولكنى أريدك فقط أن تتذكر دائما أن الرجـل الخير لايمكن أن يمـوت أبدا . انك ستـراه مرات كثـيرة . . . ستراه فى الطرقات . . . وفى البيوت .. وميادين المدينة .. ستراه فى الكروم والتكاعيب .. فى الانهر والسحب ، وفى كل مايجعل هذا العالم مكانا نعيش فيه ... انك ستحسه وتلمسه فى كل ما أنبته الحب وفى كل ماهناك ليحب ويعشق .. ستحسه فى كل هذه الاشياء الوفيرة .. وفى كل ما ينمو ويكبر . ان شخص الانسان قد يمضى أو قد يحمل بعيدا ... ولكن أفضل جزء فيه يبقى دائما .. أبدا . ان الحب خالد يحيـل كل شيء الى عناصر خالدة ... أما الكراهية فتموت كل لحظة . قل لى .. هل تجيد اللعب بحدوات الخيل .. هل تحسن رميها على العصى ؟

ـ قال هومير : لا ياسيدى .. قليلا جدا ...

قال سبانجلر : ولا أنا أيضا ... ولكن أتحب أن تلاعبنى قليلا قبل أن يعم الظلام ؟

قال هومير :

ـ ليكن ياسيدى ...

- ٣٩ -

النهـاية والبـداية

كان الجندى الاعرج الذى وصل فى نفس القطار الذى حمل داني بوث وهنرى ريف الى بيتيهما فى ايتاكا ، قد بدأ يجول فى المدينة فى خطوات بطيئة يتأمل كل شىء ويحدث نفسه :

تلك هى اذن ايتاكا ... هذه هى المحطة الى سانتافيـــه ... وسماء ايتاكا من فوقها . وهذه هى دار السينما وناس ايتـاكا الافاضل يصطفون فى صف أمامها . وتلك هى المكتبة العـامة ... والكنيســـة البرسبتيرية .. والمدرسة العليـــا ... وأرض الملاعب ... وهذا طريق سانتاكلارا ...وسوق آرا ..والبيت هذا هو .. بيتى !

ووقف الجندى يحملق فى البيت مدة طويلة ثم قال :

ـ أمى وبس .. وهومير ويوليسس ... وفى البيت المجاور ماري وأبوها مستر أرينا . ولم يكن ما يقوله الآن أفكارا تمر برأسه بل صوت الدم يجرى فى عروقه . ايتاكا ... أوه ...

ايتاكا .. وهذه حديقة المحكمة ... وسجن المدينة .. والمساجين من وراء نوافذه ... واثنان من رجال ايتاكا يلعبان بحدوات الخيل ...

وسار الجندى بطيئا ناحية الرجلين ووقف مستندا على عصا السور يرقبهما . وكان هوميرماكولى وتوماس سبانجلر مازالا يلقيان الحدوات على العصا فى صمت ، وقد أغفلا حتى عدالنقط التى يكسبها الواحدمنهما،ولكنهماعلى أية حال يلعبان بالرغم من الظلام الذى اشتد . وفزع هوميرعندما لحظ الجندى معتمدا على السور ، وأ-س لسبب لايعرفه أنه يعرف هذا الجندى .. فمضى اليه وراح ينظر فى وجهه ثم يقول :

ـ معذرة ... لاننى أحملق فى وجهك ... فقد ظننت انى أعرفك ..

ـ أوه ... لا بأس .

فقال هوم ير: أتحب أن تشاركنا فى دور ... تعال وخذ محلى ... لقد أظلمت الدنيا حقا ... ولكن ...

فقال الجندى : لا ... شكرا ... استمروا أنتم ... فانى أفضل أن أرقبكما .

قال هوميرر : لا أظن أنى رأيتك من قبل ... أتسكن ايتاكا ؟

قال الجندى :

ـ نعم ... عدت ... لابقى فيها ...

قال هوميرر :

ـ أتعنى أنك لن تذهب للحرب مرة أخرى ...

قال الجندى :

ـ لا ... لقدأعادونى الى الوطن نهائيا ... ووصلت هنا بالقطار منذ ساعتين تقريبا كنت أجوس فيهما خلال المدينة ... أنظر الى كل شىء مرة أخرى .

ـ ولم لم تعد الى بلدتك ... الا ر ـ تعرف أسرتك أنك هنا ؟

ـ سأعود ... أنا طبعا أريدها أن تعرف ... ولكنى سأعود الى بيتى على مهل... فانى أريدأن أرى أكثر ماأستطيع من ايتاكا أولا ... ولست أكتفى أبدا من النظر ... اننى لا أصدق أنى هنا ... وسأعود لأتمشى قليلا... ثم أرجع لبلدتى ...

ومضى الجندى فى بطء يعرج وهومير يلاحقه بنظراته متعجبا ! ثم التفت الى سبانجلر قائلا :لا أدرى ... يخيل الى أنى أعرف هذا الشخص ... مستر سبانجلر ... لقد اكتفيت من اللعب الآن . وصمت لحظة ثم عاد يقول : ماذا أفعل ؟ ... ماذا أقول لهم ؟ أنا أعرف أنهم ينتظروننى الآن ..لقد قلت لهم أنى عائد للعشاء ، فكيف أدخل البيت وكيف أنظر اليهم ؟ أنهم سيعرفون بمجرد أن يرونى ..أنا لا أريد أن أقول لهم..ولكننى متأكد أنهم سيعرفون ...

فوضع سبانجلر ذراعه حول هومير وقال :

ـ انتظر .. لاتذهب الآن بعد .. اجلس هنا وانتظر قليلا .. فهذا يحتاج لوقت ..

وجلسا فى هدوء على مقعد من مقاعد الحديقة لايتكلمان ، وبعد قليل سأله هومير : ولكن ماذاانتظر ؟

قال سبانجلر :

ـ تنتظر ...!.. انك تنتظر ان يموت فيك هذا الجزء الذى مات منه.. هذا الجزء الذى ليس الا مادة الجسد .. تلك التى تأتى وتروح . وهذا الموت ياهومير يؤلمك الآن .. فانتظر قليلا.. انتظر حتى يموت الألم ويتركك،وعند ذاك يصبح مابقى اخف وافضل مما كان أبدا . وهذا يستغرق بعض الوقت، وسيظل طالما انت حى ، يأخذ منك بعض الوقت مرة بعد أخرى ، ولكنه سينصرف عنك دائما وقد تركك أقرب مما كنت لخير الانسان . فلتصبر على محنتك ، فستعود الى البيت بعد ذلك وليس فيك من أثر لموت .. انتظر وسأجلس هنا معك حتى يذهب هذا الاثر !!

قال هومير :

ـ ليكن ياسيدى ..

وجلس مدير مكتب التلغراف وساعيه على المقعد بحديقة المحكمة فى ابتاكا ينتظران .

***

وفى بيت ماكولى كانت القيثارة الآن تمسح بنغمات أوتارها الالم عن الاشياء جميعا ، وقد اضاء وجه من تعزف عليها قويا مليئا بالحب . اما الفتاة على البيانو فصبية جادة بريئة ، والاخرى التى تغنى حلوه وديعة الروح . وهناك ايضا جلس الصبى الصغير وكأنما يسمع بآذان الاشياء جميعا ويرقب بعيون مليئة بالايمان والحب . وعلى درجات السلم الهابط من الشرفة جلس الشاب الجندى الذى عاد الى بيته فى مدينة لم يرها من قبل ، والى بيت لم يدخله أبدا والى أسرة لم يعرفها فى حياته .. كان الجالس هناك .. هو الناس جميعا .. اى انسان ، قد عاد الى البيت . ان ايتاكا هى مسقط راسه ، وهذا المنزل هو البيت الذى نشأ فيه ، وتلك الاسرة فى الداخل هى اسرته هو .

ووقف يوليسس ماكولى فجأة عند الباب المفتوح مشيرا باصبعه ، فانحنت أخته بس لترى ماينظر اليه ثم التفتت الى أمها قائلة :

ـ ماما .. هناك أحد يجلس على درجات شرفتنا ..

ـ حسنا .. اذهبى اليه يابس واساليه ان يدخل .. ايا كان .. فليس مايدعو ان تخافى ..

وخرجت بس ما كولى الى الشرفة تقول للجندى : ألا تدخل .. امى يسرها ان تتفضل فتدخل ..

فالتفت اليها الجندى فى بطء وزاح ينظر اليها ثم قال فى هدوء :

ـ بس .. اجلسى هنا الى جوارى .. أجلسى الى جوارى حتى أهدأ واستطيع أن أقف ، ان ساقى ترتجف ولو أنى حاولت ان أقف الآن لوقعت .. بس .. أجلسى الى جوارى ..

فجلست الفتاة الى جواره على الدرج وسألته فى لطف :

ـ كيف عرفت اسمى ؟ .. ومن أنت ؟

قال الجنـدى : أنا لاأعرف منأنا ٠ ٠ ولكنى أعرفك أنت ٠ ٠ وأعرف أمك وأخويك٠٠ بس٠٠أجلسى بقربى حتى أهدأ ٠

قالت بس : هل تعرف ماركوس أخى ؟

قال الجندى : نعم ٠٠ لقد وهبنى أخوك حياتى ٠٠ ووهبنى منبتا ٠٠ وأسرة ٠٠نعم أعرفه٠٠فهو أخى أنا أيضا ٠

قالت بس :

ـ وأين ماركوس ؟ ولم لم يعد معك ؟

فأجابها الجنـدى وهو يناولهاخاتمـا أعطاه له ماركوس ماكولى:

ـ بس أرسل لك ماركوس هذا ٠

فصمتت بس لاتتكلم لحظة ثمسألته فى صوت مكتوم لا انفعال فيه :

ـ هل مات ماركوس ؟

قال الجندى : ـ لا ٠٠ صدقينى يابس ٠ ٠ وانحنى الجنـدى على الفتاة وقبلها فى فمها وهو يقول : لا ٠٠ أنه لم يمت !!

ورأت بس أخاها هومير قادمايهبط الطريقفجرتاليه صائحة:

« هومير ٠ ٠ لقد أرسـلهماركوس ٠ ٠ كانا صديقين ٠٠ وجاء فجلس على سلمنا ٠ ٠ »واستدارت تجرىودخلت البيت٠

ووقف هومير ماكولى ينظر الىتوبى جورج ثم قال :

ـ توبى ؟ ٠٠ لقد قلت لنفسىأننى أعرفك عندما تحادثنا فى الحديقة ٠

وانتظر لحظة ثم عاد يقول : لقد جاءت البرقيـة عصر اليوم ٠٠ انها فى جيبى ٠٠ ماذا نفعل ؟

قال الجندى : مزقها ياهومير٠٠ ارمها انها باطلة ٠٠ مزقها ٠

فأخرج هومير البرقية من جيبه وبدأ يمزقها بسرعة ، ثم أعاد القصاصات الى جيبه ٠٠ ليحفظها٠٠ الى الابد ٠

وقال الجندى : أرجوك أن تساعدنى على النهوض ٠٠ وسندخل البيت معا ٠

فانحنى هومير ماكولى على توبى جـورج اليتيم الذى عاد الى البيت أخـيرا ، فامسك الجنـدىبأكتاف السـاعى وقام فى بطء واقفا على قدميه ٠

وعلى نحو مااستطاع هوميرأن يرفع الآن صوته وأن يقول مخلصا لهجته وكلماته من آثار الحزن :

ـ أمى ·· مارى ·· بس ··أعزفوا لنا وغنوا ·· لقد عاد الجندى للبيت ·· فهيا رحبوابه ··

وبدأت الموسيقى مباشرة ·

وقال الجندى : دعنى أقف هنالحظة أستمع ··

ووقف هومير ماكولى وتوبىجورج يستمعان الىالموسيقى،وعلى شفة الجندى بسمةمن الالم الحنون، وعلى شفة الساعى بسمة من سعادة لم يفهمها بعد ·

وبدأت مارى أرينا تغنى ، وخرج يوليسس ماكولى من البيت فأمسك بيد الجندى · وعندماانتهت الاغنيةخرجتمسز ماكولى ومعها بس ومارى الى الباب المفتوح ، ووقفت الام تنظر الى ابنيها الباقين لها وقد أحاطابالغريب ، وتبسم الجندى الذى عرف ابنها الذى مات ، ابتسموفهم · وتبسمت هى الاخرى للجندى ·· الذى أصبح الآن ابنها ·· ابتسمت له كما كانت ستبتسم لماركوس تماما ·

وعند ذاك أخذ الجندى أخويه وسار متجها الى الباب والى مافى البيت من نور ودفء ·

انتهى

مطابع دار أخبار اليوم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00294414